سماحة الإسلام
مع أهل الكتاب

بكر محمد إبراهيم

المقدمة

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين .

أشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين وهو أرحم الراحمين ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الصادق الوعد الأمين وقائد الغر المحجلين.

وبعـــد ،،،

فهذا كتاب فى سماحة الإسلام مع أهل الكتاب وهو موضوع الساعة منذ سنوات قريبة وحتي الآن وهو موضوع قديم حديث فى آن واحد .

والإسلام سمح فى نفسه سمح مع اليهود والنصارى يدل على ذلك نصوص الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة ومعاصريها وتاريخ هذه الأمة.

وقد عاش أهل الكتاب فى ظل الإسلام منذ مبعث الرسول ﷺ وفى العهد الأموى والعباسى وعصر دولة الأندلس وعصر المماليك وحتى العصر الحالى فى أمان وسلام دون اضطهاد أو إرهاق أو تعنت إلا ما كان من حالات شاذة لبعض ملوك كانوا يظلمون المسلمين وأهل الكتاب وهم قلة قليلة .

أما سائر الملوك والأمراء وسائر الأعصار فقد شهدت ازدهار الحضارة الإسلامية وعلو شأن أهل الكتاب وتوليهم المناصب القيادية فى الدولة الإسلامية وتمتعهم بحريتهم وحرية عقيدتهم وشعائرهم والأمان على أنفسهم وأهليهم وبيوتهم ومعابدهم بل وجمعوا الثروات الطائلة دون حرج أو عنت.

ومع ذلك فقد تعرض الإسلام والمسلمين لحملات صليبية ومغولية بشعة على مر العصور، رغم هذه السماحة الإسلامية ورغم ما قدمته الحضارة الإسلامية لأوربا وسائر أقطار الأرض من إشعاع ونهضة وثقافة واكتشافات علمية هائلة.

والسماحة لا تعنى أن يستضعف المسلمون أو أن يتنازلوا عن عقيدتهم ومبادئهم ولكن تعنى العيش فى سلام وترك كل أصحاب عقيدة وما يدينون وبتيسير إقامتهم لشعائرهم وتأمينهم على أنفسهم وأموالهم ومعابدهم.

بل والمشاركة فى بناء الوطن .

ولينظر القارئ إلى تلك النصوص التى تحمل فى طياتها السماحة والعدل والرحمة مع كل إنسان بل مع كل أفراد النوع الإنسانى والمخلوقات الكونية من حيوان ونبات وجماد.

وكانت أوامر الرسول ﷺ وأصحابه لا تقتلوا شيخا ولا امرأة ولا طفلا ولا عابداً في صومعة ولا تقطعوا شجراً ولا نخلا...

نفع الله بهذا الكتاب وألهم الإنسانية رشدها لتحقيق الخلافة فى الأرض والتعايش السلمى بين الشعوب .

هذا وبالله التوفيق ...

المؤلـــف

بكر محمد إبراهيم

الحرية الدينية

وضع الله – جل شأنه – فى القرآن الكريم قانونا عاما التزم به الرسول ﷺ والمسلمون فى جميع عصورهم وديارهم، وهو : ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ وبذلك كان الإسلام يكفل دائما فى بلدانه لجميع لناس شرقاً وغرباً على اختلاف مللهم ونحللهم الحرية الدينية، فلم يُجْبَر أحد على اعتناق الإسلام مكرها قهرا.

بل ترك الناس وما اختاروا لأنفسهم من الدين. ويقول الله لرسوله فى سورة يونس منكرا عليه شدة حرصه على إسلام المشركين من أهل مكة :

﴿ **ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾ .

والله يقول لرسوله إنه لو شاء لجعل الناس جميعا متساوين فى عقولهم وفى إدراكهم السليم لهداه والإيمان بوحدانيته.

ولكنه خلقهم متفاوتين فى عقولهم وفى إدراكهم لحقيقة الهدى والإيمان، ولذلك ينكر على رسوله حرصه على إسلام أهل مكة الوثنيين وسعيه لتحقيق ذلك بكل ما يستطيع من الوسائل الممكنة، مما جعل الله –عز شأنه– يُنزله منزلة من يحاول إكراه أهل مكة على الإيمان بالله.

وفى ذلك تعريض بالثناء على الرسول في جهاده لإبلاغ رسالته وبيان للسبب الإلهى فى عدم استجابة أهل مكة له.

والتزم الرسول ﷺ بما أوجبه عليه ربه، فكان لا يكره –ولا يقبل أن يكره أحد صحابته– شخصا على الدخول فى الإسلام. فمن هداه عقله له وانشرح صدره واستنارت بصيرته له دخل فيه على بينة، ومن أضله عقله وعميت عليه دلائل هداه انصرف عنه.

وعن ابن عباس – رضى الله عنهما– : ﴿لا إكراه فى الدين﴾ نزلت فى مسلم من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له الحصينى، كان له ابنان نصرانيان فقال للنبى ﷺ : ألا أستكرهما على الإسلام فإنها قد أبيا إلا النصرانية، فأنزل الله فيه الآية وأصبحت قانونا مقدسا عند الرسول والمسلمين. وعن عتاب بن شمير قلت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله إن لى أبا شيخا كبيرا وإخوة، فأذهب إليهم فعسى أن يسلموا فآتيك بهم.

فقال له الرسول، إن أسلموا فهو خير لهم، وإن هم أقاموا (أى على دينهم) فالإسلام واسع عريض أى دعهم وما يختارون بكامل حريتهم.

ولم ترو كتب التاريخ الإسلامى عن أى شخص يدين بدين إلهى أو وثنى في الديار الإسلامية أنه أجبر على الدخول فى الإسلام. وكان من يسلم – فى العصور الإسلامية – ينبغى أن يعلن إسلامه أمام قاض وشهود ليثبت أنه أسلم حرا طواعية مختارا لدين الإسلام.

ويقول ابن العطار الأندلسى فى القرن الرابع الهجرى إنه لابد لإسلام نصرانى أو يهودى فى الأندلس من وثيقة يقدمها للقاضى وعليها شهادة شهود بأنه أسلم غير مكره وغير فار من شيء وغير متوقع لأمر، وأنه اختار الإسلام بعد أن وقف على شريعته، وعلم أنه ناسخ لجميع الأديان وأنه الدين الذى لا يقبل الله سواه، وأنه أسلم على يد فلان القاضى أو صاحب الشرطة أو صاحب المدينة أو صاحب السوق أى المحتسب.

وعد المسلمون معاهدة الرسول لأهل نجران اليمنين المسيحيين القانون الملزم لمحافظة المسلمين لأهل الملل إلهية أو وثنية على شعائرهم الدينية ومعابدهم وأموالهم وأن لا يمس بأى صورة رجال دياناتهم، وفيها يقول الرسول : «لنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم (كنائسهم) وكل ما تحت أيديهم من قليل

أو كثير، ولا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته». وعلى ضوء هذه المعاهدة النبوية كتب الخليفة عمر بن الخطاب عهدا لأهل إيليا (بيت المقدس) .

وفيه يقول :

«هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان: أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمهم وبريئهم: أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهد ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم.. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين».

وقد ترسم الخليفة عمر في عهده معاهدة الرسول لأهل نجران مع شيء من التفصيل مثل قوله : إن كنائس المسيحيين لا تسكن ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها شيء. والتزم عمر والمسلمون بذلك لا إزاء كنائس النصارى ومعابدهم فحسب، بل أيضا : إزاء معابد اليهود وبالمثل معابد المجوس عبدة النار في إيران والصابئة عبدة الكواكب في شمالي العراق. وكان رئيس اليهود ببغداد يسمى رأس الجالوت ورئيس النصارى يسمى الجاثليق، وكان الخلفاء يكتبون لهما عهودا بحياطتهما والصيانة لهما هما وأهل ملتيهما وحماية معابدهم.

وإزدهرت الأديرة في العراق والشام ومصر إزدهارا عظيما مما جعل كثيرين يكتبون عنها، إذ كانت تقدم لروادها من الشعراء والمجان أمثال أبي في نواس الخمر المعتقة، وكانت متناثرة في ضواحي المدن العراقية والشامية والمصرية، ويقال إنها بلغت في بغداد وضواحيها خمسة عشر ديرا، ومن أهمها دير قني كان شرقي بغداد، ويقول الشابشتي في وصفه بكتابه الديارات :«دير حسن نزه عامر»، فيه مائة صومعة لرهبانه والمتبتلين فيه، لكل راهب صومعة،

وهم يبتاعون الصوامع بينهم من ٥٠ دينارا إلى ألف. وحول كل صومعة بستان فيه من جميع الثمار والنخل والزيتون، وتباع غلته من خمسين دينارا إلي مائتين. وعلى الدير سور عظيم يحيط به، وفى وسطه قناة جارية، وعيده الذي يجتمع الناس إليه عيد الصليب».

وكانت مصر مليئة بالأديرة، وكان من أهمها دير أنطانيوس شرقى إطفيح من الوجه القبلى، وله أوقاف وأملاك متعددة - كما فى تاريخ أبي صالح الأرمنى - وعليه حصن يدور به، وداخله بستان كبير، وفيه نخيل مثمر وأشجار تفاح وكمثرى ورمان وغير ذلك، وأرضه مزروعة بالبقول، وله ثلاثة عيون ماؤها يجرى دائما ويسقى منها البستان، وفيه فدان وسدس خاصان بالكرم أو العنب، وفيه ألف نخلة، وبه قصر كبير، وصوامع للرهبان مطلة على البستان».

وإنما ذكرت هذين الديرين فى مصر والعراق لأدل على المعاملة الطيبة لمسلمى العراق ومصر لرهبان المسيحية فيهما وإعطائهم الحرية الدينية التامة لأداء شعائرهم الدينية. بينما كانت الكنيسة الملكانية الرسمية فى بيزنطة تعادى عداء شديدا رهبان الكنيسة اليعقوبية، حتى اضطرتهم فى عهد الإمبراطور نقفور إلي مبارحة أنطاكية واصفين بطارقتها بأنهم أضل من فرعون وأشد كفرا بالله من بختنصر.

ولما أعادت بيزنطة فتح مدينة ملطية فى ديار الشام الشرقية وكانت كنيستها يعقوبية أخذوا البطريرك إلي بلغاريا ومات على حدودها كما مات أحد الأساقفة، ورجموا زميلا له بالحجارة أمام باب قصر الإمبراطور، واضطر الباقون إلى إعلان كفرهم بالمذهب اليعقوبى واعتناقهم للمذهب الملكانى فرارا من الموت، وأعيد تعميدهم.

ولم يحدث شىء مماثل لذلك أبدا فى تاريخ الإسلام وحكامه وشعوبه، بل كان الحكام دائما أهل سلام ووئام بين المذاهب المسيحية المتناحرة والملل الدينية

المتخاصمة. ولما عرف المأمون ما بين المذاهب المسيحية النسطورية والملكانية واليعقوبية من خصومات ومشاجرات عزم على أن يصدر لهم كتابا يضمن لكل فريق منهم حرية الاعتقاد وحرية تدبير كنائسهم بحيث يكون لكل فريق مسيحى مهما قل عدده حتى لو لم يتجاوز عشرة أنفس أن يختار له بطريركا خاصا به، وتعترف الفرق النصرانية الأخرى بصنيعه.

غير أن أصحاب الكنائس النصرانية المذكورة آنفا لم يرتضوا منه أن يؤلف هذا الكتاب وينشره في الدولة مخافة أن تتعدد الفرق المسيحية تعددا كبيرا، فعدل عن تأليفه.

وكان يحدث فى أحيان قليلة أن يتولى على بلد وال متعصب فيهدم كنيسة أو يهدمها مشاغبون، فكانت الدولة تسارع إلي بنائها أخذا بعهد عمر بن الخطاب وميثاقه لأهل إيليا الذي حرم فيه على المسلمين هدم كنائس النصارى أو انتقاص شيء منها أو من حيزها.

ويروى أن على بن سليمان والى مصر للرشيد بين سنتى ١٦٩ و١٧١ للهجرة أمر بهدم بعض الكنائس المحدثة بمصر، فاشتكاه القبط إلى الرشيد، فعزله. وخلفه على مصر وال جديد، أذن للقبط فى بناء الكنائس التى هدمها على بن سليمان الوالى قبله بمشورة فقيهى مصر الكبيرين : الليث بن سعد وعبدالله بن لهيعة. إذ قالا : إن تلك الكنائس من عمارة مصر، واحتجا بأن جميع الكنائس بمصر إنما بنيت فى الإسلام زمن الصحابة والتابعين.

وتتمة للحرية الدينية التى كانت مكفولة لأهل الذمة من النصارى واليهود وغيرهما أنهم لم يكونوا يتقاضون أمام محاكم الدولة التى تصدر فى أحكامها عن الشريعة الإسلامية إنما كانوا يتقاضون أمام محاكمهم الملية الخاصة بهم كنسية أو غير كنسية، وكان رؤساء تلك المحاكم الملية يقومون فيها مقام كبار القضاة في محاكم الدولة. وكانوا - غالبا - لا يعاقبون إلا عقوبات روحية مثل

عزل القسس والأساقفة عن مناصبهم، أو منع العلمانيين من حضور الكنيسة، أو دفع غرامة مالية، أو الحرمان من رسوم المباركة الدينية، أو من الدفن على الطريقة النصرانية.

ويذكر الرحالة بتاحيا فى القرن السادس الهجرى أن رؤساء اليهود فى الموصل هم الذين يعاقبون مرءوسيهم أى أنه كانت لهم محاكم خاصة بهم يتولاها رأس الجالوت كما أسلفنا أو كبار أحبارهم فى البلدان الإسلامية المختلفة. وكانت الأندلس مثل هذه البلدان، للنصارى بها محاكم كنسية تنظر فى خصوماتهم وتحكم فيها.

التعايش المادى مع كل الملل :

فرض الله ورسوله على المسلمين - كما رأينا - أن يتعايشوا مع كل أصحاب الملل إلهية وغير إلهية - فى ديارهم - معيشة كريمة تقوم على رعايتهم رعاية تامة وحماية أموالهم ومعابدهم، وكُفلت لهم محاكم كنسية وغير كنسية تفصل فى خصوماتهم.

ويدل - بوضوح - على أنهم نعموا بالمعيشة مع المسلمين أن أحدا منهم - طوال القرون الماضية المتعاقبة - لم يبعد عن موطنه، وأنهم كانوا يسمون أهل الذمة إشارة إلى أنهم فى ذمة الإسلام وعهده.

ونظرة إلي الأعداد الكثيرة فى الديار الإسلامية من النصارى واليهود والمجوس والصائبة تجعلنا نؤمن بأن المسلمين ظلوا يتعاملون فى العصور الماضية معاملة حسنى معهم جميعا، ويقال إنه كان ببغداد من النصارى عشرات الآلاف. وكان منهم أكثر سكان مدينتى تكريت والرها، وكانوا بالشام - ولا يزالون - كثيرين. أما فى مصر فكان عدد القبط المسيحيين كثيرا جدا.

ولما عُنى حسان بن النعمان والى إفريقيا بإقامة ميناء فى الديار التونسية

فى القرن الأول الهجرى بدلا من قرطاجة، وإنشاء أسطول كبير يحمى شواطئ الديار الأفريقية من غارات الروم، جلب من مصر ألف أسرة قبطية لمساعدته فى إقامته دار صناعة كبرى وإنشاء الأسطول الكبير. وكان بالمغرب من قديم بقايا نصرانية من الأسر الرومانية التى كانت به قبل الفتح العربى.

ويقال إن المنصور خليفة الموحدين فى أواخر القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى بنى قصرا لحراسه من الرماة النصارى، وكان عددهم عادة خمسمائة، وكانوا يتقدمون موكبه فى انتقاله من مكان إلى مكان، وكانت الأندلس تكتظ بالنصارى.

ويقول متز: كان اليهود كثيرين فى العراق، ويقدر الرحالة بتاحيا عددهم بالعراق في القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى بمئات من الآلاف، ويقول كانوا كثيرين فى المدن والقرى على نهرى دجلة والفرات، وبالمثل فى مدن الموصل، وكانوا كثيرين فى مدن إيران، وكان لهم قرب أصفهان وشرقى مرو مدينتان سميت كل منهما باسم اليهودية، وكان يسكن دمشق منهم عشرة آلاف ويسكن حلب خمسة آلاف.

ويقول بتاحيا إنه لم يكن بالقدس إلا يهودى واحد، بينما ذكر معاصره بنيامين أنه كان بها من اليهود أربعة، وكان بالقاهرة سبعة آلاف منهم وبالإسكندرية ثلاثة آلاف، وبالمثل فى مدن الدلتا. أما فى الأندلس فنعموا بالحياة هناك فى ظل الدول العربية. ولما طردوا من إسبانيا والبرتغال فى مفتتح القرن السادس عشر الميلادى تحول المغرب الأقصى إلى ملجأ لهم.

وكان المجوس كثيرين فى العراق وبموطنهم فى إيران فى القرنين الهجريين الأولين وبخاصة فى شيراز وجنوبى فارس، وكانت مدينة القرينين شرقى فارس مجوسية خالصة. وكان الصابئة يعيشون فى حران والرقة، ومرت

بهم أواخر القرن الثانى الهجرى فترة إزدهار، فأقاموا لهم عيدا أشعلوا فيه النيران فى جميع شوارع حرن.

وكانت الثيران مزدانة بغالى الثياب وبالورود والرياحين وعلى قرونها الأجراس، والرجال خلفها بالمزامير. وظلوا يعيشون فى رخاء، ويصدر لهم من بغداد منشور فى منتصف القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى يأمر فيه الخليفة بصيانتهم وحمايتهم، مما يدل على أنهم أخذوا يقلون لكثرة من اعتنق منهم بالإسلام، وما نبلغ منتصف القرن الخامس الهجرى، حتى يقول ابن حزم الأندلسى : إنهم فى جميع بقاع الأرض لا يبلغون أربعين شخصا.

وكانت أبواب جميع الأعمال المعيشية مفتوحة لأهل الذمة فى العصور الماضية. ويقول الجاحظ إن العامة فى العراق كانت تأنس للمسيحيين خاصة وتؤثرهم على المجوس ويرونهم أسلم صدورا من اليهود. ويقول إنهم كانوا ينهضون بحرف جليلة مثل العطارة والصيرفة للنقود، ويقول منهم أطباء الخلفاء والوزراء وعلية القوم وأطباء البيمارستانات حتى استقر فى نفوس الناس أن الطبيب الحاذق لا يكون إلا مسيحيا.

ونضيف إلي كلام الجاحظ أنه كان منهم أيضا كبار المترجمين للثقافة اليونانية وقد نال مترجموها من السريان أموالا ضخمة من الخلفاء.

ويقول الجاحظ لا تجد اليهودى إلا صباغا أو دباغا أو قصابا (جزارا) أو شعابا (مصلح جرار أو أحذية). ويقول المقدسى فى القرن الرابع الهجرى: منهم الخياطون والصباغون والأساكفة والخرازون.

ويذكر بنيامين فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى أنه وجد فى بيت لحم اثنى عشر يهوديا يشتغلون بالصباغة، ويقول بروكلمان فى كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية إن أوربا عرفت فى القرن العاشر الميلادى إزدهارا

كبيرا فى تجارة الرقيق، وكان يهود الأندلس هم القابضين على زمام هذه التجارة.

وكان القبط المسيحيون فى مصر يعيشون -غالبا- على الزراعة فى جناتها وكانت خيراتها وطيباتها تملأ حجورهم بالأموال، وتُرك لهم الإشراف المالى على شئون الخراج أو ضرائب الأرض والمزروعات، وظل لهم ذلك وحدهم طوال الأزمنة الإسلامية حتى الثلاثينيات من القرن الحاضر. مما يصور بوضوح اكتمال المودة والتآلف بين المسلمين والقبط فى مصر طوال العصور الإسلامية.

وقد وصف الله مصر بأنها (جنات وعيون وزروع ومقام كريم) وسماها العرب «فردوس الدنيا».. ومما يدل - بوضوح - على أن أهل مصر من القبط كانوا يعيشون فى رخاء مستمر متمتعين بالحكم العربى العادل وحسن المعاملة بينهم وبين المسلمين خبر رواه المقريزى فى أثناء زيارة المأمون العباسى لمصر سنة ٢١٧ للهجرة إذ مر بقرية فى الدلتا تسمى «طاء النمل» وكان بها ضيعة كبيرة لسيدة قبطية تسمى : «مارية» فتعرضت له تسأله أن ينزل فى ضيافتها مع حاشيته ومن يرافقه من جنده فى رحلته إلى الفسطاط عاصمة مصر حينئذ، وعجب لكثرة ما قدمت لهم من أطعمة.

فلما أصبح جاءته ومعها عشر وصائف، مع كل وصيفة طبق، فظن أنها ستقدم له بعض هدايا الريف المصرى. فلما وضعت الوصائف الأطباق بين يديه إذا فى كل طبق كيس مملوء ذهبا، فشكرها، وأمرها برده، فأبت إباء شديدا، وتأمل الذهب أو الدنانير فإذا بها من ضرب عام واحد مما يدل على أنه ربحها من عام واحد، فقال : هذا والله أعجب.

وتوسلت إليه أن يقبلها فتمنع، وقال لها : ردى مالك بارك الله لك فيه.

فأخذت قطعة من الأرض، وقالت : يا أمير المؤمنين هذا الذهب من هذه الطينة التى تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين، وعندى من هذا الذهب شىء كثير. فأخذه المأمون لبيت المال وأقطعها عدة ضياع، وكأنه رأى – وهو محق – أن لا يأخذ الذهب من السيدة القبطية دون مقابل.

وإنما ذكرت هذا الخبر بطوله لنرى ما كان فيه قبط من المسيحيون من ثراء مرده إلى خصب الأرض وإلي أن حكام مصر المسلمين لم يكونوا يثقلون على أصحاب الأرض الأقباط بالضرائب الباهظة وإلى أنه كان يسود الحكم عدل عظيم شهدت به السيدة مارية القبطية للمأمون. ولم يأخذ الذهب على أنه هدية له بل رده إلى بيت مال الدولة. وكانت الحياة بين القبط والمسلمين حياة أمن وتعاون وسلام دائم طوال العصور الإسلامية، ولم يحدث بينهما ما يعكر صفو حياتهما، وإن حدث بين بعض أفرادهما شقاق يوما عاد الوئام سريعا شاعرين بأنهم أفراد أسرة وطنية واحدة فى أرض مصر الطيبة المباركة.

ومما يتضح فيه ذهاب المسلمين وحكامهم في التعايش المادى مع أهل الذمة إلي أقصى غاية أن نجدهم يفتحون لهم الأبواب فى تدبير أموالهم أو تدبير بعض شئون الدولة فى الدواوين أو اتخاذهم مستشارين فى أعمالهم.

واشتهر معاوية مؤسس الدولة الأموية بأنه اتخذ سرجون النصرانى مستشاره المالى، وكان يوحنا الدمشقى يلى الشئون المالية لابنه يزيد ولغير خليفة أموى. ولا نصل إلي القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى حتى نجدهم يتكاثرون فى أعمال الدواوين ببغداد وشكا المسلمون من تسلطهم على أموالهم إلى الخليفة العباسى المتوكل فأمر سنة ٢٣٥ للهجرة – كما فى كتاب الولاة للكندى – بأن لا يستعان بأهل الذمة فى الدواوين وأعمال السلطان التى تجرى أحكامها فيها على المسلمين.

ويبدو أن هذا الأمر سرعان ما أخذ يخفف فى عهده إذ نجده هو نفسه بجعل النفقة فى سنة ٢٤٥ على بناء قصره الجعفرى بيد دليل بن يعقوب النصرانى. وعاد استخدام أهل الذمة بعده فى الدواوين، واتخذ محمد بن عبدالله بن طاهر محافظ بغداد قهرمانا نصرانيا أمينا له ووكيلا خاصا بتدبير دخله وخرجه من الأموال.

ويغلب عدد الكتاب من أهل الذمة فى الدواوين على كتاب المسلمين لأواخر القرن الثالث الهجرى فيأمر الخليفة المقتدر (٢٩٥- ٣٢٠هـ) فى السنة الثانية لخلافته بما أمر به المتوكل قبله من إبعادهم عن الخدمة فى الدواوين. كما يأمر بأن لا يستخدم أحد من اليهود والنصارى إلا فى الطب والصيرفة فى النقود، وسرعان ما خفف هذا الأمر إذ نجد وزيره ابن الفرات يتخذ أربعة من الكتاب النصارى فى دواوينه، وكان يدعوهم كل يوم إلي الطعام معه.

ولما عزم المقتدر فى سنة ٣١٩هـ/٩٣١م على أن يستوزر الحسين بن القاسم أمره أن يصلح ما بينه وبين أعدائه من ذوى البيوتات وقواد الجيش فكان يستعين عليهم بكتابهم النصارى ويقول : لأحدهم - وهو أصطفن بن يعقوب : إن تقلدت الوزارة فأنت قلدتنيها، وأصبح أصطفن بعد ذلك صاحب بيت مال الخاصة فى الدواوين.

واتسعت الدولة البويهية فى بغداد وإيران فى استخدام أهل الذمة فى الكتابة بالدواوين وأعمال الدولة، وكان لعماد الدولة البويهى كاتب نصرانى يلى شئون الدولة، واستخلف عز الدولة البويهى على بغداد والخليفة حين خرج عنها إلى البصرة صاعد بن ثابت النصرانى، واتخذ بعده ابن عمه عضد الدولة كبير الحكام البويهيين فى بغداد وإيران وزيرا نصرانيا هو نصر بن هرون، ويقول مسكويه فى تاريخه إنه عنى بعمارة الأديرة والكنائس، واستأذن عضد الدولة فى إطلاق المال للفقراء من النصارى، فأذن له.

وكل ذلك شاهد واضح على أنه لم يغلق أمام أهل الذمة باب من أبواب الأعمال المعيشية لا فى الزراعة والتجارة والصناعة فحسب، بل أيضا فى دواوين الدولة وشئون الخراج والمال، وكانوا يأخذون من الدولة رواتب تكفل لهم ولأسرهم معيشة طيبة. وكان كبارهم - وخاصة الوزراء - يأخذون رواتب كبيرة تتيح لهم حياة مترفة. ولم يكن الكتاب من النصارى وحدهم الذين يعملون فى دواوين الدولة، فقد كان يشاركهم فيها بعض أهل الذمة من الصابئة وغيرهم، وتولى ديوان الرسائل فى بغداد أبا إسحق الصابىء من منتصف القرن الرابع الهجرى إلي وفاته سنة ٣٨٤ للهجرة.

أما فى مصر فقد اتخذ خمارويه (٢٧٠ - ٢٨٢هـ) وزيرا قبطيا تولى شئون الدولة الإدارية والمالية، وظل الأقباط - كما أسلفنا - منذ الفتح الإسلامى إلى العقد الرابع من القرن الحاضر - وحدهم - المسيطرين على شئون الخراج وضرائب الأرض فى مصر، مما يدل - بوضوح - على حسن التواد والتعايش المادى بين الأقباط والمسلمين فى مصر طوال العصور الإسلامية.

وأكثرت الدولة الفاطمية من استخدام أهل الذمة، وعظم نفوذ اليهود فى عهد خليفتهم الأول بمصر: المعز إذ اتخذ يعقوب بن كلس الذى كان يهوديا فأسلم وزيرا له يصرف أمور الدولة، وصار يتحيز إلى إخوانه اليهود فى دينه السابق، وكان لا ينفذ شىء فى بلاط المعز الفاطمى إلا بمعونته ومعونة اليهود.

وولى ابنه العزيز بعده وتزوج سيدة من القبط، فعظم شأنهم فى بلاطه وخاصة حين ولى منهم عيسى بن نسطورس وزيرا له، وولى نائبا عنه فى دمشق منشا اليهودى، فعظم شأن اليهود هناك، وظلا فى عملهما ثلاث سنوات. وخلفه ابنه الحاكم الفاطمى.

وكان فى الفترة الأولى من حكمه يتخذ أطباءه وكتابه إلا نفرا قليلا من

النصارى واستوزر منصور بن سعدون النصرانى. وولى الوزارة للمستنصر الفاطمى لمدة ثلاث سنوات صدقة بن يوسف الفلاحى، وكان يهوديا فأسلم، وكان يدبر الدولة معه أبو سعد التسترى اليهودى.

وعلى هذا النحو لم يكن فى الديار الإسلامية عمل يتعيش منه المسلمون تعيشا ماديا إلا أشركوا معهم -حسب تعاليم الإسلام- أهل الذمة. وأشركوهم معهم في الأعمال الحكومية بالدواوين وغير الدواوين ورفعوهم إلى منصب الوزارة أعلى المناصب فى دولهم، وكانت تُدر على أصحابها أموالا طائلة، فضلا عن إنفاق أموال المسلمين فى عمارة معابد ملتهم وعمارة الكنائس والأديرة وإطلاق الأموال فى عون فقرائهم على نحو ما كان يصنع نصر بن هرون -كما مر بنا- بتشجيع من عضد الدولة البويهى، فهل حدث فى التاريخ لحكام غير حكام المسلمين رفق بمن يعايش رعاياهم من غير أهل ملتهم مثل هذا الرفق الرائع؟.

ومن تتمة هذا التعايش المادى الرفيق أن نجد المسلمين - كما يحتفلون بأعيادهم مثل عيد رأس السنة الهجرية، ويوم عاشوراء، وليلة مولد الرسول ﷺ وليلة أول رجب وليلة نصف شعبان وليلة غرة رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحى - كانوا يحتفلون بأعياد المجوس الفرس، ومنها عيد السذق وهو عيد للنار معبودتهم، وكانوا يوقدونها طوال الليل ويتغنون حولها ويرقصون، ومن أعيادهم عيد هرمزد إله الخير، وأهم أعيادهم عيد النيروز، وهو عيد الربيع.

وكانوا يحتفلون به احتفالات صاخبة لأول الربيع حين تدخل الشمس برج الحمل، وكانت البلاد الإسلامية جميعا تحتفل معهم به. وكانت أعياد النصارى التى يشاركهم فيها المسلمون كثيرة، فمنها عيد الميلاد، وعيد الفصح، وعيد الشعانين، وكان عيدا قديما للأشجار وخاصة أشجار الزيتون.

وكانت الجوارى النصرانيات يحتفلن به فى قصر الخلافة العباسية إذ يقول أحمد بن صدقة المغنى إنه دخل على المأمون فى هذا العيد، فرأى بين يديه عشرين وصيفة رومية أدرن الزنار (حزاما) على أوساطهن وتزين بالديباج (ثياب حريرية) وعلقن فى أعناقهن صلبان الذهب، وأمسكن فى أيديهن بالخوص والزيتون، وكن يرقصن.

وكان المسلمون فى مصر يحتفلون - ولا يزالون - مع مواطنيهم القبط بأعيادهم، منها عيد ميلاد المسيح وعيد الغطاس فى الشتاء، وعيد خميس العهد قبل عيد الفصح بثلاثة أيام، وعيد الزيتونة، وهو يوح أحد الشعانين، وكانت الكنائس تتزين فيه بأغصان الزيتون وخوص النخل. وبعض هذه الأعياد كانت تتحول إلي كرنفالات كبيرة يلهو فيها المسلمون والقب.

ويقول المقريزى : «كان الناس بمصر يخرجون فى بعض الأعياد ويطوفون الشوارع بالخيال والتماثيل والسماجات» والخيال هو لعبة خيال الظل المضحكة التى تحولت مع الزمن إلي لعبة الأراجوز المعروفة، ولعل التماثيل هى نفس أشباح الأراجور، أما السماجات فأشخاص يتراءون فى صور مضحكة صابغين وجوههم أصباغا مختلفة.

الجزية :

وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنعرف بالجزية التى كانت تفرض على أهل الذمة فإن كثيرين يظنون أنها كانت ضريبة دينية ولا صلة لها بالدين، إنما كانت ضريبة دفاع لا تؤخذ إلا ممن يصلحون للتجنيد من أهل الذمة، إذ لم يكونوا يشتركون فى جيش الدولة الإسلامى الذي يدافع عنهم وعن الوطن، ولذلك كانت لا تؤخذ إلا من الذمى الذى يستطيع القتال وحمل السلاح، فهى لا تؤخذ من صبى ولا من امرأة ولا من راهب ولا من ذى عاهة ولا من شيخ ولا من فقير.

وكانت مبلغا ماليا زهيدا لا يزيد غالبا عن دينار واحد فى السنة، يؤدى دون أى قسوة كما أمرت بذلك الشريعة الإسلامية فلا يعذب أحد فى أدائها ولا يكلف بما لا يطيق، ويمكن تقسيمها. واكتفى حاكم مصر فى أول القرن الثالث الهجرى بأخذ نصف دينار فقط من القبط.

ويقول الرحالة بنيامين إن اليهود فى كل بلاد الإسلام يدفعون دينارا واحدا. وقد ظلت الجزية التى تؤخذ من أهل الذمة جميعا نصارى ويهودا وصابئة ومجوسا فى مختلف العصور والبلاد الإسلامية لا تتجاوز الدينار سنويا تخفيفا عنهم.

التعايش الفكرى:

اندفع العرب من جزيرتهم ينشرون الإسلام وتعاليمه فى أنحاء المعمورة ففتحوا أقطارا كثيرة فى العالم من أواسط الهند وأبواب الصين مرورا بأفغانستان وإيران والعراق والشام إلى مصر والبلدان المغربية، وعبروا رقعة الماء الضيقة فى جبل طارق إلي الأندلس، وركزوا أعلامهم على مشارف جبال البرينيه جنوبى فرنسا.

وهى أوطان كثيرة، وكان يعيش فيها -منذ القدم- شعوب متباينة فى الجنس واللغة والثقافة، وقد دانت جميعا للعرب إذ وجدوهم لا يريدون تملك الأرض فى ديارهم وما تحمل من الخيرات والطيبات .

وإنما يريدون تملك القلوب للدين الحنيف، وأخذ كثير من هذه الشعوب يتعرف عليه، ودخلت فيه جماهير غفيرة منهم لما رأوا فى عقيدته من بساطة ويسر وفى شريعته من إخاء ومساواة بين المسلمين عربا وغير عرب، مع محو جميع الفروق الطبقية والاجتماعية بين الأفراد فى الأمة، ومع تحرير الشعوب من كل عبودية.

ولا خصومة مطلقا بين المسلمين وغيرهم من أهل الذمة، فإن الإسلام يفرض عليهم - كما مر آنفا - حسن المعاملة لهم وأن يحموهم ويحموا أموالهم ومعابدهم، وقد فتحوا لهم أبواب جميع الأعمال حتى فى الدواوين الرسمية كما مر بنا.

وبذلك استطاع الإسلام أن يحدث امتزاجا قويا بين المسلمين وغيرهم، فإذا الكثرة الكثيرة من شعوب الأمم المفتوحة يعتنقون الإسلام، وإذا ما ظلوا على دينهم يشعرون تلقاء المسلمين وحكامهم بأخوة كريمة حتى لنراهم يسرعون بالاستجابة إلى رغبة إخوانهم المسلمين لا فى التعرف على المعارف التطبيقية المفيدة فى تخطيط المدن وعمارة المبانى واستغلال الأرض فحسب بل أيضا فى التعرف على المعارف النظرية البحتة.

وكانت تنتشر فى البلاد المفتوحة الثقافة الهيلينية، وهى مزيج من الثقافة اليونانية وثقافات شرقية مختلفة، وكانت مبثوثة في جنديسابور بإيران، وفى الرُها وحران وقنسرين وأنطاكية والإسكندرية وفى بعض الأديرة بالعراق والشام ومصر. وبحكم ما بثه الإسلام فى العرب من شغف بالعلم والمعرفة أخذوا يتعرفون منذ استقرارهم فى البلاد التى نزلوا فيها عقب الفتوح على وجوه من هذه الثقافة.

وكان كثيرون من أهل الذمة حملة هذه الثقافة الهيلينية قد تعربوا فانتقلوا بثقافتهم إلي المحيط العربى وأخذوا عن العرب ثقافتهم الأدبية، كما أخذ العرب عنهم ثقافتهم الهيلينية، وبذلك بدأ التعايش الفكرى بين أهل الذمة والمسلمين.

ولم يلبث المسلمون فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى أن طلبوا من بعض أهل الذمة المتقنين للعربية أن يترجموا لهم كتبا تحمل بعض العلوم الأجنبية، على نحو ما صنعوا لخالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٨٥

للهجرة، إذ يقول الجاحظ فى كتابه «البيان والتبيين» : «هو أول من ترجمت له كتب النجوم والطب والكيمياء».

ويقول بن خلكان : «له كلام فى صناعة الكيمياء والطب» وكان بصيرا بهذين العلمين متقنا لهما، وله رسائل دالة على معرفته وبراعته. وأخذ الصناعة (أى الكيمياء) عن رجل من الرهبان يسمى مريانوس وكان راهبا روميا، ولخالد فيها ثلاث رسائل. وخالد ومريانوس رمزان قويان للتعايش الفكرى بين المسلمين وأهل الذمة.

وهذا التعايش أخذ يتحول سريعا إلي استجابة بعض أهل الذمة - كما رأينا - لطلب خالد ترجمة بعض ما عندهم من كتب الفلك والكيمياء والطب، وليس ذلك فحسب، فإن مريانوس علم خالدا هذه العلوم، وقد ذكر ذلك خالد فى إحدى رسائله.

ومنذ هذا التاريخ عُنى المستعربون من أهل الذمة بنقل بعض كتب العلوم والمعارف فى لغاتهم إلى العربية استجابة للعرب، من ذلك ترجمة ماسرجويه كتابا فى الطب لعهد عمر بن عبدالعزيز (٩٩ - ١٠١) وترجمة بعض رسائل أرسطو من اليونانية وبعض رسائل فى السياسة من الفارسية إذ نُقل منها كتاب فى تاريخ الساسانيين، كل ذلك فى عهد هشام بن عبدالملك (١٠٥- ١٢٥هـ).

ونمضى إلي العصر العباسى فيتسع هذا التعايش الفكرى بين العرب وأهل الذمة، ويلمع بين المترجمين اسم ابن المقفع ويترجم عن الفارسية منطق أرسطو وكتاب كليلة ودمنه الهندى الأصل وكتبا تاريخية فارسية مختلفة. وكان السريان المسيحيون قد نقلوا عن اليونان علومهم وفلسفتهم، فنشط مستعربوهم فى نقل كنوزهما إلي العربية، ومما نقلوه فى عهد المنصور العباسى (١٣٦ - ١٥٨هـ) كتاب المجسطى لبطليموس فى علم الفلك وكتب أرسطو فى المنطقيات

وكتاب إقليدس فى الأشكال الهندسية وكتب أبقراط وجالينوس فى الطب. ونقل بعض مستعربة الفرس ما عندهم من علمى الفلك والتنجيم كما نقل بعض مستعربة الهند كتابا مشهورا عندهم فى علم الفلك سُمى السند هند.

وينشط هذا التعايش الفكرى لأهل الذمة مع المسلمين فى عهد هرون الرشيد ووزرائه البرامكة، إذ أنشأ لترجمة العلوم الأجنبية مؤسسة سماها دار الحكمة، وتعاون فيها معه كبار السريان المستعربين الذين يحسنون العربية، واختار لرياستها يوحنا بن ماسويه، وكان طبيبا نسطوريا ووضع بين يديه كتابا يحذقون الترجمة، وجلب لهم الكتب اليونانية الطبية من أنقرة وعمورية وبلاد الروم وكلفهم بترجمتها، ولابن ماسويه مؤلفات كثيرة فى الطب وتركيب الأدوية. ووراء هذه المؤسسة لعهد الرشيد مترجمون كثيرون مثل جبريل بن بختيشوع كبير أطبائه، إذ ألف كتبا مختلفة فى الطب.

ومعنى ذلك أن أهل الذمة كانوا يترجمون لإخوانهم العرب – ويؤلفون لهم – كتبا متعددة فى العلوم المختلفة. وعمل وزراء الرشيد : البرامكة على نقل العلوم إلي العربية من الرومية (اللاتينية) واليونانية والفارسية والهندية، وقد طلب يحيي بن خالد البرمكى إلى بطريرك الإسكندرية أن ينقل إلى أهل بغداد كتابا مشهورا فى الزراعة عن الرومية (اللاتينية) ولعله كتاب (Magon) العالم الفينيقي الزراعى الكبير.

وهو كتاب عالمى فى الزراعة وغراسة الأشجار نقله الرومان إلى اللاتينية. وعُنى البرامكة – وأصلهم من الفرس – بنقل التراث الفارسى، ونقل إلي العربية فى أيامهم من الذخائر الفارسية أمثال بُزرجمهر وعهد أردشير بن بابك إلي ابنه سابور، وكتاب جاويدان خرد فى صنوف الآداب ومكارم الأخلاق، وكتاب هزار أفسانه.

وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة. وكما عُنى البرامكة بنقل التراث الفارسى إلي المثقفين من العرب عنوا بنقل التراث الهندى، إذ يقول الجاحظ : «اجتلب يحيى بن خالد البرمكى أطباء الهند مثل منكه وبازيكر...

وقد عملوا فى البيمارستان الكبير ببغداد، وسرعان ما استعربوا، وشاركوا هم وغيرهم من مستعربة الهند فى نقل التراث الهندى وخاصة فى الطب والعقاقير، وشمل نقلهم قصة السندباد وكتبا كثيرة فى الخرافات والأسمار أُولعت بها العامة.

وبلغت هذه الموجة الحادة للتعايش الفكرى بين أهل الذمة والمسلمين أقصى غاياتها فى عهد المأمون بن الرشيد، إذ حول دار الحكمة لأهل بغداد إلي ما يشبه معهدا علميا كبيرا يختلفون إليه، وألحق به مرصدا فلكيا مشهورا. ولما هزم إمبراطور بيزنطة في بعض مواقعه كتب إليه يسأله إرسال بعثة تختار طائفة من كتب العلوم اليونانية القديمة المخزونة فى بلده، فاستجاب إليه بعد امتناع، فأرسل إليه بعثة حملت ما استطاعت من الكتب اليونانية إلي بغداد.

وأخذ المترجمون عن اليونانية – من أهل الذمة – يعنون بترجمتها. ولما هادن المأمون صاحب جزيرة قبرص أرسل إليه يطلب ما حُفظ عنده من الكتب اليونانية، وكانت كتبا لفلاسفة اليونان فأرسلها إليه. وأكب عشرات المترجمين ينقلون فى دار الحكمة أكثر هذه الكتب إلي العربية، ومن أهمهم يحيى بن البطريق وكان يجيد اللاتينية واليونانية، وترجم لمن حوله من العرب قصة طيماوس لأفلاطون وكتب أرسطو فى النفس والحيوان والآثار العلوية وكتاب الترياق فى الطب لجالينوس، وتُرجمت حينئذ كتب الموسيقي لإقليدس.

وممن أخذ نجمه يتألق فى التعايش الفكرى السليم بين السريان المسيحيين والمسلمين منذ عهد المأمون حنين بن إسحق. وكان دقيقا فى نقله إلى

أبعد حد مما جعل المأمون يأمر بأن يأخذ دائما وزن ما يترجمه ذهبا. ولإعجاب الخليفة المتوكل بروعة ما ينقله إلي العربية من اليونانية أهداه ثلاث دور، وحمل إلى كل دار ما تحتاج إليه من الأثاث والفرش والآلات والكتب وأنواع الستائر الأنيقة، وأقطعه بعض الإقطاعات أو الضياع وجعل له راتبا شهريا خمسة عشر ألف درهم.

وكان حنين مسيحيا نسطوريا رحل إلي بلاد الروم وتعلم اليونانية وأتقنها، وكان يتقن السريانية والعربية والفارسية، وجعل الخليفة المتوكل له كتابا حاذقين بالترجمة يترجمون بين يديه وهو يتصفح ما يترجمونه، وكان يشغف بترجمة الكتب الطبية اليونانية وترجم منها لجالينوس عشرات. وهو بتلاميذه يؤلف مدرسة كبرى فى النقل من اليونانية، ومن أهمهم ابنه إسحق وابن أخته حبيش.

وكان إسحق يعنى بترجمة الكتب الفلسفية وترجم كثيرا لأرسطوا، وكان حبيش - مثل خاله - يعنى بترجمة الكتب الطبية، ومن زملائهما فى التلمذة لحنين أصطفن، وهو أول من نقل للمسلمين كتاب ديوسقوريدس فى النبات وكتاب أورِيباسيوس فى الأدوية المفردة.

وبجانب هذه المدرسة الكبيرة لنقل الفكر اليونانى كان هناك مترجمون يفوقون الحصر، منهم ثابت بن قرة مترجم كتاب الأصول لإقليدس، وقسطا بن لوقا البعلبكى، وكان يعنى بنقل كتب فلاسفة اليونان. وخاتمة النقلة العظام من اليونانية إلى العربية متى بن يونس، وهو من أصل يونانى، واشتهر بنقله إلى العربية جميع آثار أرسطو فى المنطق وغير المنطق.

وهذا التعايش الفكرى من قبل أهل الذمة سريانا وغير سريان لم يقدموا فيه لإخوانهم المسلمين إخاءهم ومودتهم فحسب، بل قدموا لهم كل ما يملكون من كنوز العلوم وذخائر الفلسفة اليونانية بمنتهى الصدق والإخلاص لا يكتمون

منه شيئا ولا يخفونه، ولا يحاولون أى محاولة لتضليلهم فيه أو فى بعضه بأى صورة من الصور، وكأنما رأوا فى ذلك تحببا إلي إخوانهم المسلمين، فأدوه بكل ما استطاعوا من الدقة تارة نقلا وتعريبا، وتارة تعريفا وتعليما، وظلوا على ذلك ثلاثة قرون أو تزيد يدعمون هذا العمل من الترجمة والتعليم للمسلمين موثقين التآلف معهم بل التعايش الفكرى السديد.

وكان الأولون من أهل الذمة سريانا وغير سريان نقلوا بعض كتب مهمة نقلا حرفيا به أحيانا شىء من الغموض فى المعانى أو عثرات أسلوبية أو صعوبات فى الأداء فرأى بعض المترجمين - وخاصة من السريان - منذ عهد البرامكة والمأمون أن يعيدوا ترجمة هذه الكتب المهمة، حتى يستوعبها المسلمون ويتمثلوها تمثلا دقيقا، تمكينا لتآلفهم معهم واستجلابا لمودتهم.

وقد أكب المسلمون على كل ما ترجمه ونقله لهم أهل الذمة من تراث أممهم العلمى يستوعبونه وكانوا - فى كثير من الأحيان - يتدارسون معهم ما ينقلونه لهم من العلوم على نحو ما صنع خالد بن يزيد بن معاوية المار ذكره، فقد ترجم له مريانوس كتابا فى الكيمياء وعلمها له كما أسلفنا. ومضى المترجمون منذ هذا العهد المبكر فى القرن الأول الهجرى ينقلون تراثهم العلمى، ويعلمون علومه لمن يريد ذلك من إخوانهم المسلمين. كما يعلمونهم ما به من تفلسف وفلسفة.

وكانت مجالسهم دائما مليئة بطلاب العلوم والفلسفة يتلقون عنهم ما يعرضونه عليهم من التراث العلمى والفلسفى. ومن المجالس التى اشتهرت فى القرن الثانى مجلس يوحنا بن ماسويه رئيس دار الحكمة فى زمن الرشيد، فقد «كان أعمر مجلس بمدينة بغداد لمتطبب أو متكلم أو متفلسف.

وكان تلاميذه يقرءون عليه فى مجلسه كتب المنطق لأرسطو وكتب

جالينوس فى الطب». وعلى شاكلة مجلسه كانت مجالس كبار المترجمين فى القرنين الثالث والرابع للهجرة من أمثال حنين بن إسحق ومتى بن يونس.

وبفضل ما وضع أهل الذمة تحت أعين المسلمين من الثقافات المترجمة : الفارسية والهندية والسريانية وبخاصة الثقافة اليونانية وما تحمل من العلوم، وأيضا بفضل تعليمهم تلك الثقافات ومدارستها لهم أخذوا يتمثلون كل ذلك تمثلا منقطع النظير، وسرعان ما أخذ يتكون لهم علماء عالميون فى كل علم مثل جابر بن حيان الكيميائى فى القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى، وله فى الكيمياء أكثر من مائة رسالة ترجم الغرب كثيرا منها إلي اللاتينية.

وما نلبث أن نلتقى - فى عهد المأمون - بالخوارزمى مكتشف علم الجبر ومفتتح سلسلة الرياضيين العالميين. ومنذ القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى إلي القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى يقيم المسلمون نهضة علمية ضخمة ظلت تقود العالم وحدها طوال ستة قرون، تتلمذ الغرب فيها لأساتذتها وخاصة فى صقلية والأندلس.

وبفضل ما ترجم السريان وعلموا المسلمين من الفلسفة اليونانية نفذ المسلمون إلى إيجاد فلسفة إسلامية لهم، منذ عهد المأمون وظهور الكندى أول فلاسفتهم، وله كتب وراسائل تُعد بالعشرات بل بالمئات.

وتتناول العلوم الرياضية والفلكية والهندسية والطبيعية والأخلاق والسياسة والمنطق والكلام والجدل والطب، وكان يشيد بالعقل ويقول إن النفس من نور الله، وهى تتصل بالجسد، ولكنها تظل فى جوهرها مستقلة عنه، حتى إذا فارقته التذت لذة كبرى.

وتلاه فى القرن الرابع الفارابى، وهو يمزج بين روحانية الإسلام ونظريات الفلسفة اليونانية، واشتهر بعده فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر

الميلادى ابن سينا أكبر فلاسفة الإسلام وعنده تمتزج الفلسفة اليونانية بالحكمة المشرقية والروح الإسلامية. وجاء بعده فلاسفة الأندلس وأهمهم ابن رشد، وله محاولات رائعة فى التوفيق بين الفلسفة والدين الحنيف.

ومن ظواهر هذا التعايش الفكرى الخصب قيام حركة واسعة من المناظرات والجدل بين المسلمين وأهل الذمة من أصحاب النحل المختلفة فى عقائدهم والعقيدة الإسلامية مما يوضح كيف أن أهل الذمة فى العالم الإسلامى لم يكونوا يعيشون بحرية تامة في أداء الشعائر التى فرضتها عليهم عقائدهم فحسب، بل كانوا أيضا يعيشون نفس هذه المعيشة فى الدفاع عنها فى مناظراتهم العقيدية للمسلمين. وكانت هذه المناظرات فى عصر بنى أمية تحتدم فى الشام بين المسلمين وبعض رهبان الكنائس.

ومن أهم النصارى الذين كانوا يشاركون فى هذه المناظرات بالشام يوحنا الدمشقى الذى كان يكتب اليونانية، ومر بنا أنه ولى إدارة الشئون المالية فى دمشق لغير خليفة، وله مؤلفات متعددة، منها محاورة مع مسلم فى ألوهية المسيح، ومنها كتاب لإرشاد النصارى فى جدالهم مع المسلمين، سوى مجادلاته مع المسلمين فى مسألة القدر وحرية الإرادة للإنسان، وكان بعضها يدور أحيانا فى مجالس بعض الخلفاء الأمويين.

وهو وجه مشرق من وجوه عالمية الإسلام فى إبان عصوره، فإن الخلفاء الأمويين لم يفتحوا فقط الأبواب لأهل الذمة كى يتعايشوا فى حرية تعايشا ماديا مع المسلمين، بل سلموا أيضا لبعضهم تصريف الشئون المالية للدولة، وقد تعايشوا فكريا بحرية مع المسلمين مع مناقشة العقيدة والقدر.

ونمضى إلى العصر العباسى فيحتدم التعايش الفكرى بين المسلمين وأهل الذمة من مختلف الملل فى الترجمة وتعليم العلوم مما ألمنا به آنفا، وتحتدم

المناظرات ويحتدم معها الجدل فى شئون العقيدة بين علماء الكلام المسلمين وبين أصحاب الديانات إلهية ووثنية غير إلهية. وبين أيدينا أخبار مختلفة عن اشتداد هذا الجدل فى العراق بالقرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى .

إذ يقول صاحب كتاب الأغانى فى الجزء الثالث منه : كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام (أى المتكلمين فى العقائد والقدر) هم عمرو بن عُبيد وواصل بن عطاء (وهما من المعتزلة) وبشار الأعمى (وهو ماجن زنديق) وصالح بن عبد القدوس(المانوى المؤمن بإلهى النور والظلمة) وعبدالكريم بن أبى العوجاء (زنديق) ورجل من الأزد.

وكان الستة يجتمعون فى مجلس الأزدى ويختصمون عنده. وعبثا كان يحاول رأس المعتزلة وزعيمهم واصل بن عطاء وصديقه الذى يدين بمذهبه فى الاعتزال عمرو بن عبيد المشهوران بقدرتهما الرائعة فى جدل أصحاب الديانات أن يقنعوا بشارا وصالح بن عبدالقدوس وعبد الكريم بن أبى العوجاء بالخطأ فى تصوراتهم ومداركهم الدينية.

وأهم من هذا النص نص فى الجزء الثانى من كتاب النجوم الزاهرة بنفس البلدة جاء فيه : «كان يجتمع بالبصرة عشرة فى مجلس لا يعرف مثلهم : الخليل بن أحمد صاحب العروض سُنى، والسيد بن محمد الحِمْيَرى الشاعر رافضى، وصالح بن عبدالقدوس ثنوى، وسُفيان بن مجاشع صُفُرى، وبشار بن بُرد خليع ماجن، وحماد عجرد زنديق، وابن رأس الجالوت الشاعر يهودى، وابن نظير النصرانى متكلم، وعمرو ابن أخت الموبذ مجوسى، وابن سنان الحرانى الشاعر صابئى».

والنص يشمل جميع أصحاب العقائد والنحل بالعراق، فالخليل بن أحمد واضع العروض وأوزانه مسلم سنى يقول بخلافة أبى بكر وعمر عن استحقاق،

والسيد بن محمد الحميرى رافضى أى شيعى متطرف يطعن فى أبي بكر وعمر والصحابة، وصالح بن عبدالقدوس ثنوى أى مانوى يقول بأن للمعالم إلهين : إله النور وإله الظلمة، وسفيان بن مجاشع من الخوارج الصفرية الذين كانوا يؤثرون القعود عن جهاد الأمويين فى أول أمرهم، ثم حملوا السلاح لحربهم.

وبشار بن برد خليع ماجن، وفات صاحب النجوم الزاهرة أنه زنديق، وحماد عجرد زنديق، وابن رأس الجالوت كبير أحبار اليهود ورئيسهم فى العراق، وابن نظير نصرانى، وعمرو ابن أخت المويذ مجوسى، وابن سنان الحرانى الشاعر صابئى.

وواضح أن كل شخص من هؤلاء الأشخاص العشرة كان يمثل عقيدة من العقائد فى العصر العباسى الأول ومنهم ثلاثة مسلمون : سنى، وشيعى رافضى، وصفرى من الخوارج، ومنهم زنديقان، ثم خمسة : مانوى، ويهودى، ونصرانى، ومجوسى، وصابئى. وكانوا يتجادلون ويتحاورون فى عقائدهم ويتناشد الشعراء منهم أشعارهم. ولا يمكن أن يجتمع هذا المجلس فى أمة من الأمم، إنما يجتمع فى الأمة الإسلامية فى أوج عزها وسلطان دولتها فى القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى، لعالمية دينها ولما كفل لأهل الذمة من حرية فى العقيدة.

وظل علماء الكلام المسلمون بالعراق فى العصر العباسى وبعده يفتحون مجالسهم لأهل النحل المختلفة للحوار معهم والجدال فى العقائد، يدل على ذلك ما رواه أندلسى فى كتاب جذوة المقتبس يسمى أحمد بن محمد بن سعدى، كان من الفقهاء المحدثين نزل بغداد فى الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى .

وقال إنه عاد منها إلي القيروان فى تونس، فسأله فقيهها المالكى ابن أبي زيد المتوفى سنة ٣٨٦ للهجرة : هل حضرت مجالس أهل الكلام؟ فقال :

حضرت مجلسين، وأول مجلس حضرته جمع الفرق كلها : المسلمين من أهل السنة والبدعة، والكفار من المجوس والدهرية (الذين لا يؤمنون بالبعث) والزنادقة، واليهود، والنصارى.

ولكل فرقة رئيس يتكلم على مذهبه ويجادل عنه. وإذا جاء رئيس لأى فرقة قامت الجماعة إليه قياما على أقدامهم، حتى يجلس فيجلسوا بجلوسه، فإذا غص (ازدحم) المجلس بأهله، ورأوا أنه لم يبق لهم أحد ينتظرونه .

قال قائل من الكفار: قد اجتمعتم للمناظرة، وإنما نتناظر بحجج العقل وبما يحمله النظر والقياس فيقولون نعم لك ذلك. ويقول ابن سعدى قيل لى : هناك مجلس آخر للكلام، فذهبت إليه. فوجدتهم مثل سيرة أصحابهم السالفين.

وواضح من حديث الفقيه الأندلسي أن مجالس المتكلمين فى العصر العباسى ظلت تفتح أبوابها للمناظرات والجدال والحوار لمتكلمين من الفرق الإسلامية من أهل السنة والبدعة، وللمجوس عبدة النار، وللمانوية الذين يؤمنون بإلهى النور والظلمة، وللصابئة عبدة الكواكب، وللزنادقة الملحدين وللدهرية الذين لا يؤمنون بالآخرة، ولليهود، وللنصارى.

وكل تلك المناظرات والمحاورات والمجادلات التى تصور تعايشا فكريا إلى أبعد الحدود إنما تمت وازدهرت بفضل عالمية الإسلام الذى وسع فى دياره كل الملل والنحل إليهة وغير إلهية متعاملا معها على قدم المساواة.

عقلانية الإسلام:

كان الرسل - قبل الإسلام - يرسلون إلى أقوامهم داعين - مثل محمد ﷺ إلى عبادة الله وحده، وكان يعارضهم كثيرون من أقوامهم، فكان الله يؤيدهم بمعجزات وخوارق حسية، لعلها تفحمهم وتدفعهم إلي الاستجابة لرسلهم، غير أنهم كانوا يظلون فى عنادهم وجحودهم.

ويذكر الله في سورة الإسراء أنه أرسل موسى إلى فرعون وبنى إسرائيل بتسع آيات ومعجزات واضحات الدلالة، وقد فصلها فى سورة الأعراف فى الآيات ذوات الأرقام ١٠٧ ، ١٠٨، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٤ وهى انقلاب عصاه ثعبانا مبينا يلقف كل ما يأفكه سحرة مصر مما سحروا به أعين الناس، وإخراج يده من جيب ثوبه ﴿ فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾ مما جعل الناس تنبهر انبهارا شديدا، وإصابة آل فرعون بالستين أى بالجدب وبنقص الثمرات أى قلة الإنتاج والمحصول.

ثم يذكر الله خمس معجزات أيد بها موسى قائلا :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) ﴾ [الأعراف]

والطوفان : فيض شديد للنيل أهلك الحرث والزرع، والجراد : حشرة تأكل ورق الشجر والنباتات والسنابل، والقمل : ضرب من القراد يمتص دماء الدواب، وهو غير القمل، والضفادع التى تسكن مناقع المياه، والدم إذ كان موسى يأخذ من نهر النيل ماء ويسكبه أمام فرعون فيستحيل دما.

والمعجزة التاسعة إرسال الله عليهم الرجز، وهو وباء. ولجئوا إلى موسى قائلين له إن كشفت عنا هذا الرجز أو الوباء نؤمن بك ونرسل معك قومك بنى إسرائيل إلى المكان الذى تريده، ودعا موسى الله لهم فكشف عنهم الرجز أو الوباء، ونكثوا عهدهم ولم يفوا بما وعدوه من السماح لبنى إسرائيل بالخروج من مصر معه، مما اضطر موسى إلي الخروج مع قومه ليلا سرا. وعلم فرعون بخروجهم، فحاول أن يلحقهم بجنوده وجد فى أثرهم. وكان موسى قد بلغ مع قومه شمالى بحر القلزم أو البحر الأحمر، فغرقوا جميعا لتكذيبهم معجزات الله لموسى، وجحودهم ما جاءهم به من توحيد الله وانفراده بالألوهية.

وأرسل الله صالحا إلى قومه ثمود فى مدينة الحجر المسماة الآن مدائن صالح شمالى الحجاز، وذكر قصته مع قومه مفصلة فى سور الأعراف وهود والشعراء والنمل وكيف أنه كان كلما دعاهم إلي عبادة الله وتقواه إزدادوا نفورا وجحودا واستكبارا إلا قليلا منهم آمنوا به. وعبثا كان رسوله صالح يلفتهم إلي آلاء الله ونعمه عليهم وكيف أحال لهم الأرض جنات وعيونا وزروعا ومكنهم من الجبال ينحتون لهم فيها بيوتا مما يوجب عليهم شكره والإيمان به.

وظلوا يحادونه ويطالبونه بمعجزة تثبت صدقه. وسألوه ملحين أن يخرج لهم من صخرة عندهم ناقة يرونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم، فأخذ عليهم رسولهم صالح عهدا موثقا إن أجابه الله إلى ما سألوه أن يؤمنوا به، ودعا صالح ربه، فانشقت الصخرة عن ناقة، وقال لهم صالح : هذه ناقة الله تأكل فى أرضه، ولها نصيب معين من الماء، ولكم نصيب آخر منه. وهم يزدادون إصرارا على كفرهم، وهو يحذرهم أن يموسها بسوء.

وفكر نفر منهم في قتله، وأغووا شخصا منهم – اسمه قدار – يذبحها فذبحها. وفى بعض الآيات ينسب الله ذبحها إليهم جميعا، لأنه ذبحها برضاهم وإغوائهم له.

وتوعدهم صالح بأن عذاب الله سينزل بهم بعد ثلاثة أيام من جريمتهم الكبرى. ودمرهم الله برجفة أهلكتهم جميعا ماعدا صالحا والمؤمنين به.

وحياة عيسى الرسول إلى بنى إسرائيل سلسلتان من المعجزات الخارقة فقد حملت به مريم العذراء بدون أب : معجزة كبرى، وكلامه فى المهد معجزة ثانية كبرى. وإن صحت الرواية بجعله الماء خمرا فى عُرس «قانا الجليل» يكون ذلك معجزة له، وفى آية سورة آل عمران رقم ٣٩ خمس معجزات له أولاها أنه إذا صور شيئا من الطين على هيئة طير ونفخ فيه صار طيرا حقيقيا حيا يطير

﴿ بإذن الله ﴾ وتكررت هذه الكلمة مع معجزاته لئلا يتوهم أنه شريك لربه فى خلق الكائنات، ويعلم أنه يأتى ما يأتى من المعجزات لا بقدرته، وإنما بإذن الله وقدرته وإرادته.

والمعجزة الثانية أنه يشفي الأكمه الذي يولد أعمى فيصبح بصيرا يرى الناس والدنيا من حوله بإذن الله وقدرته.

والمعجزة الثالثة أنه يشفى الأبرص الذي يشيع فى جلده بياض مشوب بحمرة، فإذا هو يتخلص من هذا المرض الذي يعجز الأطباء حتى اليوم عن شفاء المريض به، وقد شفاه بإذن الله وقدرته.

والمعجزة الرابعة معجزة كبرى إذ يحى الموتى بإذن الله أى بدعاء ربه وإرادته. والمعجزة الخامسة أنه كان يُنبيء الشخص من بنى إسرائيل بما أكله فى بيته وما ادخره لوقت حاجته إليه.

وهذه المعجزات التى أجراها الله على يد عيسى ليصدقه بنو إسرائيل لم تُجد نفعا معهم بل زادتهم جحودا وعنادا وإصرارا على رفض دعوته كما رفضت ثمود دعوة صالح مع ما جاءهم به من معجزة الناقة التى كانوا يشاهدونها بأبصارهم.

وكما رفض فرعون وقومه دعوة موسى مع ما جاءهم به من معجزاته التسع، فقد زعموا أنها من السحر وفنونه وأن موسى وأخاه هرون ساحران. وكل هذه الرسالات لعيسى وصالح وموسى كانت تستند بوضوح إلي المعجزات المادية ومنطق الحس.

وطالب الرسول رءوس الكفر فى قريش بمعجزات مماثلة كما جاء فى سورة الإسراء فى الآيات رقم ٩٠ إلى ٩٣ إذا قالوا للرسول ﷺ : لن نؤمن بك حتى تشق لنا من الأرض ينبوعا مثل زمزم، أو يكون لك فى أرضنا بستان من

نخيل وعنب تجرى فيه المياه، أو تسقط السماء علينا قطعا من العذاب، أو تأتينا بالله والملائكة مجموعين، أو تصعد فى السماء وتنزل علينا كتابا نقرؤه.

ويكرر الله فى القرآن أنه لو أيد رسوله بمثل هذه المعجزات - كما يريد قومه - لكذبوه كما كذب الرسل السابقين أقوامهم، وقالوا إنها سحر أو ما يشبه السحر، يقول جل شأنه فى سورة الأنعام :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) ﴾ [الأنعام]

ويقول أيضا فى نفس السورة لرسوله :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) ﴾ [الأنعام]

لذلك اختار الله لخاتم رسله : محمد ﷺ أن لا يكون الإقناع فى رسالته قائما على المعجزات المادية ومنطق الحس، وأن يكون للعقل ومنطقه النصيب الأوفر فى دعوته ورسالته.

ودعا الله فى القرآن البشر إلي الاحتكام إلى العقل عشرات المرات وفيها يجعله حكما فى الإيمان به وبوحدانيته، إذ يطلب إلى الناس أن يكون إيمانهم به لا عن تسليم بغير عقل، بل عن عقل ونظر سديد فى الكون نظرا يهديهم إلى ال يمان بوجود الله ووحدانيته. والقرآن يكرر ذلك عشرات المرات - إن لم مئاتها - فى سوره المختلفة، ونسوق من ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة :

﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا

يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾ [البقرة]

والله يقرر فى الآية الأولى ألوهيته ووحدانيته، ويقيم على ذلك دلائل كونية من خلق السموات والأرض وما أودع فيهما من مخلوقات. والسموات إذا ذكرت مفردة كما سيأتى فى الآية كان المراد بها الجو المرتفع فوقنا. وإذا ذكرت مجموعة كما فى أول الآية كان المراد بها أجرامها العظيمة.

وفى رأى كثير من المفسرين أنها السيارات السبع : الزهرة والمريخ وأخواتهما، وكأنها السموات السبع الثوابت المكررة فى القرآن، والله يدعو إلى التدبر فى خلقه للسموات وما بها من الكواكب التى لا يعتريها في جريها أى خلل. وبالمثل يدعو إلى التأمل فى الأرض ومابها من كائنات شتى.

فإن فى المجموعتين الأرضية والسماوية ما يدل عقلا على خالق عظيم لها هو الله، وبالمثل اختلاف الليل والنهار بين ظلمة ليلا للسكون والراحة وضياء نهارا للعمل وكسب المعاش، ولو دامت الظلمة أو الضياء لاختل نظام الأرض واختلت حياة البشرية.

ويوضح الله هذا البرهان العقلى الدال على وجوده ووحدانيته قائلا :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾ أى دائما لا ينقطع

﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

ويدعو الله إلى النظر عقليا فى ﴿الفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس﴾ فإنها تشتمل على آيات مختلفة هى آية خلق البحر الذى تجرى فيه، وآية إلهام الله للإنسان أن يصنع السفن لتشق مياهه، وآية الرياح التى سخرها الله للإنسان كى يدفع بها سفينته إلى حيث يشاء يمينا أو يسارا وجنوبا أو شمالا حامله له عروض التجارة، أو لمشاهدة البلاد والزيارة، أو المغزو، أو للحج إلي بيت الله. ويدعو الله إلي التأمل فيما يُنزل من السماء من ماء.

ونسب الله إنزال الأمطار من السماء إلي الأرض إليه، لأنه هو الموجد والمحكم لأسباب نزولها بتحويله ماء البحار بخارا يتراكم سحبا عذبة، وتسقط مياه السحب على الأرض مكونة أنهارا وعيونا، وتُسقى منها الأرض، فتحيا ويعم فيها النبات بعد أن كانت مجدبة، وتنمو فيها الزروع وتحمل محاصيلها وحبوبها كما قال الله تعالى فى سورة يس :

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) ﴾

ويذكر الله أنه بث فى الأرض من كل دابة تدب على وجه الأرض على اختلاف أشكال الدواب وهيئاتها وألوانها مما تنتفعون به وتتمتعون بمشاهده، ومما تأكلون وتركبون. ويقول الله تعالى فى سورة هود :

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦) ﴾ [هود]

أى المكان الذي تأوى إليه وتسكن فيه ﴿ومستودعها﴾ أى المكان الذي تدفن فيه. ويدعو الله إلى التأمل فى تصريفه للرياح بين هبوب وركود وبين نسيم وزوبعة وعاصفة وبين ريح حارة وريح باردة وبين ريح جافة وريح رطبة.

كما يدعو إلى التأمل فى السحاب الذي يتكون من تصاعد بخار البحار،

ويجمع الله البخار ويراكمه فيصبح سحابا، ويسخره متنقلا به من موضع إلى موضع، مسقطا منه الماء الذى ينشىء النبات والزروع. منة عظيمة لله على الناس. ويقول الله معقبا على كل ماسبق بأنها آيات ﴿لقوم يعقلون﴾ أى استدلالات واضحة على وحدانية الله المذكورة فى الآية قبلها.

فهذا النظام البديع فى السموات والأرض وما يرافقه من سنن كونية فى اختلاف الليل والنهار، ومن تسخير الله للبحار كى يُجرى الإنسان فيها السفن، ومن تدبيره نزول الماء من السماء ليحيي الأرض وينشر فيها النباتات والزروع وقيامه على حياة كل دابة وكفالته لرزقها وعلمه بمأواها، وتصريفه المتنوع للرياح وتسخيره للسحاب. إن كل ذلك أدلة واضحة للعقل على أن للكون إلها يدبر سُننه ونظامه.

والله يدعو الناس إلي أن يستخدموا عقولهم فى تدبر ملكوت السموات والأرض، ليؤمنوا عن بصيرة بأن للكون إلها صنعه وأحكم خلقه بسنن ربانية تمسكه إلى أبد الآبدين. ويقول - جل شأنه فى سورة يس :

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

والله - فى هذه الآيات - يعرض على البشر دلائل عظمى من قدرته الكونية وما أودع فى الليل والنهار والشمس والقمر من نظام دقيق محكم. وبدأ بنظام الليل والنهار الذي يشاهده الإنسان صباح مساء، فقال إنه يسلخ جلد النهار ونوره عن الليل فيعم الظلام بزوال نور النهار عن الآفاق وإقبال الليل بظلمته. والليل والنهار يتعاقبان : الليل بظلامه والنهار بنوره.

وإذا جاء أحدهما انصرف الآخر. نظام إلهى محكم. والشمس تسير سيرا سريعا ﴿لمستقر لها﴾ مكانيا أو زمانيا. أى لمكان غروبها اليومى أو زمانه، وقيل أى لمكان استقرارها فى بروجها الاثنى عشر الموزعة على مدار السنة، وقيل لمستقرها فى يوم القيامة[1]، والرأى الأول أصح وأوضح.

ويقول الله إن ذلك تقدير العزيز المسخر له كوكب الشمس، العليم بنظامه الدقيق البديع. ويقول إنه قدر للقمر نظاما محكما إذا جعل له منازل تبلغ عدتها ثمانية وعشرين موزعة على بروج الشمس الأثنى عشر. وهو والشمس يسيران سيرا منتظما كما قال تعالى : ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ أى سائرين لا يفتران ولا يقفان.

والقمر يطلع فى أول ليلة من الشهر ضئيلا، ويزداد نورا فى الليلة التالية. وكلما ارتفع إزداد نورا حتى يتكامل نوره فى الليلة الرابعة عشرة، ثم يأخذ فى التناقص إلي آخر الشهر حتى يصير ﴿كالعرجون القديم﴾ والعرجون عود فى أعلى النخلة تخرج منه شماريخ تحمل البلح أو التمر. والقديم أى الذى انقطع منه البلح وقدم وتقوس واصفر وتضاءل، وصار يشبه هلال القمر فى آخر الشهر.

ويقول الله إن لكل من الشمس والقمر مداره فلا يصطدمان مع ما يبدو من قرب منازلهما، فلا الشمس يمكن أن تدرك القمر وتلحقه فتطلع ليلا. ﴿ولا الليل سابق النهار﴾ أى أنه لا توجد لهما فترة تتيح لأحدهما أن يسبق صاحبه، بل هما يتعاقبان يعقب كل منهما صاحبه ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ أى أن لكل من الشمس والقمر فلكا ومدارا خاصا، وكل منهما يسير فى فلكه ومداره لا يعدوه.

---

(١) ورد فى الحديث النبوى أنها تسجد لله تعالى .

وكل ما يشاهده الإنسان من مظاهر الليل والنهار ومسيرة الشمس والقمر له نظام دقيق إذا تأمله الإنسان وتدبره آمن بأن للكون إلها عظيما أحكم خلقه وقدر له نظامه. ويعرض الله دائما على عقل الإنسان آياته الكونية، ليشهد شهادة عقلية بأن لهذه الآيات إلها خلقها ودبر لها نظامها.

ودعا الله الناس مرارا كما فى آية البقرة إلى استخدام عقولهم فى تدبر آياته الكونية وتأملها ليؤمنوا به عن بينة وبصيرة. وينعى على المشركين أنهم عطلوا عقولهم، فلم يستخدموها في فهم آيات الله الكونية والاهتداء بها إلى معرفة خالقها والإيمان به عن يقين، وفيهم يقول :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ [الأعراف] والقلوب : العقول.

والله يقول إن لهم عقولا، ولكنهم عطلوها فلم تعد تدرك شيئا ينفعها أو تهتدي به لخيرها، ولهم أعين ولكنهم عطلوها فلم تبصر خلق الله لآياته الكونية العجيبة، ولهم آذان ولكنهم عطلوها فلم تعد تسمع شيئا من القرآن العظيم وهداه.

ويقول الله إنهم أصبحوا بلا عقول كالأنعام من الإبل والبقر والغنم ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ من الأنعام لأن الله وهبها إلهاما يحميها من المخاطر. أما هم فوهبهم الله عقولا حجبوها عن التبصر بالآيات الكونية لحماية أنفسهم من الشرك المفضى إلى الجحيم.

ويكثر الله -عز شأنه- من حث الرسول والمسلمين على استخدام عقولهم لا فى الإيمان به فحسب، بل أيضا فى الدعوة للدين الحنيف مبينا الاستدلالات

العقلية التى ينبغى أن تقوم عليها الدعوة للإسلام :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) ﴾ [النحل]

وسبيل الله فى الآية الدين الحنيف والله يأمر الرسول والمسلمين فى دعوتهم المشركين إلى الإسلام أن يستعينوا بثلاثة طرق : الحكمة والموعظة والمجادلة الحسنة، واستخدمها الله جميعا في حث المشركين على اعتناق الدين الحنيف، والمراد بالحكمة فى الآية البراهين العقلية المحكمة مثل برهان الله على وحدانيته فى سورة [المؤمنون] بقوله :

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) ﴾ [المؤمنون]

وهو برهان إلهى عقلى عظيم على نفى الشريك والشركاء لله، إذ لو كان مع الله آلهة لكانوا متساوين فى صفات الألوهية واختص كل منهم بمخلوقاته فلا يستطيع سواه من الآلهة أن يتصرف فيها، وبذلك يكونون جميعا عاجزين عن هذا التصرف، وفى ذلك نقص ينافى الألوهية.

وهو استدلال برهانى على الوحدانية، واستدلال برهانى ثان فى الآية أنه لو تعددت الآلهة لصارت لكل منهم مخلوقاته وحاول كل منهم أن يكون له السلطان الأعظم فتطاحنوا ﴿ ولعلا بعضهم على بعض ﴾ وأصبح بين الآلهة غالب ومغلوب واضطراب نظام الكون، وهو ما لم يحدث، إذ الكون منتظم وفى غاية الكمال مما يشهد عقلا بوحدانية الله.

والموعظة التى يأمر الله بها رسوله والمسلمين أن يتخذوها في دعوة

والموعظة التى يأمر الله بها رسوله والمسلمين أن يتخذوها في دعوة المشركين إلي الإسلام يمتلىء بها القرآن وتشغل موضوعين كبيرين فيه، أولهما قصص الرسل وما فيها من تكذيب أقوامهم لهم وعقابهم عقابا شديدا بالطوفان وبالخسف والزلازل والصيحات المهلكة.

وتعرض صور هذا العقاب على المشركين تحذيرا لهم من تكذيب الرسول وحضا لهم على اتباعه. والموضوع الثانى للموعظة القرآنية تخويف المشركين المكذبين للرسول ﷺ من عذاب الجحيم الذي سيصلاه من يموت منهم كافرا مشركا بالله.

وصور هذا العذاب المخيف لا تكاد تخلو منها سورة إلا ما كان من بعض السور القصار.

ويأمر الله الرسول والمسلمين فى الدعوة للإسلام بالمجادلة الحسنة سواء مع المشركين كما فى الآية السالفة أو مع أهل الكتاب كما فى قوله تعالى :

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ... ﴾ [العنكبوت]

والمجادلة الحسنة تكون برفق ولين ولطف فى الخطاب على نحو ما أمر الله به موسى وهارون حين أرسلهما إلي فرعون قائلا :

﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) ﴾ [طه]

ونرى الله يذكر بعض مجادلات الرسول لمشركى مكة أنه كان يجادلهم مجادلة حسنة حتى إذا لجوا فى الجدال قال لهم كما فى سورة الأحقاف :

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ .... (٨) ﴾ [الأحقاف]

أى أن الله أعلم بما تخوضون فيه من مثل دعواكم أن القرآن سحر وافتراء على الله. ولم يكن الرسول يعنف بهم أبدا، ويعلمه الله أن ينصرف عن

جدالهم الذميم برفق قائلا له فى سورة الحج : ﴿وإن جادلوك﴾ أى جدال ذميم ﴿فقل الله أعلم بما تعملون﴾ .

ويبلغ من لطف الله جل شأنه بالرسول والمشركين فى مكة حين يجادلونه مجادلات شديدة أن يقول لهم كما فى سورة سبأ :

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾ [سبأ]

وهو منتهى اللطف الإلهى إذ يعلم رسوله أن يقول للمشركين إنه لا يمكن أن نكون نحن وأنتم على الهدى معا أو على الضلال معا بل لابد أن أحدنا مهتد والثانى ضالَ.

وعلى هذا النحو دعا الله الرسول والمسلمين إلى استخدام عقولهم فى الدعوة للإسلام عن طريق الجدال العقلى اللين الرقيق والموعظة المؤثرة بالأمارات النظرية والبراهين العقلية المفحمة، كما دعا الناس جميعا فى الإيمان به إلي الاحتكام إلى العقل والنظر فى آيات الله الكونية وسننه فيها والاهتداء من هذا النظر إلى الإيمان بالله خالق الكون وصانعه.

وكما جعل الله العقل حكما في الإيمان به وفى الدعوة إلى الإسلام جعله حكما فى الشريعة الإسلامية. إذ يقول لرسوله :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾

وخطاب الرسول مضمن خطاب أمته كما فى آيات كثيرة بالتنزيل، والله يقول لرسوله وللمسلمين إنه أنزل على رسوله القرآن لتحكموا بين الناس فى خصوماتهم بالطرق السديدة التى يهديكم إليها العقل.

واتخذ الشافعى وغيره من الأئمة الآية دليلا على مشروعية الاجتهاد العقلى للرسول والمسلمين فى أمور الشريعة، وجعلوه الأصل الرابع من أصولها

بعد القرآن الكريم والسنة النبوية وإجماع الأمة.

ويدل بوضوح على أن الاجتهاد العقلى فى الشريعة شُرع – منذ حياة الرسول – للأمة جميعها حديث معاذ بن جبل حين وجه به الرسول قاضيا إلى اليمن، فقد سأله بم تقضى ؟ فأجابه بكتاب الله، فقال له : فإن لم تجد؟ قال : أقضى بما قضى به رسول الله، فقال : فإن لم تجد؟ قال : أجتهد رأيى لا آلو (أى لا أقصر) قال رسول الله : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسوله.

وقد مضى الخلفاء الراشدون بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى يجتهدون فيما يعرض لهم وللأمة من الأمور الخطيرة، وكان أول خطب خطير عرض لأبي بكر الصديق فى أول خلافته منع كثير من العرب للزكاة فعدهم مرتدين عن الإسلام، وخطب فى الصحابة بوجوب قتالهم فكرهوا ذلك حتى عمر إذ قال له : كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، فقال أبو بكر : أليس قد قال إلا بحقها، ومن حقها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والله لو منعونى عقالا (أى بعيرا) كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، ولو خذلنى الناس كلهم لجاهدتهم بنفسى. وانصاع عمر والصحابة له، وحارب المرتدين : مانعى الزكاة، وردهم إلى الدين الحنيف .

مأثرة عظيمة له ، إذ أعاد للجزيرة العربية وحدتها الإسلامية، ودفعها إلى فتوح الشام والعراق وإيران. وخلفه عمر بن الخطاب، وهو أكثر الخلفاء والصحابة اجتهادا فى الشريعة ونذكر من اجتهاده فيها أن عام جدب وقحط شديد ألم بالجزيرة العربية فى عهد خلافته، وعمت فيه المجاعة، فوقف فيها حكم الشريعة فى قطع يد السارق وما جاء فى الذكر الحكيم من قوله تعالى :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) ﴾ [المائدة]

لأنه عد السارق حينئذ مضطرا للسرقة ليسد رمقه. ووقف حكم الشريعة مؤقتا فيه اجتهاد عظيم منه.

وكان الله قد جعل مصارف الصدقات لثمانية كما فى آية سورة التوبة :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾ [التوبة]

والفقراء والمساكين معروفون، والعاملون عليها الجباة والسعاة الذين يجمعون الصدقات ﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ هم بعض أشراف العرب جعلهم الله من مصارف الصدقات تألفا لقلوبهم وتحبيبا لهم فى اعتناق الإسلام.

ولما قسم رسول الله ﷺ غنائم معركة حُنين أعطى مجموعة من المؤلفة قلوبهم من قريش وغيرها مائة بعير لكل منهم، وأعطى رجالا من قريش وغيرهم دون المائة. وكان ممن أعطاهم الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى، وقدما على أبي بكر وهو خليفة يطلبان منه نصيبهما من الصدقات فأعطاهما رسالة إلي عمر بن الخطاب مستشاره كى يرضيهما، فقال لهما : إن الله أعز الإسلام وأغنى عنكم، فإن رجعتم إلي الإسلام فبها وإلا فبيننا وبينكم السيف.

ومنع عمر كل هذه الطائفة من المؤلفة قلوبهم ما كانوا يأخذونه من الزكاة وجعلهم كغيرهم من المسلمين، وارتضى أبو بكر الصديق عمله واجتهاده.

ومن حينئذ بطل نهائيا هذا المصرف من مصارف الزكاة، كما بطل مصرف تحرير الرقاب إذ انتهى الرق فى العالم.

وظل مصرف المجاهدين فى سبيل الله قائما، وبالمثل ظل مصرف الغارمين أى المدينين ممن لا يستطيعون الوفاء بديونهم عونا لهم. كما ظل مصرف ابن السبيل أى الطريق وهو المسافر المجتاز ببلد وليس معه من المال ما يعينه فى سفره.

وكما اجتهد عمر إزاء حكمين وردا فى القرآن الكريم اجتهد أيضا فى زواج المتعة وهو الذى يتعاقد فيه الزوجان على الزواج إلي أجل يرتضياه، وقد أبيح فى أول الإسلام، واختلفت الروايات فى إباحة الرسول ﷺ له وتحريمه حتى إذا كان عهد عمر فى خلافته نهى عنه نهيا باتا.

وهذه الاجتهادات الثلاثة لعمر تدل على الاتساع فى الاجتهاد منذ العهد الإسلامى الأول. وتوزع الصحابة فى الفتوح بين البلدان الإسلامية وكان بينهم كثيرون مجتهدين يفتون المسلمين فيما يستجد من الحوادث والنوازل والتصرفات وأمور العادات. وأخذ الاجتهاد ينمو فى الأحكام المتصلة بفروع الدين حتى تكونت المذاهب المشهورة : مذاهب الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية.

وظل كل مذهب يشتهر به مجتهدون فى كل قرن وفى كل بلد إسلامى يبذلون الاجتهاد العقلى فى استنباط الأحكام الشرعية من الثوابت التى جاءت بالإسلام، وهى القرآن والحديث.

وقد ظل الاجتهاد مزدهرا حتى القرن التاسع الهجرى ثم أخذ يشيع التقليد فى العصر العثمانى وبعده إلى أن ظهر الشيخ محمد عبده فى أواخر القرن الماضى فعاد الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية وعادت إليه حيويته عند الفقهاء الكبار.

وكما فتح العقل في الشريعة الإسلامية الأبواب أمام الفقهاء أصحاب العقول الراجحة للاجتهاد والاستنباط السديد فيما يحدث أو ينزل بالناس من شئون الشريعة أغلق الأبواب بشدة وأحكم إغلاقها أمام ما كان يعتقده العرب من الخرافات وخاصة فى آلهتهم الوثنية، ومن السحر قائلا عن اليهود فى سورة البقرة :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) ﴾ [البقرة]

فالساحر كافر بشهادة هذه الآية، ويقول الرسول ﷺ : «حد الساحر ضربه بالسيف». والمراد بالساحر من يوهم الناس بإضراره لهم زاعما أن له صلة بأرواح النجوم أو أرواح الجن.

وأعلمنا رسول الله أن الطيرة أى التشاؤم باتجاه الطير يسارا لا يمينا شرك. ومثلها الضرب بالحصى مع كلام غامض يوهم السامع تحقيق أمانيه كما تصنع الغجريات بضربهن الودع.

ومثلهما صنيع العراف، وهو المنجم الذى يدعى أنه يستطيع النظر فى النجوم، فيعرف أحوال الناس مما يتصل بالغيب الذى لا يعلمه إلا الله. ومثله الكاهن الذى يزعم أن له تابعا من الجن يعلمه بالحوادث المستقبلة والأسرار المختبئة فى الصدور.

وكان في الجاهلية كهان كثيرون يموهون على من يتعرض لهم بحاجة أو سؤال بإلقائهم عليه أسجاعا مبهمة زاعمين أن تابعهم جاءهم بها من الملأ الأعلى، ولهم أخبار وأقاصيص كثيرة رواها رواة أخبار الجاهلية عنهم، وهى أكاذيب ملفقة، ويقول الرسول ﷺ : «من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» من القرآن الكريم القائم على العقل والاستدلالات العقليةالصائبة.

والإسلام -بكل ما قدمت- جعل العقل حكما فى الإيمان بالله عن طريق النظر فى سننه الكونية، كما جعله أساس الدعوة الإسلامية بطرقها الثلاثة من البراهين العقلية والعظة والجدل السليم، وجعله أصلا ثابتا فى الشريعة عن طريق الاجتهاد العقلى السديد. وأراد الله ورسوله الارتقاء بعقل الإنسان عن طريق رفضه لكل خرافة وسحر وطيرة وتنجيم وكهانة، ولا ريب فى أن الله ورسوله بنيا شريعة الإسلام الموجهة للبشرية بناية عقلانية عظيمة.

معانقة الإسلام للعلم :

عانق الإسلام العلم فى أول آيات نزلت بالقرآن الكريم إذ خاطب الله الرسول بقوله :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [العلق]

والتعليم بالقلم فى الآيات مطلق غير مقيد بنوع خاص من أنواع العلوم التى أسبغ الله معرفتها على الإنسان. ومعروف أن منها ما يدرك بالخبر الصادق، ومنها ما يدرك بالحواس، ومنها ما يدرك بالوجدان، ومنها ما يدرك بالعقل عن طريق التجربة أو طريق الاستنباط.

وتشريفا للعلم أقسم الله بالقلم وما يسطر من العلم والمعرفة قائلا فى سورة القلم : ﴿ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) ﴾ وطلب إلي رسوله أن يضرع إليه ليزيده علما ومعرفة كما جاء فى آية سورة طه: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) ﴾.

وأضفى الله على العلماء تشريفا عظيما إذ جعلهم متساوين مع الملائكة في الشهادة المثلي بوحدانيته كما جاء فى آية سورة آل عمران :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾ [آل عمران]

ومما يعلى العلم ويرفعه ما جاء فى أوائل سورة البقرة من حوار بين الله -عز شأنه- وملائكته فى جعله آدم خليفة فى الأرض يعمرها، فقالوا له متعجبين:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾

فإن من شأنه الإفساد وإراقة الدماء لا يصلح لتعمير الأرض، ونحن أحق وأولى منه بالاستخلاف، فقال الله لهم : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ مما لم يحط به علمكم.

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ إما بالتلقين، وإما بالإلهام ، وإما بإلقاء علم ضرورى في ذهنه، بحيث إذا سُئل عن اسم أى مسمى وضع له اسما توا. وعرض الله مسميات الأسماء على الملائكة، وقال لهم ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) ﴾ فعجز الملائكة.

فقال الله لآدم حينئذ : ﴿ **أنبئهم بأسمائهم** ﴾ وأنبأهم بها، فقال الله لهم : ﴿ **اسجدوا لآدم** ﴾ سجود تعظيم ﴿ **فسجدوا** ﴾ . وفي ذلك تشريف للعلم لا يماثله تشريف، إذ إن الله بأمره الملائكة - المخلوقات النورانية السماوية التى تسبح دائما بحمده - أن تسجد لآدم جعل بذلك منزلة علمه بالأسماء فوق منزلة تسبيح الملائكة وتقديسهم له، وهو إكبار للعلم لا يدانيه إكبار.

وعلى هداه كرر الرسول فى أحاديثه أن العلم أعظم عبادة لله وأن العالم أرفع من العابد، ومن أحاديثه المشهورة : «فضل العالم على العابد كفضل القمر - ليلة البدر- على سائر الكواكب». ورغب مرارا فى طلب العلم وقال إنه فريضة على كل مسلم، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم. رضا بما يصنع وجاءه رجل من قبيلة مراد، وهو فى المسجد، فقال له يا رسول الله إنى جئت أطلب العلم، فقال : «مرحبا بطالب العلم، إن طالب العلم لتحف به الملائكة وتقله بأجنحتها» وكما جعل العلماء فوق العباد جعلهم فوق الشهداء فى سبيل الله قائلا : «للعلماء على الشهداء فضل درجة».

وقد بث القرآن الكريم في المسلمين روح العلم، وأول ما يلاحظ من ذلك تغييره لدلالات ألفاظ كانوا يعرفونها فإذا هى تحمل دلالات جديدة، إذ أصبحت مصطلحات فى الدين الحنيف مثل كلمات الإسلام والإيمان، والكفر والشرك، ونفس كلمة القرآن أصلها مصدر مثل الغفران، وسمى بها الله كل ما أنزله على رسوله من آيات الذكر الحكيم فى ثلاث وعشرين سنة وأودع فى المصحف. ومن ذلك كلمة الإسلام فأصل معناها اللغوى الانقياد والخضوع، وسمى بها الله الدين الحنيف فى مثل قوله :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣]

وكلمة الإيمان مشتقة من الأمان ضد الخوف، واصطلح القرآن بها وبمشتقاتها على التصديق القلبى بوحدانية الله ورسوله وشريعته. وكلمة الكفر أصل معناها اللغوى الستر والتغطية، واصطلح بها القرآن على عبادة غير الله هى ومشتقاتها.

وكلمة الشرك أصل معناها اللغوى الاشتراك فى أى شىء، واصطلح بها القرآن هى ومشتقاتها على اتخاذ الكافر شريكا لله فى ربوبيته أو إلهيته كما قال لقمان لابنه :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

وقد لا يكون للمصطلح القرآنى أصل فى اللغة ووُضع ابتداء مثل كلمة النفاق، وهو إضمار الكفر وإظهار الإسلام، وذكر اللغويون أن عرب الجاهلية لم يستخدموا هذه المادة لا فى الأفعال ولا فى الأفعال ولا فى الأسماء، إذ لم تجئ فى أشعارهم كلمة «نافق ومنافق» مما تقرؤه مرارا فى القرآن الكريم.

وذكر اللغويون أنه جاءت عن الجاهلية كلمة النافقاء، وهى حُجر لليربوع (حيوان على هيئة الفأر) كان يكتم فيه مخرجا له من غير بابه، فإذا هوجم من الباب فر سريعا منه.

وكأنما اتخذ القرآن من اسم هذا الحُجر كلمة النفاق، إذ المنافق بإعلانه الإسلام يدخل فيه من باب، ويخرج منه بكتمانه الكفر من باب آخر. ومثل كلمة النفاق التى وضعها القرآن كلمة فاسق ومشتقاتها، فقد ذكر ابن الأعرابى الحجة فى اللغة: أنه لم تسمع كلمة فاسق فى كلام أهل الجاهلية ولا فى شعرهم مما يدل على أن القرآن وضعها ابتداء للدلالة على عصيان صاحبها لله.

وأخذ ينشأ سريعا علم تفسير القرآن عملا بقوله تعالى لرسوله :

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾ [النحل]

فكان يبين للصحابة ما فى آيات القرآن من أحكام أمرا ونهيا ويشرح لهم معانى آياته.

والرسول – بذلك – يُعد المفسر الأول للقرآن ومعانيه وتعاليمه، وعن ابن مسعود – رضى الله عنه – كان الرجل منا (أى من الصحابة) إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن. وأخذ الصحابة بعد انتقال الرسول إلي الرفيق الأعلى يفسرون للمسلمين القرآن على هدى ما سمعوه منه.

ويذكر السيوطى فى كتابه الإتقان أنه استطاع أن يجمع أكثر من عشرة آلاف حديث من تفاسير النبى ﷺ والصحابة فى كتاب له سماه «ترجمان القرآن» وأنه اختصره فى كتاب له سماه «الدر المنثور فى التفسير بالمأثور».

ونشأ أيضا سريعا علم السنة الشريفة أو الحديث النبوى إذ كان القرآن الكريم يذكر أحكام الشريعة الإسلامية مجملة دون تفصيل، والرسول ﷺ هو الذي فصلها وبينها بيانا تاما فالقرآن مثلا لم يذكر تفاصيل الصلاة والزكاة، وهما من أهم أركان الإسلام، بل اكتفى بمثل قوله تعالى :

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ﴾ [البقرة]

والحديث النبوى هو الذى بين كيفية الصلاة وأنها تبدأ بالقيام والنية والتكبير وقراءة الفاتحة وما يتلوها من ركوع وسجود مع التسبيح وتحيات وسطى فى غير صلاة الصبح وركعة بعدها فى صلاة المغرب وركعتين فى بقية الصلوات، وتحيات نهائية. وبين أوقات الصلوات وأنها خمس فرائض، وذكر

القرآن ما ينبغى أن يتقدمها من الوضوء وكيفيته. وبالمثل ذكرت الزكاة فى القرآن مجملة، والرسول هو الذي بين مقاديرها الواجبة على كل مسلم سنويا فى الأموال والزروع والأنعام من الإبل وغيرها قلة وكثرة.

ووراء توضيحات الرسول لفرائض الشريعة مئات الأحاديث بل آلافها في فروعها المكملة لها، ومن هنا كان الحديث النبوى مكملا ومتمما بعد القرآن للشريعة الإسلامية. ويأمر الله المسلمين فى القرآن مرارا أن يتمسكوا بكل ما يذكره رسوله لهم فيعملوا به ممتثلين لأوامره وكافين عن نواهيه، يقول جل شأنه فى سورة الحشر :

﴿ ... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) ﴾ [الحشر]

وسمى الرسول أحاديثه باسم السنة أى الطريقة التى كان يعمل بها هو وصحابته ومن قوله : عليكم بسنتى، عضوا عليها بالنواجذ، وعن ابن عباس أن الرسول قال : اللهم ارحم خلفائى، فقلنا يا رسول الله ومن خلفاؤك، قال : الذين يروون أحاديثى ويعلمونها الناس. وكان يوصى الوفود بتعليمها لأقوامهم. وحرص الصحابة عليها فرووها وتدارسوها وأخذها عنهم التابعون وكانت منذ ألقاها الرسول – علما له قُدسيته.

ونشأ – منذ عصر الرسول – علم ثالث هو علم الفقه، وهو يتناول أحكام الله فى أفعال المكلفين بالوجوب والنهى والندب والإباحة، ويشمل جميع العبادات والمعاملات والعقود والميراث وفروضه. وتكثر المصطلحات العلمية الجديدة التى وضعها الله ورسوله فيه. ونكتفى بالوقوف عند مصطلحات العبادات، وهى الصلاة والزكاة والصيام والحج.

وأصل المعنى اللغوى للصلاة الدعاء وجعلها القرآن مصطلحا للعبادة

الأساسية المعروفة فى الإسلام، ويتقدمها الوضوء وأصل معناه الغسل وجعلته الشريعة غسلا ومسحا على أعضاء مخصوصة فى الإنسان، ويتبعه القيام مع التكبير والركوع والسجود. والأصل اللغوى للركوع الانحناء، اصطلح به القرآن فى الصلاة على أنحناء بهيئة مخصوصة مع التسبيح.

والأصل اللغوى للسجود التذلل واصطلح به القرآن على وضع المصلى جبهته ويديه على الأرض بهيئة مخصوصة مع التسبيح. وإذا لم يوجد الماء للوضوء من أجل الصلاة حل محله التيمم وأصل معناه التوخى والقصد وجعله القرآن مصطلحا لمسح الوجه واليدين بالتراب.

والمعنى اللغوى للزكاة النماء، واصطلح بها القرآن على حصة من المال وما يماثله يوجب الشرع إعطاءها للفقراء وأشباههم بشروط خاصة. وتتصل بها الصدقة المذ.كورة فى القرآن، وهى مشتقة من الصداقة، وكأنما أراد الله – جل شأنه – بتسميتها أنها تغرس المودة بين المسلمين بما تسخو به نفوسهم من أموالهم، بإعطائها إخوانهم من الفقراء والمساكين.

والمعنى اللغوى للصيام : الإمساك عن الشىء، واصطلح به القرآن على الإمساك عن الطعام والشراب من طلوع الفجر إلي غروب الشمس.

والمعنى اللغوى للحج: القصد، واصطلح به القرآن على قصد البيت الحرام فى أشهر معلومات لأداء مناسك خاصة. وسجل القرآن مع الحج المتعة بالعمرة قبل الحج في قوله تعالى بآية البقرة :

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ

فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) ﴾

والعمرة لغة من الاعتمار وهو الزيارة، واصطلح بها القرآن على نسك به طواف بالكعبة، وسعى بين الصفا والمروة، وتسبيح، ومعها إحرام، وليس لها وقت معين في السنة. والتمتع لغة الانتفاع، واصطلح به القرآن على إحرام الحاج بالعمرة، حتى إذا أداها الحاج يُحل، فيتمتع بما كان يتمتع به قبل العمرة إلى أن يحرم بالحج، وسجل القرآن من مناسك الحج الطواف بالكعبة والسعى بين الصفا والمروة والنفر من عرفات إلي المزدلفة أو الإفاضة.

ونكتفى بذلك من المصطلحات التى تعد - في الفقه - بالعشرات، ونرى الله - عز شأنه - بعد أن يحض المسلمين على النفر مع الرسول لجهاد أعداء الإسلام - فى سورة التوبة - يحضهم على النفر إلى رسوله ليتعلموا على يديه تفسير القرآن وسنته وأوامر الشريعة ونواهيها الفقهية، ويعلموا ذلك كله لقبائلهم وأقوامهم،

يقول عز سلطانه : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة]

وهو استفسار إلهى عظيم لتعلم شريعة الإسلام وعلومه ونشرها فى الأمة، وفعلا استجاب المسلمون لهذا النداء الربانى واستحالت المدينة دار علم كبرى هيأت لحركة علمية واسعة كان أستاذها ومعلمها الرسول فقيه الأمة الأكبر ومفسر قرآنها العظيم، وتلاميذها صحابته.

ومعروف أن الشريعة الإسلامية فى القرآن والسنة تتسع سعة كبيرة فلا تقف عند العبادات، بل تشمل جميع جوانب الحياة للبشر واضعة لها القوانين فى نظام الأسرة وبر الوالدين والزواج والمودة بين الزوجين وعدة الزوجة المطلقة ونفقتها فيها ونفقة المرضع وأنصبة الوارثين والوارثات، والتجارة والبيع والشراء، والزراعة واستثمارها، والدين وما ينبغى له من التوثيق والإشهاد والرهن والائتمان، ومصارف الزكاة والصدقة وتحريم السرقة والقتل والربا والزنا والخمر والميسر وأحكام الحرب والجهاد وحقوق المحاربين والمعاهدات، وقيام الحكم على الشورى والعدل، مع مبادئ خلقية وتهذيبية رفيعة.

وواضح مما قدمت أن الإسلام لا يعانق العلم فحسب، بل يتحد معه مكونا علوما ثلاثة، هى علم التفسير، وعلم الحديث أو السنة، وعلم الفقه. والقرآن بجانب هذه العلوم الدينية ينوه بالعلوم الطبيعية والعلوم الفلكية والرياضية والعلوم الطبية. ويكثر الله من الإشارة إلى العلوم الأولى وما أنعم الله به على الإنسان من بسطه الأرض له وجعله فيها جبالا حتى لا تميد به وأنهارا جارية أنزل لها وللعيون الماء من السماء أو السحاب ليرتوى منه الناس ويستخدموه في زروعهم التى تنتج الحبوب وأشجارهم التى تنتج كل الثمرات من العنب والتمر والزيتون والفواكه من كل صنف بهيج، مع ما بث فيها من الحيوانات وتذليله الإبل والخيل والدواب للإنسان وتسخير البحر له لركوبه وما يجرى فيه من السفن لتجارته ونفعه، مع ما يجرى فى السماء من الطير على كل لون.

وما من عالم فى الطبيعة إلا ذكر فى القرآن : ذكر عالم الأرض بجبالها وعالم البحار وعالم الطير وعالم النبات وعالم الأشجار وعالم الحيوان والدواب وعالم الزواحف من الأفاعى والحشرات.

وإذا تركنا العلوم الطبيعية إلي العلوم الفلكية والرياضية وجدنا الله ذكر مرارا بروج الشمس، والبروج جمع برج وهو الحصن والمنزل العالى، وهى

منازل للشمس، تتجمع فيها نجوم لو وصل بينها بخيوط لخرج منها غالبا ما يشبه صورة حيوان. والشمس تحل شهريا فى منزل ثم تنتقل منه إلي منزل آخر، بحيث يصبح لها اثنا عشر منزلا بعدد شهور السنة، ثلاثة منها بروج الشتاء وهى الجدى والدلو والحوت، وثلاثة منها بروج الربيع وهى الحمل أى الكبش والثور والجوزاء، وثلاثة بروج الصيف وهى السرطان والأسد والسنبلة، وثلاثة بروج الخريف وهى الميزان والعقرب والقوس. والله ذكرها فى مثل قوله : ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ للدلالة على عظيم قدرته.

ويقول فى سورة يونس : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) ﴾ [يونس]

والضياء : النور الساطع. ومنازل القمر: مواضعه التى يظهر بها في كل ليلة من ليالى الشهر، وهى ثمانية وعشرون منزلا، مقسمة على بروج الشمس، وأسماؤها الثمانية والعشرون مذكورة فى كتب علماء الفلك مثل السماك الأعزل - سعد الذابح - سعد السعود - الشرطان إلي غير ذلك. ويقول الله فى سورة الأنعام : ﴿ والشمس والقمر حسبانا ﴾ أى أنه قدرهما منازل لتعلموا ومعاملاتكم وما تريدون من التاريخ، وهو أصل من أصول الحياة والحضارة.

وفي القرآن إشارات مختلفة إلي العلوم الطبية، مما جعل مؤتمرات طبية متعددة تنعقد لبيان ما فيه من إشارات ومعجزات طبية، من ذلك ما جاء فى سورة (المؤمنون) من أطوار خلق الجنين فى بطن أمه، والله يقول فى أول الآيات إن الإنسان مخلوق ﴿ من سلالة من طين ﴾ مشيرا بذلك إلي خلقه لآدم من طين، ثم يعرض أدوار خلقه للجنين قائلا : ﴿ ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ﴾ من رحم أمه ﴿ ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ وهى دم غليظ ﴿ فخلقنا العلقة مضغة ﴾

وهى القطعة من اللحم ﴿**فخلقنا المضغة**﴾ أى معظمها ﴿**عظاما**﴾ تتكون داخلها ﴿**فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر**﴾ إذ نفخنا فيه الروح. وهى معجزة طبية ربانية فى القرآن تصور الأطوار المختلفة للجنين حتى يتخلق كائنا حيا.

وكل ما أسلفت من تنويه القرآن الكريم بالعلوم الطبيعية والفلكية والطبية مع اتحاده بالعلم في العلوم الدينية ملأ قلوب المسلمين شغفا بالعلم في مختلف أنواعه، وما إن انتقل الرسول إلي الرفيق الأعلى حتى أكب المسلمون على مدارسة العلوم الدينية : علم التفسير وعلم الحديث أو السنة وعلم الفقه، وأخذوا يحاولون التعرف - بعد الفتوح الإسلامية - على ما لدى الأمم المستعربة من علوم الكيمياء والفلك والرياضيات والطب.

ولم تلبث أن قامت حركة كبرى من الترجمة لتلك العلوم وما يماثلها على نحو ما مر بنا فى التعايش الفكرى وعقلانية الإسلام. وتمثلها المسلمون، وتم وضع النحو وعلوم اللغة استجابة للشعوب المستعربة التى أحست الحاجة الشديدة لمعرفة أوضاع العربية فى الإعراب والتصريف للكلمات. وأخذت حركات تعليمية كبرى تنهض نهضة واسعة فى العلوم الدينية والعلوم اللغوية والعلوم الأجنبية. ولم يلبث المسلمون - كما مر بنا - أن قادوا العالم علميا وحضاريا لمدة ستة قرون حتى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى.

وبحق جعل الله الأمة الإسلامية أمة علم وتعلم، وكان الناشئة فيها يبدأون بالتعلم فى الكتاتيب حيث يتعلمون الخط والقراءة والكتابة وبعض سور القرآن وشيئا من الحساب والنحو وبعض الأشعار والأمثال. وكانوا يؤثرون فى تعليم البنات الصغيرات تحفيظهن القرآن الكريم وخاصة سورة النور. ولم تكن عند المسلمين مراحل للتعليم مثلنا اليوم، وكان تعليم الكتاب يحل محل تعليمنا الابتدائى والإعدادى، وعادة يحفظ الصبى فيه أو الغلام القرآن.

وكانت المساجد ساحات العلم الكبرى، ومن يريد من الشباب أن يكمل تعلمه بعد الكتاتيب يختلف بها إلي حلقات العلماء، وكانت أشبه بمعاهد عليا، إذ لم تكن دورا لعبادة الله والصلاة فقط، بل كانت أيضا دورا للعلم والعلماء. وكان لكل عالم في كل فرع من الفروع حلقة كبرى، يتحلق فيها طلابه من حوله، وكان عادة يستند إلي أسطوانة من أساطين المسجد أو يجلس على مقعد مرتفع، ثم يملي محاضراته، والطلاب يكتبون.

وإذا كانوا كثيرين بحيث لا يسمعه البعيد عنه ردد مستمل كلامه حتى يستطيع البعيدون عنه سماع ما يقوله وكتابته. وكانت حلقات الفقهاء من أكثر الحلقات طلابا، إذ كان الإلمام بالفقه يعد طالبه إلي تولى مناصب الحسبة لمراقبة الأسواق ومناصب الشرطة والقضاء والولاية أحيانا. ولم يكن يشترط للحضور فى حلقات المساجد أى شرط سوى الرغبة فى السماع لمحاضرة هذا العالم أو ذاك.

وأتاح ذلك لظاهرتين كبيرتين : أولاهما كثرة العلماء المتخصصين فى كل علم، حتى ليروى أن النضر بن شميل تلميذ الخليل بن أحمد حين عزم على الخروج من البصرة فى العراق إلي خراسان شيعه مودعا له نحو ثلاثة آلاف عالم بين محدث ونحوى ولغوى وعروضى وإخبارى. ولابد أنه كان وراء هذا العدد الضخم فى البصرة بالقرن الثانى الهجرى كثيرون تخلفوا عن تشييعه وتوديعه. وإذا كانت البصرة اشتملت على هذا العدد الكبير من العلماء، فما لا ريب فيه أن بغداد كانت تشتمل من العلماء على أضعاف لهذا العدد مضاعفة.

والظاهرة الثانية التى تقابل تلك الظاهرة هى نشوء طائفة من العلماء والأدباء الذين نوعوا معارفهم تنويعا واسعا، إذ لم يكتفوا بالاختلاف إلى حلقة واحدة آخذين بطرف من كل نوع من أنواع المعرفة، حتى ليشبهون شبها كبيرا الصحفيين فى عصرنا الذين يستطيعون أن يتحدثوا حديثا شائقا فى كل ألوان

المعرفة والثقافة. وسمى الجاحظ هذه الطائفة في بلدته: البصرة باسم المسجديين، ويقول : كانت لهم حلقات خاصة بهم فى المساجد كانوا يتجادلون فيها ويتحاورون فى أى شىء يعرض لهم، وذكر فى كتابه البخلاء صورة من جدالهم وحوارهم تحاوروا فيها عن الاقتصاد فى النفقة وطرق التثمير للمال. وكانت سوقهم نافقة فى مجالس الخلفاء والوزراء وأعيان القوم بما كانوا يطرفونهم به من الأحاديث الممتعة.

وكان من أهم ما عمل على إشعال الحركة العلمية فى العصر العباسى وإمدادها بوقود لا ينفد مناظرات العلماء فى المساجد وقصور الخلفاء والوزراء وسراة القوم، وكان الشباب يختلف فى المساجد إلي مناظرات الفقهاء واللغويين والمتكلمين ليتعلم قرع البرهان بالبرهان وكيف تكون غلبة الخصوم.

وكان ليحيى بن خالد البرمكى وزير الرشيد مجلس للمناظرة يجتمع فيه علماء الكلام من المسلمين وغيرهم من أهل الملل وكانوا يتناظرون فى كثير من مسائل الفلسفة وعلم الكلام.

وروى المسعودى حوارا طريفا في هذا المجلس عن العشق وماهيته. وكان مجلس الخليفة المأمون ساحة كبيرة للحوار والمناظرة، وكان مثقفا ثقافة واسعة بالعلوم الدينية واللغوية وبالفلسفة والعلوم المختلفة، واستحالت مجالسه فى دار الخلافة ببغداد إلي ندوات علمية تتناول كل فروع المعرفة، ويعرض طيفور فى كتابه : بغداد كثيرا من هذه الندوات وما طُرح فيها من موضوعات للجدل والمناظرة، ويقول المسعودى إن هذه الندوات فى مجالس المأمون علمت الناس صنعة النظر والبحث والجدل.

ووضع بعض المتناظرين كتبا تؤيد مذهبه الذي جادل وناظر عنه. وكثرت المناظرات كثرة مفرطة فى مجالس المتكلمين، ومر بنا فى عقلانية الإسلام

مجالس كبيرة لهم بالبصرة وبغداد كانت تضم كثيرين من أصحاب الملل والنحل. وكثير من كتب العصر العباسى يعنون بكلمة الرد أو النقص، وكأنما كانت المناظرات والمجادلات لغة العصر الفكرية.

وكثيرا ما يكتب الجاحظ رسالة فى مدح شىء أو جماعة، ويعود فيذمهما، وله كتاب المحاسن والأضداد، وهو مجموعة كبيرة من الأخلاق والخصال، وفيه يعرض محاسن الخلق، ثم يعرض معانيه فى أخبار وأقاصيص وحكايات تلتقى فيها الثقافات العربية والفارسية والهندية واليونانية.

وكان من أهم الأسباب فى بلوغ النهضة العلمية الإسلامية أوجها المنتظر منذ الربع الأخير من القرن الثانى للهجرة / الثامن الميلادى وما بعد ذلك من قرون أن الفضل بن يحيى البرمكى وزير الرشيد أنشأ ببغداد مصنعا للورق، فانتقل الناس من الكتابة فى الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردى إلي الكتابة فى الورق لخفته ورخص ثمنه. وسرعان ما كثرت الكتب والمؤلفات، كما كثر الوراقون الذين يعيشون من نسخها.

وأنشأ كثيرون منهم دكاكين للتجارة فيها، واختلف إليها الشباب والعلماء لا لشراء المؤلفات والكتب فحسب، بل ليقرءوا فيها، وكانوا يؤجرونها لذلك ويبيتون فيها يقرءون على المصابيح وينسخون منها الأفكار والصحف والرسائل.

وكان لذلك أثر كبير فى نهضة الحركة العلمية الإسلامية نهضة واسعة، إذ أصبحت الكتب والمؤلفات تلقاء أعين الشباب والطلاب وبأيديهم، يتزودون منها كما يشاءون أزوادا كانت أيسر وأسهل من التلقى عن العلماء والشيوخ فى المساجد.

وسريعا أخذت تنشأ المكتبات العامة والخاصة، وبادر الرشيد فأنشأ مكتبة عامة كبيرة باسم دار الحكمة، ووظف بها طائفة كبيرة من المترجمين كما مر

فى حديثنا عن عقلانية الإسلام، وعُنى بها ابنه المأمون عناية أكبر وأوسع. وعُنى يحيى بن خالد البرمكى وزير الرشيد بمكتبة كبيرة له، ويقال : لم يكن فى مكتبته كتاب إلا وله ثلاث نسخ.

وعُنى العلماء باقتناء المكتبات، ويقال إن مكتبة الواقدى المؤرخ كانت تشتمل على ستمائة صندوق من الكتب، وكان له ناسخان مملوكان يكتبان له ليلا ونهارا. وعُنى بعض المثقفين من السراة ببناء مكتبات عامة يتزود فيها الناس بما يشاءون من العلوم مثل على بن يحيى المنجم معاصر المتوكل إذ بنى قصرا جعله خزانة كتب عظيمة كان الناس يقصدونها من كل بلد فيقيمون فيها ويعكفون على الكتب العلمية. وتتكاثر المكتبات العامة والخاصة فى مدن العالم الإسلامى، وفى مقدمتها مكتبات المساجد، وكانت مفتوحة دائما لكل من يريد أن يقرأ أو يطلع.

ونلتقى فى كل بلد إسلامى بمكتبات عامة كبرى واشتهرت بمصر مكتبة العزيز الفاطمى، ويقال إنه كان بها مائتا ألف مجلد، واشتهرت فى قرطبة بالأندلس مكتبة الحكم المستنصر الأموى العامة، وكان له وراقون بعواصم البلاد والإسلامية يجلبون إليه الكتب فى مختلف العلوم، وكان عدد فهارس مكتبته أربعا وأربعين، وفي كل فهرس عشرون ورقة ويقال خمسون ورقة.

ومنذ أواخر القرن الثانى الهجرى وطوال القرن التالية تكثر دكاكين الوراقين الذين ملئوها بالكتب لبيعها والاتجار بها. وتلقانا فى كل بلد سوق لهم، وكانوا يعدون بالعشرات.

وكان المسلمون يكبون على الكتب والعلوم منذ عصورهم الأولى إكبابا لم يعرف لأمة من الأمم بفضل القرآن والسنة وحثهما الشديد للمسلمين على التعلم، حتى لتعد الأمة الإسلامية أمة العلم، فقد شغف به جميع أفرادها وتجرد منهم كثيرون يريدون أن يحوزوا الأدب والعلم لأنفسهم، وكثير منهم منذ القرن الثالث

الهجرى يؤلف حشدا من الكتب مثل الجاحظ الذى ألف من الكتب العظام وعشرات الرسائل ما يعد مكتبة كبيرة.

وكان محمد بن جرير الطبرى صاحب التفسير والتاريخ الضخمين لا يخلى يوما من كتابة عدد من الصفحات قرره على نفسه، كأنه فريضة يؤديها للمجتمع، وأحصى بعض تلاميذه الأوراق التى كتبها وألف منها كتبه، فقال إنه مكث أربعين سنة يكتب فى كل يوم أربعين ورقة، وحسبها آخر مقسومة على عدد أيامه التى عاشها من مولده إلى وفاته فوجده ألف فى كل يوم أربع عشرة ورقة.

ولذلك لا تعجب أن تجد محمد بن زكريا الرازى معاصره المتوفى فى سنة٣٢٠ للهجرة يخلف - فى رواية البيرونى - ٥٦ كتابا فى الطب و٤٤ فى الطبيعيات، وعشرة كتب فى الرياضيات و١٧ فى الفلسفة وثمانية فى المنطق و٢٣ فى الكيمياء. ومن أعظم كتبه الحاوى وهو دائرة معارف طبية. وله كتاب فى الطب الروحانى. وكان يقابله فى الأندلس الزهراوى وله موسوعة طبية كبيرة فى ثلاثين مجلدا.

وناهيك بأعمال ابن سيناء الذى تعد مؤلفاته ورسائله بالمئات، وظل كتابه «القانون فى الطب» وموسوعة الزهراوى وكتب الرازى تدرس جميعا فى الجامعات الأوربية من القرن الثالث عشر للميلاد إلى القرن السابع عشر. وفى كل علم لغوى أو دينى تلقانا موسوعات ضخمة فضلا عن مئات الكتب، ويكفي أن نشير إلى معجم لسان العرب وهو فى عشرين مجلدا ضخما.

وظاهرة مهمة اقترنت بالعلم عند العرب منذ نشأته وهى أنه لم يكن مقصورا على طبقات خاصة. بل كان دائما عاما لطبقات الشعب، إذ كان مطروحا باستمرار فى حلقات الشيوخ بالمساجد، وفيما نشأ بها من مكتبات.

ومنذ أواخر القرن الثانى الهجرى تنشأ المكتبات العامة فى كل بلد إسلامى وتنشأ معها دكاكين الوراقين، ولا مصاريف تطلب للتعليم، فالتعليم مجانا من حق الجميع. والطبقات الشعبية العامة تشارك فيه بحظ بل بحظوظ كثيرة، ويدل على ذلك أكبر الدلالة أن من يرجع إلي تراجم العلماء والأدباء شعراء وكتابا سيجد أكثرهم من أبناء الطبقة العامة.

وتصور ذلك ألقابهم مثل الحداد والخزاز والبزاز والقواريرى والقواس والنبال والعطار والمطرز، ونجد بين علماء الكلام أبا أحمد التمار وشعيب القلال، ونشأ أبو نواط غلاما لعطار، ونشأ أبو العتاهية يبيع الخزف والجرار حاملا لهما على ظهره في شوارع الكوفة، ونشأ الجاحظ يبيع الخبز والسمك بسيحان أحد نهيرات البصرة.

وبين أيدينا نصوص تشهد بأن كثيرا من العامة كانوا ينالون حظوظا مختلفة من الثقافة. ولم يكن يحول بينهم وبينها أى حجاب إذ كانوا يروحون إليها ويغدون فى المساجد ومكتباتها ودكاكين الوراقين. ومما يدل على ذلك أن نرى الجاحظ فى القرن الثالث يقول :«وسألت بعض العطارين من أصحاب المعتزلة» وكأن العصارين حينئذ كانوا أقساما، منهم من يتبع المعتزلة ومنهم من يتبع غيرهم من أصحاب المذاهب، ولابد أن كان مثلهم بقية التجار وأصحاب الحرف. فهم يناصرون هذا المذهب أو ذاك وهم يناصرون هذا الأستاذ أو ذاك، ولكل أستاذ أتباعه لا من أوساط المثقفين فحسب، بل له أنصاره أيضا من العامة.

ولعل فيما ذكرت ما يوضح كيف أن العلوم والمعارف تغلغلت فى جميع الأوساط حتى فى أوساط العامة. ومن أكبر الأدلة على ذلك أن نجد جميعة شيعية إسماعيلية. تريد أن تدعو فى العامة لنحلتها الإسماعيلية الشيعية المتطرفة، فرأت أن تدعو لها دعوة مستترة فى رسائل فلسفية وعلمية فصنفت اثنتين وخمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة النظرية والعملية، وسمتها :

«رسائل إخوان الصفا» وكتم مؤلفوها أسماءهم وبثوها فى الوراقين، وتتضمن ١٤ رسالة فى الرياضيات والمنطق، و١٧ فى العلوم الطبيعية وعلم النفس، و١٠ فى الميتافيزيقا والإلهيات، و١١ فى التصوف والتنجيم والسحر. وبها أفكار إسماعيلية شيعية مختلفة نُثرت فى تضاعيفها لغرض تنظيم الدعوة الإسماعيلية.

ويهمنا أن نذكر أن إخوان الصفا رأوا فى دعوتهم – لنحلتهم الإسماعيلية بين العامة – أن يبثوها فى رسائل فلسفية وعلمية، مما يدل على أن الثقافة الفلسفية والعلمية كانت شائعة فى كل الأوساط، حتى لتلجأ جمعية إسماعيلية سرية لاتخاذها وسيلة لنشر نحلتها الشيعية فى الناس. ويخيل إلى الإنسان كأنما كان أهل بغداد جميعا على حظ من الفلسفة والعلم، ومما يشهد لذلك قصة المزين الثرثار فى كتاب ألف ليلة وليلة. إذ قال لشاب بغدادى فى كلام حدثه به : «قد من الله عليك بمزين منجم عالم بصناعة الكيمياء والسيمياء والنحو والصرف واللغة وعلم المعانى والبيان وعلم المنطق والحساب والهيئة (علم الفلك) والهندسة والفقه والحديث والتفسير».

وكل ما تحدثت به حتى الآن عن معانقة الإسلام للعلم لا يتجاوز القرون الأربعة الأولى للهجرة. وفيها كان المتعلمون فى أوربا يقلون قلة شديدة، ولم تكن الكتب تعرف عندهم إلا فى الأديرة، بينما كانت عند المسلمين مطروحة في المساجد والمكتبات العامة ودكاكين الوراقين. وأخذت تنشأ عندنا المدارس منذ القرن الرابع الهجرى يبنيها السراة الذين كانوا يعدون أنفسهم حماة للعلم.

وأخذ نظام الملك وزير السلجوقيين ينشىء فى كل بلد عراقى أو إيرانى مدرسة أشبه بجامعة. إذ كان بها كل فروع العلم، وألحقت بها مساكن للأساتذة والطلبة، ورصدت لهم رواب لمعاشهم جميعا. وعمت هذه المدارس فى العالم العربى وأخذ ينشأ فى العلم سباق هائل بين العلماء فى كل بلد إذ كانت تعم فى الأمة وحدة علمية شرقا وغربا.

وكانت جوامع كبرى قد نشأت فى العالم الإسلامى واستحالت إلى جامعات تعلم فيها العلوم الدينية واللغوية على أعلام أئمة فى كل علم من مثل جامع القرويين بفاس وجامع عقبة بالقيروان وجامع الزيتونة بتونس والمسجد الأموى بدمشق، والجامع الأزهر بالقاهرة وقد كُفل فيه للطلاب من كل بلد إسلامى – حتى اليوم – المسكن والنفقة.

وهذه النهضة العلمية العالمية التى قاد فيها المسلمون العالم وحدهم طوال ستة قرون بلغوا فيها القمة فى كل علم. سواء فى العلوم الدينية واللغوية، أو فى علوم الأمم السابقة لهم من كيمياء وطبيعة ورياضيات وفلك وطب وهندسة. ونفذوا مبكرين إلى إيجاد فلسفة إسلامية مزجوا فيها بين روح الإسلام والفلسفة اليونانية.

وتألق لهم فيها – على مر الزمن – فلاسفة عظام. وكل ذلك بفضل مابث القرآن الكريم والحديث الشريف فى قلوب المسلمين من شغف شديد بالعلم لا يماثله شغف، حتى لكأنما أصبح جزءا لا يتجزأ من عقيدتهم الدينية.

واستيقظت أوربا من سباتها الطويل – فى القرن الحادى عشر الميلادى – على رؤية هذه النهضة العلمية الإسلامية الباهرة، وسرعان ما أخذ كثيرون من شبابها يطلبون معرفتها، فرحلوا إلي مدن الأندلس، يريدون التثقف بعلومها، وتعلموا العربية، وتتلمذوا على علمائها، وأكبوا على ترجمة نفائسها العلمية والفلسفية إلى اللاتينية : لغتهم العلمية حينذاك فى ديارهم.

ويقول الدومييلى في كتابه : «العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى» : ترجمت كل كتب العلماء العرب العظام – على وجه التقريب – إلى اللاتينية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر للميلاد، وقد تدارسوها واستوعبوها وتمثلوها وأضاءت لهم مسالكهم إلى نهضتهم العلمية الحديثة.

وطبيعى والقرآن والحديث يدعوان الأمة رجالا ونساء إلي التعلم أن يصبح للنساء دور فى الحركة العلمية الإسلامية منذ عصر الصحابة، وأساتذتهن جميعا - على مر القرون - السيدة عائشة أم المؤمنين زوجة الرسول ﷺ التى قال فيها : خذوا العلم عن هذه الحميراء، وقد روت عنه أكثر من ألفى حديث تحمل كثرة من الأحكام التشريعية التى اعتد بها فقهاء الأمة كما اعتدوا بأحاديث عن زوجات الرسول الأخريات وعن بعض الصحابيات.

ومعروف أن عمر بن الخطاب استعان في خلافته بصحابية من المهاجرات القرشيات جعلها حاسبة فى سوق المدينة هى الشفاء بنت عبدالله تراقب الأسعار فى البيع والشراء وتفصل فى الخصومات. وعم - فى كل قطر بعد الفتح - تعلم المرأة المسلمة، حتى تحفظ سورا من القرآن وبعض الأحاديث وبعض الأحكام الفقهية المتصلة بأداء الفرائض الدينية.

ولما أخذت الحركة العلمية الإسلامية فى الإزدهار بالقرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى وبعده بادر النساء المسلمات إلي الحضور في حلقات المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتشتهر فى كل قطر إسلامى محدثات يؤخذ عنهن الحديث النبوى.

ومن أوائلهن فى مصر السيدة نفيسة بنت الحسين بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب المتوفاة سنة ٢٠٨ للهجرة وكانت تملى الحديث النبوى على المصريين والمصريات فى مسجدها بالفسطاط، وممن حضر مجالس إملائها للحديث وسماعه منها الإمام الشافعى صاحب المذهب المشهور.

وفى كل بلد إسلامى تشتهر محدثات ومقرئات لقراءات القرآن الكريم ومفسرات للقرآن وفقيهات. ويخص الفاسى فى كتابه : «العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين» أى مكة المحدثات بالحرم الملكى بالجزء الثامن من الكتاب، إذ

يترجم فيه لعشرات من النساء المحدثات من أهل مكة أو النازلات بها اللائى أخذ عنهن كثيرون من أجلاء المحدثين الحديث النبوى.

وتشتهر جارية لأم الخليفة المقتدر اسمها ثمل بأنها فقيهة وأنها جلست فى سنة ٣٠٦ للهجرة للحكم بين المتظالمين وسماع المظالم وجلس معها القضاة والعلماء.

واختلف الفقهاء حينئذ فى جواز ولاية المرأة للقضاء، وأجاز ذلك الإمام الطبرى أكبر علماء التفسير فى زمنه، وهى فتوى تدل على ما بلغته المرأة المسلمة في ذلك التاريخ من التعمق في الفقه وعلوم الشريعة الإسلامية، ومنذ القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى يتفرغ كثيرات من النساء الصالحات للنسك والعبادة وتشتهر بينهن رابعة العدوية البصرية المتصوفة، ولها فى الحب الإلهى الصوفى الذى يتجرد من كل حس ومادة أشعار رائعة : وهى تعد -بحق- بين مؤسسى التصوف الإسلامى.

وتشتهر كثيرات بالبلدان الإسلامية فى تعمقهن بالعلوم المختلفة، وفى الجزء الثامن من كتاب الذيل والتكملة لعبد الملك المراكشى ثبت طويل بالنساء العالمات فى الأندلس والمغرب، وهن موزعات على بيوت الحكام فى الأندلس والدول المغربية المتعاقبة، وعلى بيوت الوزراء والعلماء، وعلى عامة الشعبيين الأندلسى والمغربى. ومنهن من كانت تؤخذ عنهن القراءات السبع وقراءة ورش المصرى والتفسير والحديث النبوى والفقه والعربية واللغة والعروض وكتب الأدب المشهورة مثل كتاب الكامل للمبرد وكتاب الأمالى لأبى على القالى. ومنهن من كانت تنشر المذهب الأشعرى فى نساء مدينتها.

واشتهرت - منذ القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى - طبيبات أندلسيات حاذقات وأخذ الطب عنهن مغربيات بارعات. وتشتهر كثيرات من النساء المسلمات - على مر القرون - بأنهن كن زاهدات عابدات لربهن

متبتلات، ويشهد ابن عربى المتصوف الأندلسى بأن الذى دفعه إلي التصوف زوجته مريم بما كان يشهد من ورعها ويسمعه من مواعظها وأيضا صوفية قرطبية هى نونة فاطمة، لزمها سنتين تلميذا ومريدا.

وتشتهر صوفية تونسية من تلامذة أبي الحسن الشاذلى صاحب الطريقة الصوفية المشهورة تسمى عائشة المنوبية وتلقب بلقب للا ولها فى تونس زاوية كبيرة. ويتناثر فى البلاد الإسلامية لهؤلاء الناسكات زوايا كثيرة ومساجد مثل مسجد السيدة زينب في القاهرة.

وناهيك بمشاركة المرأة السودانية فى انتشار التصوف فى بلدان السودان، وكانت تحضر حلقات الذكر الصوفى، وكثيرا ما كانت تقف منشدة، والرجال فى الصفين المتقابلين يذكرون الله خاشعين على إنشادها.

وفى كل أنحاء المغرب وموريتانيا كان النساء هن اللائى ينهضن بمرحلة التعليم الأولى - فكن يعلمن البنات والأولاد الصغار حتى سن الثانية عشرة الكتابة والقراءة ويحفظنهم بعض سور القرآن الكريم ويعلمنهم الحساب وبعض مبادىء العلوم الضرورية.

ومع هذه الصلات الحميمة بين الإسلام والعلم التى وثقها القرآن الكريم والسنة النبوية والتى أحالت العالم الإسلامى إلي عالم علم ونور نرى بعض المثقفين عندنا يقرءون ما حدث فى الغرب بالقرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد من معارضة الكنيسة المسيحية للعلم الغربى الحديث ووقوفها ضد العلماء الغربيين وإعلانها حربا شعواء عليهم على نحو ما صنعت بالعالم الإيطالى جاليليو (١٥٦٤- ١٩٤٢م) عالم الفلك والرياضيات حين أعلن كروية الأرض وأنها تدور حول الشمس إذ قدمته إلي المحاكمة وعذبته ألوانا مختلفة من العذاب، حتى اضطر مرغما إلي إعلان تراجعه عن آرائه.

ولما قرأوا ذلك وما يماثله عن الكنيسة المسيحية فى القرنين المذكورين تبادر إليهم أن شيئا مما يماثل ذلك حدث بين الإسلام والعلم، وهو خطأ شديد

إذ لم يحدث بين الإسلام والعلم أى قطيعة فى يوم من الأيام. فقد كانا دائما متعانقين، مما دفع المسلمين إلى شغفهم الشديد بالعلم ذكورا وإناثا فى كل العصور الماضية واستحداثهم نهضتهم العلمية التى تحدثنا عنها، والتى ظلت تقود العالم ستة قرون متعاقبة.

وكما قلنا مرارا إن دين الإسلام الذى اختاره الله لإسعاد البشرية فى الدنيا والآخرة ما كان ليجعله أو شيئا منه معوقا لتمثل المسلمين للعلم، بل لقد رأيناه يرفع العلم -كما مر بنا- فوق منزلة تسبيح الملائكة وتقديسهم لله، ليدفع المسلمين - بقوة - إلى الشغف بالعلم، وبالمثل دفعهم الرسول إلى هذا الشغف قائلا - كما أسلفنا- إن الملائكة لتبسط أجنحتها لطالب العلم لتقله كيف شاء. وهذا الحث من الله ورسوله للمسلمين كى يندفعوا للتزود بالعلم جعلهم كلما نالوا زادا منه طلبوا مزيدا وقد أكبوا أولا -كما ذكرنا- على الاشتغال بالعلوم الدينية، وسرعان ما اشتغلوا بالعلوم اللغوية والعلوم الأجنبية طبا وغير طب، وما من شك فى أن الإسلام لا يعانق ما عرفه المسلمون من العلم وفروعه فحسب، بل إنه يعانق أيضا ما سيعرفونه من العلوم فى المستقبل، إذ هو والعلم صنوان أو أخوان.

ولم أعرض علماء المسلمين الأفذاذ فى كل علم، لأن المجلدات الضخمة لا تستطيع الإحاطة بهم، وأنا إنما أكتب الآن نظرة عامة عن الإسلام والعلم، وكيف أذكى الإسلام جذوة العلم عند المسلمين وكيف دفعها بقوة إلى التوهج حتى امتلأت الأرض الإسلامية نورا وضياء، وعلوما دينية ولغوية وعلوما طبيعية وكيميائية ورياضية وطبية. وبالمثل لم أعرض لأهم ما وضعه علماء المسلمين من مؤلفات وموسوعات وآيات رائعة ثبتت على الدهر وأتاحت لنفسها الخلود على مر الزمن، لأن ذلك يعز عرضه فى أى علم لكثرته المفرطة. ويكفي أن أذكر أنه وصل إلينا من التراث الإسلامى العلمى آلاف من المجلدات فى كل علم نفخر بها، كما نفخر بواضعيها من علمائنا الأجلاء الماضين.

الإسلام تراث حضارى للمسلمين
وغير المسلمين في دار الإسلام

(ح) على أن هنا أمرا له أهميته – ويجب التنبيه عليه. وهو أن الإسلام بالنظر للمسيحيين – العرب بالذات – يعتبر تراثا قوميا وحضاريا لهم، فهم وإن لم يؤمنوا به دينا، يؤمنون به ثقافة وحضارة – يعتزون بها، ويفخرون بأمجادها وآثارها.

وهذا ما جعل بعض المنصفين من المسيحيين فى مصر وفى سوريا وغيرها يقول: «أنا مسيحى دينا، مسلم وطنا وثقافة»!

ولا عجب أن رأينا كثيرا من أدباء النصارى يحفظون القرآن كله أو جله، باعتباره كتاب العربية الأكبر.

كما كان السياسى المصرى المسيحى الشهير «مكرم عبيد»، وكما حكى عن نفسه الكاتب الأديب الدكتور «نظمى لوقا» فى مقدمة كتابه القيم «محمد: االرسالة والرسول»، ووجدنا كثيرا من هؤلاء الأدباء يكتبون عن محمد ﷺ رسول المسلمين مقالات وقصائد جيدة بوصفه عندهم أعظم شخصية عربية.

يقول الشاعر المارونى «رشيد الخورى»:

شغلتُ قلبى بحب المصطفى، وغدت عروبتى مثلي الأعلى وإيمانى

ويقول «أمين نخلة»:

«الإسلام إسلامان: واحد بالديانة، وواحد بالقومية واللغة، ومن لا يمت إلى محمد بعصبية، ولا إلى لغة محمد، وقومية محمد، فهو ضيف ثقيل علينا، غريب الوجه بيننا.

ويا محمد : يمينا بدينى ودين ابن مريم .. إننا فى هذا الحى من العرب نتطلع إليك من شبابيك البيعة، فعقولنا فى الإنجيل، وعيوننا فى القرآن» !

ولا غرو أن وجدنا أيضا بعض القانونيين المسيحيين يدرسون الفقه الإسلامى ويدافعون عنه، ويعتبرونه تراثا تشريعيا للأمة كلها، مسلمين وغير مسلمين.

بل وجدنا من زعماء المسيحيين المعدودين من يدعو إلى تبنى النظام الإسلامى فى السياسة والحكم والاقتصاد والاجتماع.

من أقوال فارس الخورى عن الإسلام :

وأبرز مثل لذلك هو الزعيم السورى الشهير «فارس بك الخورى»، الذى شغل منصب مندوب سوريا فى هيئة الأمم، كما شغل منصب رئيس الوزراء مدة من الزمن.

فهذا الأستاذ «محمد الفرحانى» تلميذه وملازمه وروايته يحكى عنه فيقول: قال لى «فارس الخورى» ذات يوم فى مجلسه بحضور عدد من زواره ومن بينهم القسيس البروتستانتى «داود مترى» :

«أنا مسيحى ولكننى أجاهر بصراحة : إن عندنا النظام الإسلامى، وبما أن الدول العربية المتحدة - (كان ذلك فى عهد الوحدة المصرية السورية واتحادهما مع اليمن) - بأكثريتها الساحقة مسلمة، فليس هناك ما يمنعها من تطبيق المبادئ الإسلامية فى السياسة والحكم والاجتماع.

« عقيدتى ويقينى أنه لا يمكننا محاربة النظريات الهدامة التى تهدد كُلا من المسيحية والإسلام إلا بالإسلام .. وإن هذا هو الذى يحد من نشاط الشيوعية ويقض٢ى عليها القضاء المبرم، لأن حقائقه تهزم أباطيلها وتدمرها».

« فالإسلام هو الدرع الحصينة ضد الشيوعية، وهذا ما صرحت به مرارا وتكرارا سواء فى المحافل الدولية أو فى مجالسى الخاصة فلا حياة للعرب، ولا قوة بغير الإسلام .. هذا أمر أنا أومن به، ولقد كنت فى هيئة الأمم المتحدة منسجما كل الانسجام مع وفد الباكستان وغيره من الوفود الإسلامية، وكان الباكستانيون يدافعون عن قضايانا بأشد من الروح التى يدافعون بها عن قضاياهم .. إنهم يحبون العربى حبا عظيما بل يقدسونه تقديسا ».

ويقول الأستاذ الفرحانى : «قال لى فارس الخورى : هذا هو إيمانى. أنا مؤمن بالإسلام وبصلاحه لتنظيم أحوال المجتمع العربى وقوته فى الوقوف بوجه كل المبادئ والنظريات الأجنبية مهما بلغ من اعتداد القائمين عليها، لقد قلت ولا زلت أقول : لا يمكن مكافحة الشيوعية والاشتراكية مكافحة جدية إلا بالإسلام، والإسلام وحده هو القادر على هدمها ودحرها.

ولقد نقلت هذا الكلام فى حينه إلى الأستاذ محمد المبارك عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق فقال لى : من الغريب حقا أن يُستهان بأمر الإسلام من قبل بعض أبنائه، ويعمل على إبعاده عن واقع الحياة، فى حين يقف أعظم مسيحى فى الشرق يجهر بضرورة الأخذ بأحكام الإسلام والعمل بشريعته».

والأعجب من ذلك أننا نراه يؤيد قيام حكومة إسلامية قوية حازمة، بل ديكتاتورية لتضرب بشدة على أيدي مروجى الإلحاد والفساد والانحلال فيقول : «نحن بحاجة إلى حكومة حازمة تؤمن بالإسلام كدين ونظام متكامل، وتعمل لتطبيقه، فكما أن الشيوعية تحتاج لديكتاتورية حازمة تشق لها طريق الانتشار والازدهار والثبات فالإسلام أشد حاجة لمثل ذلك.

«ومن ذا الذى يرضى ضميره ويطمئن قلبه إلى سلامة أمته وكيان بلده وهو يعلم أن التحلل والفساد منتشران لدرجة يصعب معها صدهما وايقاف

تيارهما، ومن ذا الذى ينكر على المسئولين فيه مكافحة ذلك التحلل وذلك الفساد بشريعة هى من تلك الأمة وفيها».

وفى مناسبة أخرى يبين الأستاذ الخورى فضل التشريع الجنائى الإسلامى فى تحقيق الأمن والاستقرار للمجتمع، والقضاء على الجريمة والمجرمين فيقول : «تذكرون ولا شك عندما تضعون الموازنة العامة للدولة المبالغ الطائلة التى تُخصص للأمن العام، والشرطة والدرك والمحاكم كرواتب ونفقات.

« فلو طبق الشرع الإسلامى وقطعت يد فى حلب مثلا .. وجلد آخر فى دير الزور ورجم ثالث فى دمشق، وكذلك فى بقية المحافظات، لانقطع دابر هذه الجرائم ولتوفر على الدولة ثلاثة أربا ع هذه الموازنة».

واستدرك الأستاذ فارس الخورى يقول : «فى العهد العثمانى كان فى دمشق ثلاث محاكم شرعية وصلحية تنظر فى الدعاوى الجزائية والبدائية وكان قضاة هذه المحاكم يقضون أغلب أوقاتهم فى مراكز عملهم بدون عمل .. فإذا قسنا ذلك الظرف وقارناه بظرفنا الحالى وجدنا أن السبب فى كثرة المحاكم اليوم يعود إلى تدنى الأخلاق، وانتشار الفساد وعدم الاكتراث بما تفرضه الدولة من عقوبات غير رادعة ولا زاجرة، لعدم تطبيق التشريع الإسلام فى الحكم».

ولقد انتبه هذا السياسى الكبير إلى علاقة العرب بالعالم الإسلامى وما لهم من رصيد كبير لدى الشعوب المسلمة ينبغى الحرص عليه والاستزادة منه، فكان يقول : «إننا نستطيع أن نثير بهذا الإسلام، قوى خطيرة جبارة، ليس فى العالم الإسلامى فحسب، وإنما في جميع أقطار الدنيا، فالمسلمون بروابطهم الدينية الوثيقة واتجاههم نحو قبلة واحدة وإيمانهم بكتاب واحد وعملهم بسنة نبى واحد إنما هم يشكلون أمة واحدة متماسكة مفروض بها أنها تتعاون على البر والتقوى، والعدل والإحسان، وإن لم تكن كذلك تختفى عنها صفة الإسلام، هذه

الأمة الإسلامية إذا ما أثيرت بأفرادها العاطفة الدينية بشكل جيد، وأحسن تسييرها فباستطاعتها أن تغير مجرى التاريخ».

ومما لفته إلي هذا الأمر ما لمسه من حماس المندوبين الإسلاميين فى هيئة الأمم للقضايا العربية – كما ذكر ذلك من قبل – كما أنه شهد مرة حفلا أقيم لتكريم رئيس أندونيسيا ورفقائه فلما وصل ضيف الشرف الرئيس الأندونيسى ومن معه من وزراء وسفراء أندونيسيين فوجئ فارس بك بأنهم يحدثونه باللغة العربية الفصحى فعجب وسألهم أين تعلموا اللغة العربية ؟ فأجابوه بأنهم تعلموها فى أنديونيسيا، حيث تقوم ألوف من المدارس العربية المختصة بتعليم اللغة العربية، حيث جُعلت اللغة العربية لغة التدريس الأساسية لجميع العلوم.

فأعجب فارس بك جدا بما سمع، وخاطب الحاضرين من المدعوين العرب قائلا : «ما أعظم رصيد الأمة العربية الثقافى فى البلاد الإسلامية، وما أجدرنا، نحن العرب – المسيحيين منا والمسلمين – أن نعض بالنواجذ على صلاتنا بالأقطار الإسلامية وأن نوثق علاقاتنا بمئات الملايين من سكانها الذين يكنون لنا أصدق مشاعر الحب والولاء، فإن لنا بذلك فوائد عظيمة ثقافية وسياسية و اقتصادية، وأن من واجب الأمة العربية أن تسعى إلى هذه الحقيقة وتعرف كيف تفيد من هذه الكنوز الثمينة المدخرة لنا فى أقطار العالم الإسلامى».

وبعد هذه النقول الناصعة من زعيم مسيحى منصف لم يبق هناك مجال لمتوجس، أو متعنت، فقد حصحص الحق ووضح الصبح لذى عينين.

مجلة الدعوة تستطلع

رأى كبار المسيحين فى تطبيق الشريعة

ومع هذا - زيادة فى البيان وقطعا لكل تعلة - نسجل هنا ماكتبته مجلة «الدعوة» القاهرية فى عددها الصادر فى ربيع الأول سنة ١٣٩٧هـ تحت عنوان: «المسيحيوين فى مصر والحكم بشرع الله» . فقد وجهت بعض الأسئلة إلى بعض أهل الفكر من ممثلي الطوائف المسيحية فى مصر، فكانت إجاباتهم امتدادا لما نقلناه عن الزعيم السورى فارس الخورى.

قالت «الدعوة» : «وربما انبعثت أصوات هنا أو هناك تتساءل : وماذا عن الأقليات فى مجتمع يطبق شرع الله ؟.. وربما كان السؤال ليس له ما يستدعيه، فشريعة الله لكل خلق الله : عدل وإنصاف وصون للمال والعرض والحياة، ومع ذلك توجهت الدعوة بأسئلة محددة إلي أهل الرأى الممثلين للطوائف المسيحية فى هذا البلد، تستطلع رأيهم فى تحكيم شرع الله، وهجر كل القيم والقوانين والنظريات الوضعية.

سؤالان محددان مطلوب الإجابة عنها:

وقد وجهت «الدعوة» سؤالين محددين :

١- إذا كان الإسلام والمسيحية ملتقيين فى تحريم الزنا - مثلا- ومحاربته، فهل عندكم مانع فى تطبيق حد الزنا وبقية الحدود الإسلامية الأخرى على من استوجب إقامتها عليه فى المجتمع المصرى، وهل ترى فى تطبيقها ما يمس حقوق المسيحيين أو يضايقهم؟

٢- من خلال دراستكم للتاريخ، ماذا ترون فى حكم الإسلام بالنسبة للأقليات من ناحية العبادة والأموال، والأعراض ؟

*** عن السؤال الأول يجيب الكاردينال اسطفانوس بطريرك الأقباط الكاثوليك :**

«الأديان السماوية تشير إلى تجريم القتل أو الزنا، وإلي المحبة، والمعروف أن من يحب الله يجب أن يحب أخاه، ومن يدعى أنه يحب الله ولا يحب أخاه فهو كاذب، فالقتل والزنا والسرقة إلى آخر المنكرات ضد المحبة، لأن الله خلق الإنسان ليكون مستقيما غير منحرف.

ويستفيد من التعاليم الإلهية، ولذلك فالذى يشذ عن نظام الله وتعاليمه - بعد أن تُكفل له أسباب العيش ومستلزماته - يجب أن تُطبق عليه حدود شريعة الله ليرتدع ويكون عبرة لغيره، وحتى لا تعم الفوضي عندما يقتل أحد أخاه ولا يُقتل، أو يسرق ولا تُقطع يده، أو يزنى ولا يُقام عليه حد الزنا.

وهذا ما وجدناه فى القوانين الوضعية التى تجامل الناس وتلتمس لهم مختلف الأعذار، مما جعل المجتمع غير آمن على نفسه أو ماله أو عرضه، وأعود فأكرر أن تطبيق حدود الشريعة الإسلامية ضرورى على الشخص وعلى المجتمع حتى تستقيم الأمور وينصلح حال الناس، وليس فى تطبيقها - أبدا - ما يمس حقوق المسيحيين أو يضايقهم».

كما يجيب غبطة الكاردينال عن السؤال الثانى فيقول :

إن الذي يحترم الشريعة الإسلامية يحترم جميع الأديان، وكل دين يدعو إلى المحبة والإخاء، وأى إنسان يسير على تعاليم دينه لا يمكن أن يبغض أحدا أو يلقى بغضا من آحد، ولقد وجدت الديانات الأخرى - والمسيحية بالذات - فى كل العصور التى كان الحكم الإسلامى فيها قائما بصورته الصادقة، ما لم تلقه فى ظل أى نظام آخر، من حيث الأمان والاطمئنان فى دينها ومالها، وعرضها وحريتها».

الإسلام من المنظور الغربي

لقد تحولت النصرانية التى حددها المسيح - عليه السلام - بأنها ديانة أخروية لا تعدو فى تعاملها دخيلة النفس ولا تتدخل فى إدارة شئون الدنيا، إلي قبضة فولاذية فى أيدى رجال الكنيسة الذين لم يتركوا شيئا من شئون الحياة الدنيا، دينيا أو مدنيا إلا سيطروا عليه.

لقد كان اهتمام الغرب بالإسلام أولا منصبا على الاهتمام بالأرض كموقع جغرافى، وكمصدر للثروات والخيرات، إذ أنه على الرغم من الاهتمام بالعالم الإسلامى والعربى بصفة خاصة. وبالعلوم والفلسفة والتراث العربى بشكل عام، بل وبالسلوك والأنماط الحياتية للمسلمين، فقد نقلت الصورة التى رسمها الغربيون للإسلام معتمة ومؤلمة. وبعيدة عن الواقع، وقبل أن نعرض بعض الأمثلة للتدليل على هذه الصورة المشوهة للإسلام والمسلمين نقول : إن ذلك التشويش قد وقع إلى حد كبير بسبب نمطية العقلية الغربية وميلها إلي التصنيف والقولبة، وذلك بناء على مواقفها الثابتة والجامدة تجاه من تعتقدهم خصوما أو أغيارا متربصين، يصدق هذا على العقلية الغربية القديمة. كما يصدق أيضا على العقلية الغربية الحديثة كما بينا تواً، هذا برغم التقدم العلمى والتكنولوجى الخارق، وامتلاك الغرب للقوة المادية الهائلة.

ولنقدم هنا بعض الأمثلة على ما قلناه من سوء فهم الغربيين للإسلام. فى روايته التى هى بعنوان Ivanboe وضع أسكوت Scott على لسان "وامبا" عبارات تهريج والتى يقارن فيها بين يهودى ومسلمين، وصف اسكوت المسلمين بأنهم يعبدون محمداً. وينبغى أن نلاحظ هنا أن اسكوت لم ينزع منزعا روائيا خياليا فى روايته، فحسب، وإنما استقصى معلوماته بالفعل من الموقف الأوروبى العام تجاه الإسلام والمسلمين. وقد أشرنا من قبل إلى زعم الكاردينال جيكوب

فبترى بأن مسجد عمر بن الخطاب كان به صورة لمحمد ﷺ. وفى أنشودة القدس لبطرس الناسك توجد أيضا مثل هذه المزاعم الباطلة فقد وجه بطرس أنشودته إلى هؤلاء الذين حملوا صلبانهم على صدورهم لمحاربة المسلمين، "لتحطيم صورهم أو تماثيلهم كما هى عباراتهم".

وفى أنشودة أنطاكيا صور المسلمون على أنهم كانوا يحملون تمثال محمد معهم أثناء المعركة. وتوجد إشارة غريبة كذلك فى الأنشودة نفسها إلي صنم يدعى سلام كادس زعم كاتب الأنشودة أنه لمحمد ﷺ وأنه كان بالأندلس.

"Idolo Mahumet in the Iand ot Andalus, Calledsalam, cadis"

وتعنى هذه العبارة الإله أو الصنم ويزعم تانكرد النورماندى الصليبى (١٠٧٢م) أنه دخل المسجد الأقصى مرة ورأى فيه صنما ضخما من الفضة على شكل محمد، هذا الصنم كان ثقيلا جدا بحيث يصعب على ستة رجال أشداء تحريكه من مكان إلى مكان آخر. وفى رومانس دي محمد (في القرن الثالث عشر) زعم الكاتب أن كفن محمد كان معلقا فى الهواء. وفى أنشودة أنطاكيا المشار إليها سابقا أن قبر محمد، وليس كفنه فقط كان معلقا فى الهواء.

إنه للأسف على الرغم من خطأ هذه الأحكام وتعسفها فإنها قد استمرت تسيطر على العقلية الغربية بدرجات متفاوتة، ولوقت طويل ونجحت فى أن تصبغ العقلية الغربية بصبغة أسطورية بالنسبة للمسلمين.

ومن خزانة الأدب الصليبى نورد شكوى همبرت الرومانى من أهل طائفة الدومينكان (١٢٥٤ - ١٢٦٣) في كتاب له أعده للوعظ ذكر فيه أنه لا يوجد إلا عدد قليل من النصارى الذين يفهمون القليل عن محمد والمسلمين وأن فهمهم هذا لا يتعدى حدود القول بأن المسلمين كفار، وأنهم لا يؤمنون بالمسيح بل يعبدون محمدا كإله.

وقد أشاع المرجفون فى أوروبا أن محمدا كان مصابا بالصرع، وأنه كان يعانى من هذا المرض طوال حياته، ويرجع القول بهذه الأكذوبة، التى لا تزال تتردد فى الكتابات الأوروبية الحديثة وربما المعاصرة، إلى الرومانى دى ماحون، كذلك زعم مبعوث لويس التاسع واسمه أيفس البرتون فى القرن الثالث عشر، وبعد أن تكلم مع أحد الإسماعيليين من فرق الشيعة، أن بعض المسلمين يتبعون قوانين محمد وبعضهم يتبعون قوانين على (يقصد الشيعة).

وهذا خطأ جسيم منشؤه الجهل بالإسلام فليست توجد هناك قوانين خاصة بمحمد وقوانين خاصة بعلى، والمثل الآخر الذي نقدمه من بطرس المحترم "حوالى ١٠٩٢ - ١١٥٦م" الذى حاول إقناع أبيلارد بالرجوع إلى الإيمان الأعمى والكف عن البحث والتفكير قائلا له: "إنك إذ لم تحصل على نعمة المسيح، إنك إذا لم تهتد فأى تعاسة سوف تصيبنى أنا فى نفس الوقت؟ من الذى يحبك كابن وحيد، ومن سيغذيك بلبان التقوى، ومن الذى يمكن أن يدفئك بالحب كما فعلت أنا عندما كانت تضحك فوق صدرى؟ ومن الذى سوف يقوم بتربيتك مع أبناء المسيح؟ من الذي سوف يلبسك الزى السماوى؟ من ذا الذي سيوقظك بكل قوة من أجل الصراع الروحى والقتال جنبا إلى جنب ضد العدو المشترك؟".

ثم يقول له أيضا: "لأى هدف يا بنى تتحير، وتنتقل من مدرسة لأخرى ؟ لأى هدف تبذل هذه المحاولات لتفهم وتدرس؟ لماذا تبحث عن آلاف الكلمات وتبذل من أجلها الجهد المضنى. بينما قد أُعطيت الحقيقة كلها لنا فى كلمة بسيطة".

والعدو المشترك الذي يعنيه بطرس بالطبع هو الإسلام والمسلمون وأما قول بطرس بأن الحقيقة كلها قد أعطيت لهم فى كلمة بسيطة ربما قصد بها الإنجيل أو التجلى فإنه يعنى أن جميع الأديان لا تحتوى على أى حقيقة، بل

المسيحية فقط هى التى تمتلك الحقيقة كاملة. وهذه الفكرة تسيطر على الفكر الكنسى كله وسوف تظهر بجلاء بعد قرون في كتاب للبابا يوحنا بولس الثانى بابا الفاتيكان، والكتاب بعنوان : "روعة الحقيقة" كما سنرى فيما بعد. لقد كان بطرس ابيلارد ١٠٧٩-١١٤٢م، أول رجل دين مسيحى يحاول الجمع بين الفلسفة والدين وبين الدين والعالم كما كان أول من نادى بأن الدراسة الموضوعية. لا التحيز والتحامل، هو الذي يخدم الكنيسة.

لقد بدأت الشرارة الأولى للفكر الحر فى أوروبا من هذا التاريخ ولم تتوقف، فقد انطلقت الدراسات الإسلامية الأقرب إلي الموضوعية والأكثر وعيا للمفاهيم الإسلامية في الغرب من هذا التوقيت، حيث أنشئت دور لتعلم اللغة العربية وللترجمة منها إلي اللغة اللاتينية، وتخصص فريق من الغربيين من اليهود واللاتينيين فى الترجمة، وقد ترجم القرآن الكريم عدة مرات، لأغراض كنسية بلا شك، كما ترجمت بعض الكتب الإسلامية المهمة بدرجات تتراوح بين الخطأ والجهل، وتعمد الإساءة، ولقد كان لهذه الترجمات بلا شك أثرها فى تشكيل الرأى العام الأوروبى فيما بعد بالنسبة للإسلام.

فقد عمل القديس بطرس المحترم مع فريق شكله لهذا الغرض، على ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، لغة الشعوب الأوربية أنذاك.

وكتب هيرمن الدالماتى تفسيرا للقرآن تولى بطرس المحترم نقله إلى اللغة اللاتينية، ويقال إن شخصا يدعى محمداً قد قام بمراجعة الترجمة.

ومما نتج عن ترجمة القرآن الكريم الزعم بأن محمدا قد انتحل من كتب اليهود والنصارى وربما كان لهذا الزعم تاريخ سابق على هذا التاريخ. ولكنه على أى حال قد ظهر وتطور في أعقاب الترجمات الكنسية للقرآن.

ونتج عن ظهور الترجمات، كذلك ما يمكن أن يسمى ببدائيات الجدل

الدينى فى الغرب، فلقد أثار بعض الغربيين موضوع الأصالة والتقليد فى القرآن الكريم حيث زعموا أن هناك قوانين وأحكاما قد أخذها محمد من اليهود والنصارى وأحكاما أخرى تركها، ورتبوا على ذلك القول بأنه إذا كان محمد نبيا حقا ما أخذ شيئا من كتبهم وترك شيئاً آخر، ولما قام بهذه التفرقة بين نص وآخر، ما دام أنه كان يعتقد بإلهية كتب اليهود والنصارى فى الجملة.

ويتساءل صاحب هذه الدعوى هل يعقل أن الله يقول الحقيقة فى موضع ثم يقول الباطل فى موضع آخر؟ وبالطبع فقد فند علماء المسلمين مثل هذه الدعاوى الباطلة وأثبتوا من دراساتهم لكتب اليهود والنصارى نفسها، وبالأدلة العقلية الدامغة أن فيها كثيرا من التناقضات والاختلافات فى كثير من المسائل، وبخاصة الاعتقادية والتاريخية، والحقيقة أن محمدا ﷺ لم يأخذ عن اليهود أو النصارى شيئا، وأن هذه الكتب التى يدعون أنه أخذ منها لم تظهر فى اللغة العربية إلا بعد وفاته ﷺ بقرون.

وعلى الرغم من هذا كله لم يتغير الموقف الغربى تجاه الإسلام إلا قليلا، وربما فى لهجة الخطاب لا فى أصل الموضوع، وفي هذه القرينة نقول : أما بالنسبة لمجال العلوم الحديثة فقد انطلق الغرب ببحث وبفحص ويمعن فى استكشاف ذاته، ويقلب فى بضاعته ويتعرف على عيوبه ونقائصه، ويسرع ويحث الخطى بحثا عن العلاج والإصلاح، وقد قطع فى ذلك شوطا بعيدا وآمادا مترامية، وتقدم تقدما كبيرا وذلك لأنه صارح نفسه، وواجه سلبياته، ولم يتوقف عند حد التبرير والتغرير أو الانكفاء على الذات.

لقد درس الغرب المسلمين وألم بفكرهم وبحضارتهم وتراثهم وعرف كذلك الكثير عن تاريخهم وواقعهم وكيفية التعامل معهم واختراق صفوفهم وعقولهم، ومعرفة نوازعهم وميولهم. والأمر الآن إلينا نحن العرب والمسلمين أن نبقى فى مواقفنا ومواقعنا التواكلية والتبريرية والتنصلية والتحاملية أم ننطلق لنكون على

مستوى الحوار المتكافئ مع الغرب، وفى مستوى يمكننا من التعامل معه معاملة الند للند. والحوار ليس مجرد كلام وإنما هو تعبير عن المواقف والأعمال، وعرض للأرصدة السلوكية والعملية والحضارية على الغير.

والدخول فى الحوار مع الغرب أو غير الغرب يتطلب الإعداد الكامل له، والإعداد يتطلب بدوره أن يكون المحاور على علم واسع وخبرة عميقة بما يجرى فى العالم وبتاريخ الإنسانية وثقافتها وفوق ذلك كله لابد أن تتوفر لديه المواهب الطبيعية وأن يكون من أصحاب البديهة الحاضرة. ويعتبر الحوار فى أيامنا هذه هو أقوى وأسرع الآليات فى فهم الآخر ومحاولة اختراقه والعمل على تغيير موقفه تجاه قضية من القضايا، وبالحوار يمكن لنا أن نصل إلى إقناع الغرب بعدالة قضايانا وحسن نوايانا، وإيضاح تحيزه ضدنا نحن المسلمين وهكذا.

وترك أمر الدعوة فى الخارج لغير الواعين فيما يجرى فى العالم وبمتطلبات الدعوة فى الغرب يعود بالفشل الذريع على الدعوة نفسها وعلى الأزهر كأكبر مؤسسة دينية فى العالم فبعض العاملين فى الدعوة بالخارج إن لم يكن كلهم لا خبرة لهم بالحوار أو بالدعوة بين غير المسلمين ولكنهم رضوا أن يشغلوا هذه المواقع لمصالح خاصة وليس للمصلحة العليا، مصلحة الدعوة والأزهر، ولو أسند فى هذا المجال إلي أحدهم العمل نفسه فى أحد المساجد فى بلادهم مثلا لتأبى عليه واختلق لنفسه دونه المعاذير والمحاذير.

ولكن ما دام العمل فى أوروبا فهذا يظهر الصراع والتسابق ولنأخذ مثلا على قلة فقه وحنكة بعض الدعاة غير المتمرسين فى الخارج، وطريقتهم المنفرة التى لا تليق بالدعوة، ولا ترقى إلى مستوى رسالة الإسلام العالمية.

والمثال نأخذه من كاتب مقال "المسلمون فى أوروبا" لنرى إلى أى حد كيف يراقبنا الغربيون فقد جاء فى مجلة النيوزويك الأسبوعية أن أحد الخطباء

المسلمين فى فرنسا كان يتكلم عن الخلافة الإسلامية وكأنها فى طريقها إلى الظهور والانتشار، وكأن الجيوش الإسلامية تقف على حدود أوروبا انتظارا لمداهمتها.

ويحدثنا نفس الكاتب الصحفي عن إمام آخر يخطب فى مسجد مقابل لكنيسة القلب المقدس بمدينة باريس وكان يتكلم عن الإسلام الزاحف على أوروبا ويقرأ على الناس من القرآن : ﴿ **لله الأمر من قبل ومن بعد** ﴾ [الروم : ٤].

يعلق الكاتب على خطبة هذا الإمام المتحمس بقوله : إن العقلية الفرنسية فى ظل الظروف التاريخية والحالية، لا تستطيع فهم هذا الكلام ولا قبوله، وهو لا يتفق مع منحاها العقائدى والفكرى العلمانى. وللحوار مع غير المسلمين طرق ومداخل ومنافذ لابد من معرفتها، والتخطيط للحوار لا يقل خطرا عن التخطيط لمعركة حربية أو مشروع علمى أو تربوى قومى ضخم، ولكن لابد أن يكون المتحاور قويا ولديه ما يعرضه ويستطيع أن يفرضه بالحجة والإقناع.

إن إعداد أو صناعة المحاور تتطلب منا وضع خطة عمل واقعية وشاملة وبذل الجهد المتواصل فى هذا السبيل ومن الحكمة أن نبدأ بتحديد معالم شخصية من يراد إعداده يصدق وموضوعية للتأكد من كفاءته واستعداداته فى هذا المجال ثم رعايته ماديا وأدبيا. وأولا وأخيرا ينبغى تهيئة الجو المناسب والبيئة المناسبة لنمو وتطور محاورين أكفاء.

إن المعركة الدائرة الآن بين الشعوب هى معركة جدلية، معركة الأمم فى وقتنا الحاضر قوامها الحوار، لا الحديد والنار، حتى إنه عندما تشن بعض الدول حربا متعسفة ضد دولة أخرى فإنها تكون في حاجة إلى الحوار لتبرير عدوانها، وتغطية موقفها أمام شعوب العالم، والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن من أصول الدعوة الإسلامية.

لقد أصبح المسلمون الغربيون اليوم جزءا من الواقع الأوروبى، وشريحة من شرائح المجتمع الغربى لا يمكن تجاهلها. إن عدد المسلمين فى أوروبا، وأمريكا فى تزايد مستمر، وإن تميز المسلمين الغربيين فى زيهم وعوائدهم وتقاليدهم وتمسكهم الواضح بتعاليم دينهم، وإقبالهم على إقامة المساجد، وإنشاء المدارس والكليات والمتاجر الخاصة بهم، وعقد المؤتمرات الإسلامية واستقدام العلماء من البلدان الإسلامية جعلهم يبدون كقوة، هذه القوة قد أثارت حساسية المجتمع الغربى وتخوفه كما يبدو من حملات أجهزة الإعلام الغربية بل ومن بعض الدوائر السياسية التى تتناول المسألة بحساسية تتجاوز حجم الواقع الفعلى لهذه الجاليات وتأثيره.

إن أجهزة الإعلام الغربية تصور المسلمين وكأنهم قد دخلوا البلدان غزاة أو قراصنة، وإن التخوف الشديد الذي تبديه أوروبا من التواجد الإسلامى على أرضها إنما سببه الانطوائية والنعزالية التى عاشت فيها أوروبا ردحا طويلا من الزمن.

إذ أن عهدها بالمجتمع المتعدد الجنسيات والديانات والثقافات يعتبر جد قريب، كما أنها وإلي حد كبير لا تزال متأثرة بآثار الحروب الصليبية التى ينبغى أن تتجاوز فى التعامل مع المسلمين وذلك لأن أسباب التفاهم والتعاون فى عصرنا هذا أكثر وأعمق من آثار الحروب الصليبية مهما كانت وطأتها بل إنه ينبغى أن نعرف أن للحروب نفسها ظروفها ودواعيها التى يمكن أن تعالج.

سبب آخر لتخوف أوروبا من الإسلام والمسلمين وهو يكمن فيما حدث فى بلادنا من إرهاب وتطرف له ظروفه وأسبابه المحلية والعالمية والتى لا يمكن أن نبرئ ساحة الغرب من العمل على وجودها ومساندتها، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإننا لو أخذنا أوروبا وأمريكا بتاريخهما الطويل والأليم فى الحروب الأهلية والطائفية أو بما يحدث فى هذه البلاد من عنصرية واضطهاد للأجانب

من بعض فئات المجتمع ومن استعمار للعالم الإسلامى، وكذلك من تحيز واضح ضد مصالح المسلمين السياسية العليا لتوقفنا عن التعامل معهم بالمرة ولم نركن إلى الإطمئنان إليهم أبدا.

ولكننا ينبغى دائما ألا نجعل العوارض ثوابت، والهوامش أصولا، أو نبنى حياتنا على الخوف والتوجس، ونبنى علاقتنا مع الآخرين على الشك والريبة وإلا لتعطلت مسيرة العالم وتوقف سير الحضارة الإنسانية. ولذلك فإننا نأسف لما أورده السيد Arie Dost Lander فى تقريره المقدم إلى البرلمان الأوروبى من اعتبار المسلمين هم بالدرجة الأولى مصدر التطرف الدينى.

فإن مثل هذا التصريح الخطير فوق أنه يتجاهل الظروف العالمية لظهور الإرهاب، وكذلك النزعات العنصرية الجديدة فى أوروبا فإنه يزيد بلا شك من حساسية الأوروبيين ضد المسلمين، وفى حالة ما إذا استمر الإعلام الغربى، والمنظمات الغربية فى إذكاء العداء وإثارة الحساسيات ضد المواطنين المسلمين فإن الغرب سوف يتعرض على المدى القريب لصراعات وحروب أهلية تضر بحضارته وبمصالح شعوبه.

إن الغرب لا يستطيع أن يستغنى عن المسلمين، ولا أن يعيش بمعزل عنهم وعن العالم من حوله سواء من الناحية السياسية أو من الناحية الاقتصادية والاجتماعية.

ولقد صرح جاك آتارى وهو مستشار دولى للرئيس الفرنسى السابق فرانسوا ميتران فى مقال له نشرته صحيفة لوموند الفرنسية والذى تكلم فيه عن أهمية الهجرة بالنسبة لفرنسا وعن أهمية العنصر الإسلامى فى تقدم بلاده وإثرائها اقتصاديا وبشريا. وفى هذا المقال هاجم آتارى التطرف اليمينى فى الغرب وقال : إنه مما لا شك فيه أن فرنسا بدون هجرة المسلمين إليها كانت

ذاهبة إلى الشيخوخة وأن قدوم المهاجرين إلى فرنسا قد أنقذها من مشكلات كبيرة وأن فرنسا لا يمكن أن تستغنى عن بعدها الإسلامى بحال.

إن الإسلام يفتح ذراعيه دائما للسلام ،ويعتبر السلام هو الأصل، أما الحرب فحالة طارئة يجب أن تعالج أسبابها، وتمحى آثارها، إنها أحيانا تكون كالخطيئة تصلحها التوبة والعمل الصالح. إن الأوروبيين أنفسهم يعترفون بأنهم فى حالة خوف من تزايد الوجود الإسلامى فى بلادهم، ولكن ما ذنب المسلمين الذين لم يدخلوا أوروبا غزاة، والذين كانت أوروبا نفسها فى حاجة إليهم، وقد شاركوا بالفعل فى بناء النهضة الأوروبية الحديثة، ولا يزالون يغذونها ويدعمونها.

إن المسلمين بصفة عامة لم يقفوا عند حد إدانة أوروبا ومطالبتها بالتعويض عما أحدثته الحروب الصليبية والزحف الاستعمارى المسلح على بلادهم واستعمار بلدان العالم الإسلامى كله قبل نهاية الربع الأول من القرن العشرين وما ترتب على ذلك من آثار سيئة ومدمرة يعانى منها المسلمون إلي اليوم فقد نقلت ثرواتهم ونقل الكثير من آثارهم وتراثهم النادر إلي مكتبات ومتاحف الغرب، ومع ذلك فإنهم يتعاملون بسماحة ودون حساسيات تذكر مع الغربيين فى كل مجالات الحياة والأنشطة المختلفة.

ولنا أن نتساءل فى خاتمة هذا الشوط لماذا تتحد جميع المؤسسات السياسية والدينية والإعلامية فى الغرب على تصوير المسلمين بهذه الصورة المخيفة التى تجعلهم يبدون وكأنهم وحوش مفترسة مع أن هناك أقليات كثيرة فى أوروبا يمسك بعضها فى أيديهم بأزمة صنع القرار وترسيم السياسات الداخلية والخارجية لهذه البلاد، فاليهود مثلا يستطيعون أن يقدموا للمحاكمة أى كاتب أو مفكر يتصورون أنه يشنع بهم أو يكشف مؤامراتهم كما فعلوا بجارودى فى فرنسا عندما نشر كتابه الأساطير الإسرائيلية وها هى إسرائيل تضرب بعشرات القرارات التى أصدرتها الأمم المتحدة عرض الحائط، وتحتل

أراضى إسلامية بالقوة وتسفك دماء آلاف الفلسطينيين وتهدم بيوتهم على رؤوسهم وتشرديهم.

وها هى إسرائيل تنتهك سيادة سويسرا وهى من البلاد المؤيدة لها، حيث ضبطت مجموعة تعمل لحساب الموساد وهى تزرع أجهزة تجسس فى مقر البعثة الإيرانية التابعة للأمم المتحدة بجنيف. هذا ولم تمض بضعة شهور على عملية الموساد الإسرائيلية الفاشلة فى عمان، والتى تورطت فيها الحكومة الإسرائيلية.

وها هى إسرائيل تمنح حق مطاردة أعدائها وتصفيتهم بدنيا فى الداخل والخارج. ومع هذا كله لم تصف أجهزة الإعلام الغربية إسرائيل بأنها إرهابية أو اليهود بأنهم إرهابيون، ولم تصنف إسرائيل فى أى قرار أو خطاب غربى ضمن الدول الراعية للإرهاب.

بل إنه لمن دواعى الحسرة على سقوط القرار السياسى الأمريكى والغربى، وتحيزه الكامل والسافر أن تضع الدول الغربية منظمة حماس الفلسطينية صاحبة الحق والمطالب الشرعية على قائمة المنظمات الإرهابية التى يجب حلها وتصفيتها.

كل هذا يجرى فى الغرب وخارجه بمساندة الغرب ولكننا لا نسمع عن قرار إدانة أو مقاطعة أو تحديد بالحرب أو تصنيف ضمن قوى الإرهاب بالنسبة لهذه الدولة أو لأى من أجنحتها وزعانفها التى تعيش فى أوروبا.

لابد من الإنصاف عند اتخاذ القرار ولو على الأقل من قبيل مراعاة المصالح العامة، ولابد من التزام العدل فى التعامل مع الغير وإلا لانقلبت الأمور بانقلاب الموازين واختل النظام باختلال الأحكام وعم الفساد فى الأرض.

وها هى إسرائيل تشن الغارات والمذابح على غزة من أجل جندى

إسرائيلى مختطف من قبل الفلسطينيين بعد أن طفح الكيل وفاض بالفلسطينيين من جراء حرب الإبادة التى تشنها عليهم إسرائيل بآلاتها الحربية الفتاكة وبمساعدة وتشجيع ودعم من الولايات المتحدة الأمريكية.

وعندما تحرك حزب الله لمساندة الفلسطينيين وتخفيف الضغط عليهم وذلك باختطاف جنديين إسرائيليين إذا بإسرائيل تشن غزوا وحرب إبادة على لبنان وتدمر البنية التحتية للبنان (مطار بيروت ومحطات الكهرباء ومحطات المياه وقصف الشاحنات التى تحمل المؤن والإطعمة إلى اللبنانيين) ، وتتعمد إسرائيل قتل النساء والأطفال المدنيين دون رحمة ولا شفقة ويخرج علينا بوش يؤيد إسرائيل ويشجعها على استمرار غزوها للبنان وضرب المدنيين .

ويتحدث بوش وسولانا المتحد باسم الاتحاد الأوربي بل وروسيا ورئيسها بوتين بل ومجلس الأمن وكوفى عنان سكرتير عام الأمم المتحدة عن إطلاق سراح الجنود الإسرائيليين ونزع سلاح حزب الله .

ويتناسون أكثر من عشرة آلاف أسير فلسطينى بعضهم محتجز فى السجون الإسرائيليين منذ السبعينيات تمارس عليهم أشد ألوان العذاب ويمنع عنهم الدواء والزيارات ويتم اغتصاب النساء فى السجون الإسرائيلية كما يفعل الأمريكان فى العراق وأفغانستان إذ يغتصبون النساء ويقتلون المدنيين.

ومازال التعذيب يجرى على قدم وساق فى سجن أبى غريب ومعتقل جوانتانامو على حدود كوبا وفى سجون سرية خارج الولايات المتحدة .

ويعلن وراء الخارجية العرب أن السلام قد مات ولكنهم يصرحون بأنهم لا يستطيعون الحرب ولا يحبون أن يسمعوا كلاما عاطفيا وإنهم يلجأون إلى مجلس الأمم ، ماذا سيفعل لهم مجلس الأمن المتآمر على العرب والمسلمين والذى أصبح أداة طيعة فى يد أمريكا وأوربا فلا حول ولا قوة إلا بالله .

الحروب الصليبية

الواقع والآثار وطرق العلاج

البداية الحقيقية للحروب الصليبية صنعتها أسبانيا، وأسبانيا لم تكن بالأرض المقدسة ولم يكن فيها قدس أو بيت لحم حتى يدعي تحريرها من أيدى المسلمين، ومع هذا فقد شابت رؤوس الولدان والغربان بما جرى للمسلمين واليهود فى أسبانيا النصرانية. وإن ما حدث على أيدى رجال القدس الجديدة، أعنى الكنيسة، يفوق الخيال، ولقد استشهد آلاف المسلمين دون تمييز بين رجل وامرأة، أو بين طفل وشيخ، لقد سلبت أمتعتهم وحيواناتهم، وحرقت زروعهم، بل لقد أزيلت قرى بأكملها، بناسها وغرسها، وحيواناتها ومساجدها، ومدارسها ومستشفياتها وملائجها.

ولم يفلت من تلك المذابح علماء المسلمين وأئمة المساجد الذين أضاءوا أوروبا بعلومهم ومعارفهم، جرت كل هذه الأعمال الوحشية فى أسبانيا وبالأخص فى منطقة جين Jaen التى وصف الهجوم العسكرى المسلح عليها بأنه طاعون، لم يترك في هذا البلد شبرا وطئته أقدام الجنود النصارى إلا حطمته ونشرت فيه الرعب والترويع والخراب والدمار. ومن هذا التاريخ يجب أن يؤرخ للإرهاب المنظم.

يحدثنا نورمان دانيال أنه عندما احتل الفونسو منطقة كوريا الأسبانية حطم كل مساجدها فى الحال، وعلى أثر إزالة المساجد بالكلية قال : "إن المدينة الآن نظفت، أو طهرت من الإسلام الذى لوثها. هذا فى الوقت الذي كان فيه الفاتحون المسلمون لا يحرقون زرعا ولا يجففون ضرعا، ولا يقتلون امرأة أو صبيا أو شيخا، ولا يهدمون دار عبادة، بل لقد أقام المنصور بن أبى عامر حراسة مشددة على قبر القديس سانت بيجو عندما دخل هذه المدينة الأسبانية

بجيشه. لقد تحولت النصرانية الأسبانية إلي بربرية همجية ضد المسلمين وقد اعتبر سانكو أن ضياع المدن والقلاع الأسبانية على أيدى المسلمين إنما كان بسبب الخطايا الكثيرة التى ارتكبها أباؤهم (يعنى الأسبان) وفى تقديره أن الله قد سلط عليهم لذلك أناسا متوحشين بربريين (يقصد المسلمين) وبعبارة المترجم.

وهذا المكان الذي كان يسكنه هؤلاء المسلمون الذين اعتبرهم سانكو كفرة ومتوحشين،

يسمى فى اللغة التشالدية Chaldean Longuage– البلدة Albelda وهو اسم عربى.

يعتبر سانكو أن حربه ضد المسلمين كانت حربا دينية، وأنه خاض معركته الصليبية لتخليص البلاد من الكفار المتوحشين، يعنى المسلمين.

وتقدم لنا المصادر الإنجليزية تقريرا عما حدث عندما استولى الأسبان على ليشبونة في عام ١١٤٧م ويضم هذا التقرير حوارا له مغزاه وقع بين قسيس وشيخ، وبغض النظر عن تاريخية أو عدم تاريخية هذه المحاورة فإنها تكشف عن موقف نفسي وتاريخى وإيمانى بالدرجة الأولى، هذا الموقف يعكس الغاية الحقيقية من التواجد الإسلامى فى الأندلس. حاول القسيس بادئ ذى بدء أن يقنع الشيخ المسلم بالدخول فى النصرانية ليزداد عدد أتباع كنيسة الرب كما هو تعبيره.

فرد عليه الشيخ قائلا : «أيها الرجل إننى أعتقد أن هذه المدينة كانت فى يوم من الأيام مدينتك، ولكنها الآن مدينتنا نحن، وربما صارت لك مرة أخرى فى المستقبل، ولكن إذا وقع هذا فسوف يقع بإرادة الله تعالى أيضا، وفى الوقت الذى يحدده هو سبحانه وتعالى. لقد أخذناها منكم بأمره عز وجل، وعندما يريد سبحانه أن نتركها فسوف لا تكون لنا. حقا إنه لا توجد هناك موانع أو أسوار تستعصى على إرادة الله أو تحول دون وقوع قضائه تعالى !!

إن كلام العالم المسلم مفعم بالحرارة والمرارة فى نفس الوقت وهو يعبر عن معنى قرآنى عميق الأثر فى النفس وبخاصة إذا استحضره الإنسان فى مثل هذا الموقف العصيب :

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) ﴾ [الأعراف].

إنه رجل مؤمن عميق الإيمان والثبات، ورجل واقعى لم يكابر ضد الواقع التاريخى ولم ينكر على القسيس الأسبانى كذلك أنه كان صاحب الأرض وصاحب الحق قبله.

ويعلق نورمان دانيال على كلام الشيخ المسلم : "إن نصرانيا لا يمكن أن يقول مثل هذا الكلام فى ذلك الوقت لأنه كان مصادما للروح الصليبية، ومع هذا نجد من يزعم أن نصارى العرب كانوا مضطهدين وبخاصة فى مصر والسودان وإثيوبيا.

لقد كان الصليبيون يشيعون أن الموحدين كانوا يخططون لاجتياح أراضيهم، بل لدخول فرنسا وإيطاليا وأوروبا كلها عنوة تحت إمرة المسلمين، وذلك عندما تقدمت جيوش الموحدين نحو شمال أفريقيا. نفس الهواجس التى لا تزال تهيمن على الغرب فى وقتنا الحاضر بالنسبة للمسلمين. وهذه الهواجس تعمق الفجوة بين المسلمين والغربيين وتعرقل محاولات الاتصال بينهم والتواصل معهم.

وينقل لنا أحد المؤرخين الغربيين وصفا للآثار المدمرة التى نجمت عن دخول أنوسنت الثالث - فى عام ١٢١٢م - الحرب ضد المسلمين والنهاية الأليمة لهذه الحرب الملعونة، يقول الحاكم المذكور " بتأييد المسيح المخلص" وبفضل قوة ومساندة معظم ملوك النصارى، ملوك أرجون، نفارى، وكستيلا،

ذبحناهم (أى المسلمين)، حتى لقد أصبح الأعداء أحدوثة أو حكاية، من دمائهم شربت سيوف أتباع المسيح وطعمت من لحوم الآلاف منهم، والتى هى فوق الحصر، ستون ألف كافر (يعنى مسلما) من الجنسين قد أرديناهم قتلى".

وهذا العنف الذى نلاحظه فى التاريخ الغربى يدفعنا إلى هذا التساؤل ماذا كان سيحدث للمسلمين أو للعالم لو لم ينشغل الغرب بالعلوم والاختراعات، ولو لم يغرق فى وسائل الرفاهية والترف ويستحوذ على ثمانين فى المائة من ثروات العالم ؟؟

الأمر العجيب أن تراق الدماء باسم المسيح الذي يعتقدون أنه ضحى بدمه على الصليب فداء للبشرية، أى بشرية ترى فدى المسيح بدمه إذن، وأى آلام لعمرى أخذ وأى خطيئة كفر عنها، وحطها عن كاهل البشر ؟؟.

من استقرائنا للتاريخ والواقع الغربى المعاصر يبدو أن الأوروبيين قد اقتنعوا ولا يزالون رغم اختلاف الظروف والأحوال والتفكير والنظام الاجتماعى والسياسى، بأنه لا حق للمسلمين فى أوروبا، ومن حق أوروبا أن تنزل فى أى مكان فى العالم والعالم الإسلامى والعربى بخاصة، وأن تحتل ما شاءت من الشعوب، وتصادر ما شاءت من الأديان والحريات والثروات بل والحيوانات.

إن نظرية الصراع بين الحضارات والخوف من الزحف الإسلامى واستشعار الخطر الأخضر كما أطلقوا عليه فى الغرب، بسبب وجود تجمعات إسلامية تتزايد بمعدلات كبيرة فى أوروبا أو ظهور دويلات تحمل اسم الإسلام فى الغرب، هذه كلها عملات قديمة أزيح عنها التراب لتستعمل من جديد، وإن أصحاب هذه النظريات هم أشبه بالمتاجرين فى الأشياء المستعملة.

إن قول مؤرخ الكونجرس الأمريكى صموئيل هنتنجتون بأن المسلمين هم أعداء الغرب إنما يعمى عن العدو الحقيقى لأوروبا وللمسلمين، أعنى الصهيونية العنصرية.

لقد قيل إن من أسباب قيام الحروب الصليبية الرغبة فى إذكاء الحياة فى الديانة المسيحية وتنبيه النصارى للخطر المحدق به، فقد كانت النصرانية مريضة مرض الموت ولم يكن لها أدنى تأثير حتى على رجال الدين الذين يرتزقون بها ويعيشون على حسابها. وبينما كان البعض يحاول أن يعيد الحياة إلي النصرانية ويستحث النصارى داخل أوروبا على الرجوع إلى الدين كان بعضهم يحرض على الزحف نحو أرض فلسطين ويستنفر الشعوب الصليبية لاسترداد الأرض المقدسة، مع أن أوروبا لم تكن موحدة، ولم تكن تعيش فى سلام مع بعضها البعض.

أضف إلى ذلك أن النصرانية تعتبر ديانة بالمعنى الضيق للدين، نعنى أنها لم يكن لها نظام سياسى أو هيئة مدنية أو أيديولوجية محددة يمكن أن تتوحد أوروبا حولها. ولذلك اختلفت أشكال الحكم فى أوروبا وإن ظلت المسيحية تسيطرعلى مشاعر شعوب هذه البلاد بشكل عام. بعد جيل كامل من وقوع جرائم الحروب الصليبية .

ينبه وليام ماليسبيرى على الخطر التاريخى الذى يزعم أنه يتهدد الممالك النصرانية فيقول : "لقد ضاعت آسيا، وأفريقيا، ولم يبق للنصرانية إلا أوروبا فقط. وحتى أوروبا لم تكن بمنأى عن الخطر، فقد احتلت أسبانيا وجزر بلارك الواقعة فى شرق أسبانيا على البحر الأبيض المتوسط، وعاصمتها بالما في ميورقة.

وإن الدعاوى الفارغة التى كان بعض الصليبيين يروجون لها من وجوب العمل من أجل استرداد الأراضى النصرانية وحماية النصارى العرب أو الشرقيين لم تجد صداها لدى هذه الشعوب التى كانت تحس دائما بالانتماء الكامل لوطنها وبالأخوة المتينة للمسلمين الذين كانوا يعيشون معهم، بل لقد كان النصارى العرب ينظرون دائما إلي الكنيسة الغربية بعين الريبة والتوجس فقد

كان لأتباع هذه الكنيسة لغتهم الخاصة وشعائرهم وعاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم المختلفة، ولذلك فلم تلبث أن ظهرت روح العداء السياسي والدينى بين نصارى الغرب والنصارى العرب كما هو الحال اليوم بين يهود الشرق ويهود الغرب في إسرائيل .

ولا أدل على هذا الاختلاف الظاهر بين الفريقين أنه عندما تأسست بعض الممالك اللاتينية فى المنطقة العربية لم تكن هناك مساواة قط فى المعاملة بين أتباع الكنيسة البيزنطية الغربية وأتباع الكنائس الشرقية العربية، لذلك انتشرت وبسرعة روح الكراهية للأجانب بينهم . يضاف إلى ذلك أن الاحتفال الذين أقيم بمناسبة عودة القدس إلى أيدي النصارى لم يكن له أى صدى جماهيرى أو شعبى، بل اقتصر على طبقة رجال الدين وعلى مجرد إصدار البيانات والمنشورات البابوية فحسب.

ومن المهم أن نعرف أيضا أن الصليبيين الذين زحفوا على فلسطين لم تكن تجمعهم رابطة واحدة، ولا هدف واحد، بل كانوا هم أنفسهم فى نزاع مستمر مع بعضهم البعض ومما لاحظناه من خلال قراءتنا في الأدب الصليبى أن المتطوعين من نصارى الغرب بحجة تخليص الأرض المقدسة كانت جماهيرهم من قليلى الحظ من التهذيب الاجتماعى، كما كانوا على درجة كبيرة من سوء الأخلاق. لقد كان بعضهم يأتى من الأماكن البعيدة لا يحمل معه إلا جرابا فيه بعض الزاد، ولكنه محمل بالفساد أكثر من العتاد، وكما يحدثنا مؤرخو الحروب الصليبية أن هؤلاء المحاربين باسم الصليب كانوا يعاملون زوجاتهم الجميلات معاملة القاذورات بعد أن تخلوا هم أنفسهم عن شرفهم.

ومما آذي المسلمين ونصارى العرب المتمسكين بالقيم أن هؤلاء المحاربين الذين قذف بهم الغرب إلي أرض فلسطين لم يتورعوا عن ارتكاب جرائم الزنا وممارسة الشهوات والاستغراق فى الملذات علانية مع النساء والفتيات اللائى

جئن سعيا وراء نفس الفكرة الحمقاء. وكان من نتائج هذه الممارسات الجنسية الإباحية وجود عدد كبير من اللقطاء الذين أخذهم المسلمون وربوهم على الإسلام. وبهذا استنقذوهم من أيدى التشرد والضياع.

لقد كانت البنت تغتصب ويعتدى عليها أمام أمها وأبيها كما كان يفعل الصرب مع مسلمى البوسنة والهرسك، وقد انتشر كذلك اللواط بين هؤلاء المحاربين الغرباء، حدث هذا فى الوقت الذى كانت أوروبا لاتزال تحافظ على بعض التقاليد الصالحة والقيم الخلقية الطيبة، وما قلناه بالنسبة للفساد الخلقى والاجتماعى الذي اتسم به المتطرفون الصليبيون لا يعنى أن الغرب كان قد تخلص من قيمه وتخلى عن مُثله بالكلية أبدا، كما أننا فى نفس الوقت لا نبرئ بعض المسلمين من ارتكاب بعض الأخطاء أو الانتهاكات التى ربما حتمتها الظروف أو فرضها الواقع بحكم الاحتكاك والنزاع الدائر بين الفريقين.

وعلى أى حال فإن الدين لم يكن بالنسبة للحروب الصليبية إلا ستارا لأطماع سياسية وتجارية واستعمارية توسعية فى أرض المسلمين، لقد كانت الحروب الصليبية كذلك هى المقدمة الطبيعية للاستعمار الغربى للمنطقة، بل وللعالم الإسلامى كله تقريبا.

والعجيب أن الصليبيين لم يعرفوا الإسلام معرفة جيدة ولم يهتموا بدراسته كذلك دراسة موضوعية على مدار سنوات الحروب الصليبية التى دامت قرابة أربعة قرون من الزمان لأنهم إنما جاءوا محاربين لا متعلمين أو مكتشفين، ولقد قام الاستعمار الغربى الحديث فيما بعد بهذا الدور عن طريق الاستشراق والتنصير المنظم وأجنحته الكثيرة والمختلفة.

إن كل ما عرفه الصليبيون عن المسلمين لا يعدو أن يكون بعض المعلومات العلمية كقوة المحارب المسلم وشجاعته وعمق تدينه وفوق ذلك وقبله إخلاص القائد صلاح الدين وعدله وسماحته فى معاملة الأسرى الغربيين.

يقول المؤرخ النصرانى جيكوب فيترى الذي اهتم بوصف جغرافية الأرض المقدسة، وبالحديث عن أى أنواع الجراد كان يأكلها يوحنا المعمدان، يقول عن شخصية صلاح الدين الأيوبى "إنه كان من أكرم الناس، ومن أرقهم قلبا ليس فقط بالنسبة لأبناء دينه، بل لنا أيضا نحن المسيحيين". ولقد أوصى صلاح الدين عند موته بتوزيع ثروته على فقراء المسلمين واليهود والنصارى دون تفرقة.

وقد وصف لنا بعض المؤرخين الغربيين الرخاء والأمن الذي كان يعيش فيه أهل فلسطين من مسلمين ونصارى جميعا ودون تفرقة وكيف أن نصارى سوريا كانوا ينقلون أخبار الصليبيين إلى القيادة الإسلامية، مما يدل على شيوع الأمن والسلام والمساواة والسماحة بين أهل المنطقة مسلمين كانوا أو نصارى، مما كان يبدو غريبا للصليبيين في هذا الوقت بل فى وقتنا الحاضر أنه ليبدو كذلك.

تعلم الصليبيون من المسلمين إلى جانب ما ذكرناه، احترام المرأة وعزلها عن الرجال، وبعض الآداب الاجتماعية الأخرى. ومما تجدر الإشارة إليه أنه فى هذه الفترة كتب الكاردينال كبير أساقفة عكا كتابا عن حياة محمد وصفه سويتمان بأنه نسيج من الخرافة إذ يزعم أنه كان هناك قسيس اسمه سويسيو كان قد حرم من الكنيسة، وطرد فقرر أن ينتقم من أبناء دينه فدفع بمحمد لذلك إلى ادعاء النبوة، وأنه كان يوجد تمثال لمحمد بمسجد عمر بن الخطاب وهذه وأمثالها من مولدات خيال مريض، ولا يقبلها عقل مستقيم أو ذوق سليم.

وقبل أن نختم حديثنا عن الحروب الصليبية، طبيعتها وآثارها نؤكد على الحقيقة التالية : لقد كان للمسلمين فضل التقريب بين البلدان الأوروبية المتنازعة واجتماعها على هدف واحد مشترك هو ضرب الإسلام وفل شوكة المسلمين، وهذا التجمع الأوروبى الصليبى كان بلا شك للانتقام من المسلمين لا لتحرير بيت المقدس كما زعموا، ومن الملاحظ لنا فى تاريخ العلاقة الغربية الإسلامية أن

موقف الأوروبيين لم يتغير بالنسبة للإسلام والمسلمين حتى يومنا هذا إلا بمقدار فسخ الشعرة، حتى بعد أن انقسمت أوروبا إلى كاثوليكية وبروتستانتية، بل وبعد انحسار دور الكنيسة فى أوروبا وسيطرة النظام العلمانى واللا دينى على أشكال الحكم فيها .

وهذا فى حد ذاته يفسر الإزدواجية فى الحكم أو الكيل بمكيالين لدى الغرب إذا كان أحد طرفى القضية مسلما. وكانت أوروبا فى نزاع وصراع عرقى وطائفى فيما بينها على نحو مضطرد غالبا. وأن أوروبا لم تعرف التسامح الدينى والاعتراف بقيمة الطرف الآخر، أو الغير إلا بعد احتكاكها بالمسلمين وتعلمها منهم، على سبيل المثال، لا الحصر ففى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا تناصر القاديانيين وتمدهم بالمساعدات المادية والمعنوية لخروجهم من الصف الإسلامى، وتعينهم كذلك على نشر دعوى أن محمدا لم يكن خاتم الأنبياء وللترويج الدينى والسياسى لبقاء انجلترا فى الهند، وربط بقائها بمصالح المسلمين، كانت بريطانيا لا تسمح قط لأى كاثوليكى أن يمارس شعائره الدينية أو يبنى كنيسة على أرضها.

وقد اضطهدت الكنيسة الإنجليزية أعضاء حركة أكسفورد بسبب موقفها المنادى بالتسامح مع الكاثوليك. ومما يدل بوضوح على الصراع النفسى بين أهل الطوائف المسيحية ما يقوله بيد Bede من "أن رسولا سماويا قد هبط إلى الأرض وزار كل غرفة وكل سرير فى أحد دور الرهبنة فوجد جميع الرجال والنساء باستثناء واحد منهم فقط يغطون فى نوم عميق لا فائدة منه، أو هم يظلون أيقاظ ولكن ليس من أجل عمل نافع".

وأخبر القديس بونيفيس كبير أساقفة كانتربرى أنه لا يوجد إلا عدد قليل من المدن فى لومباردى، والغال يعنى فرنسا خال من الزانيات والداعرات الإنجليزيات.

وهذا الكلام بالطبع يسىء إلى الكنيسة الإنجليزية، ويبدو أن مثل هذا التقرير القاسى كان مرتبطا بذهاب الأوروبيين إلى الأرض المقدسة للزيارة.

وربما صدر هذا السلوك المشين عن بعض عامة الشعب الإنجليزى، وللعامة وأهل الطبقات المنحلة مسلكهم القبيح فى أى مجتمع من المجتمعات.

والأمر الذي يبدو واضحا فى تاريخ نمو وتطور العلاقة العربية الغربية أن إقبال المجتمع اللاتينى الأوروبى على تعلم اللغة العربية وعلى ترجمة كتب المسلمين أو انتحالها أحيانا، كان على مستوى محدود وخاص جدا لا يعدو المثقفين المستنيرين، وأن الكنيسة للأسف كانت تتحفظ كثيرا على نمو وتطوير علاقتها بالمسلمين، بل لقد كانت تمنع أو تدين أى عمل علمى يقوم به المثقفون، وتسعى دائما إلي خلق جو من العداء للإسلام والمسلمين، ولم تسمح الكنيسة قط بالتقارب بين المسلمين ونصارى الغرب بل كانت على العكس تسعى إلي وضع العراقيل وإثارة الشبهات حول الإسلام والمسلمين، وذلك بغرض تعميق أسباب الخلاف بينهما.

وفى الحقيقة أن هذا كان هو موقف الكنيسة من كل الأديان المخالفة للنصرانية تقريبا وليس للإسلام وحده، إلا أن موقفها تجاه الإسلام قد اتسم بالحدة والعداوة أكثر من غيره، ولقد اعتبرت الكنيسة الإسلام بصفة خاصة هو العدو التقليدى والقوى للممالك النصرانية، وصورت المسلمين على أنهم أمة متوحشة متربصة بالأمم النصرانية. هذا هو الرأى العام للنصارى اللاتينيين تجاه الإسلام والمسلمين أثناء الحروب الصليبية وما بعدها بصورة عامة.

إلا أن هذه الصورة قد تعدلت أو شذبت بعض الشىء وذلك عندما بدأ الغرب يدرس الإسلام ويتعرف على المسلمين من قرب، وبدأت الكنيسة نفسها تهتم بترجمة القرآن والعلوم والفلسفة الإسلامية إلى اللغة اللاتينية ثم إلى اللغات الأوروبية المختلفة فيما بعد ولكنه ينبغى أن نستحضر فى أذهاننا أن تعرف

رجال الدين المسيحى على الإسلام لم يكن إلا بغرض الدفاع عن المسيحية وحماية النصارى من التأثر بالإسلام فى أوروبا ومحاصرة المد الإسلامى فى أوروبا .

وعلى أى حال فقد بدأت أسماء فلاسفة وعلماء المسلمين كابن سينا والفارابى وابن رشد والغزالى وابن حزم، والحسن بن الهيثم وابن النفيس وغيرهم تلمع فى سماء أوروبا وصارت كتب هؤلاء الأعلام المسلمين تدرس فى الجامعات والأكاديميات الأوروبية لعدة قرون.

الأدب النصرانى المعادى للإسلام

خلال المرحلة الساخنة فى تاريخ الحروب والجدل الدينى بين النصارى والمسلمين فى أسبانيا حاول الشاعر الفرنسى النصرانى تشانون دى رولاند فى أنشودته أن يصور ديانة المسلمين لأبناء دينه بما يتوافق مع وجهة نظره كمسيحى متعصب، لا ما عليه الإسلام بالفعل.

زعم رولاند أن المسلمين يعبدون ثالوثا يتألف من ثلاثة أشخاص، محمد مؤسس دينهم. وشخصان آخران، كل منهما شيطان، أبو اللين وترفاجنت. Apollen & Tervagant . ينظر الشاعر الفرنسى إلى الإسلام وإلى المسلمين من خلال منظوره المسيحى الضيق والخاص جدا، فما دام النصرانى يعبد ثالوثا يتألف من الأب، والابن والروح القدس، ثلاثة أشخاص أو جواهر، أو أشياء متميزة فلابد أن يكون للمسلمين كذلك ثالوثا مختلفا من حيث الأشخاص، ولابد أن يكون محمد ﷺ كعيسى المسيح - عليه السلام - يعبده المسلمون، وهذه وأمثالها من الدعايات الرخيصة أو من دلائل الجهل وضيق الأفق، وسوء فهم طبيعة الدين المخالف، فالتعصب الشديد جدا للدين والانغلاق عليه يدل على الأثر السىء الذى أحدثه هذا الدين أو ذاك فى المتدينين به.

أعطى النصارى للمسلمين أسماء بعيدة عن وصفهم الحقيقى وعن التعبير عن انتمائهم للإسلام، فقد أطلقوا عليهم اسم سراسين، وهذه الكلمة ليس لها أصل لغوى معروف، والغالب أنها تشير إلى أصل عرقى، وليس أصلا دينيا، كما أطلقوا عليهم مورس باعتبار أنهم قدموا إلى أوروبا من مراكش، وفى معظم البلدان الأوروبية سمى المسلمون بالأتراك لأن خلافة المسلمين كانت تتزعمها تركيا آنذاك.

سمى المسلمون كذلك بالتتار باعتبار أن التتار قد حكموا روسيا فترة من

الزمان حتى بعد أن فهمت أوروبا فى العصر الحديث أن الإسلام دين وليس جنسا أو جماعة عرقية فإنهم أطلقوا على المسلمين خطأ عبارة "محمديين" وعلى دينهم محمد نيزم مع أن المسلمين لا ينتسبون إلي محمد انتساب المسيحيين إلى المسيح، وإنهما هو ينتسبون إلى الدين، يعنى الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ ، وبمرور الوقت، وتزايد الاتصال بين المسلمين والمسيحيين، وانتقال الثقافة والحضارة الإسلامية إلي أوروبا، وانتفاع الأوروبيين بها ظهرت حركات الترجمة من العربية إلي اللغات الأوروبية، وقامت من ثم مدارس وهيئات من كنيسة لتعريب العلوم الإسلامية، وعلى رأسها القرآن، وأيضا لدراسة، الإسلام، والتخطيط للرد عليه بطريقة تبدو أكثر عقلانية من مجرد الهجوم الجاهل عليه.

وقد سبقت الإشارة فى هذا الكتاب إلي مدرسة كلونى وبطرس المحترم، وكيتون الذي قام بعمل أول ترجمة لاتينية كاملة للقرآن الكريم سنة ١١٤٣. ومع نهاية القرن التاسع عشر بدأت الدراسات الغربية للإسلام فى أوروبا وأمريكا تأخذ طابعا خاصاً، حيث أنشئت كراسي ومعاهد علمية خاصة بالدراسة العربية والإسلامية، وتبع هذا ظهور مطبوعات وإصدارات مجلات وموسوعات علمية.

كما تأسست جمعيات وأكاديميات متخصصة فى دراسة التراث الأدبى والعلمى للمسلمين والعرب. وإلى جيكوب ريكى يرجع فضل تعرف الغرب بأهمية فهم الإسلام كدين، ودراسته من مصادره بعين الإنصاف، فقد أعلن جيكوب عام ١٧٤٧ "أن هناك أشياء كثيرة عجيبة فى تاريخ الشرق، والتى لا يمكن فهمها بالعقل الإنسانى المجرد. رجل فقير ومكروه، كمحمد ﷺ قد أحرز بفضل تقواه وفضائله المتعددة مثل هذه القوة التى جعلته مقدسا، وذلك لدى قطاع عريض من سكان المعمورة أليس هذا رائعا؟!.

وهذا الشخص نفسه (يعنى محمداً) قد روض أمة متوحشة وشموسا

دون اللجوء إلى استعمال القوة، فقد هذبهم ورباهم، عن طريق مدهم بنماذج خلقية راقية.

لقد أسس (محمد) ديانة استطاعت أن تكتسح المسيحية من الشرق وكأنها أزالتها بمكنسة من على الخريطة، ومن البدائيات الصغيرة والكسر المتناثرة بنى (محمد ﷺ) امبراطورية عظيمة استطاعت فى نصف قرن امبراطورية عظيمة استطاعت في نصف قرن من الزمان أن تضم بلادا أكثر عددا مما ضمته الامبراطورية الرومانية فى ثلاثة قرون بأكملها.

كما هزم (محمد) امبراطوريتين مزدهرتين هما الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية، فقد أزعج وزلزل الأولى، وأزال الأخيرة تماما من الوجود. إن هذا كله لم يحدث دون إرادة إلهية عليا وينبغى أن نعى هذا الدرس من داخلنا، وأن نفسح الطريق ليصل إلى أرواحنا، ويملؤها بالحب والتقدير لديانتنا وهو يزودنا فى نفس الوقت بشعور من الخوف والألم....

وبالاختصار فإن أى إنسان يريد أن يعرف العقائد المختلفة لأى دين من أديان الأمم الأخرى فيما يختص بالله وبالقضايا الإلهية وتاريخ الأديان، أو العادات والقوانين والمبادىء التى تتبناها القبائل أو الدول أو الحكومات بأشكالها المختلفة.

وأى إنسان علاوة على ذلك يستحوذ ويستولى على عقله تاريخ العلوم الطبيعية، والأمراض ومداواتها، أو الرغبة فى ملاحظة شكل الأرض وذلك من خلال تسلسل الحوادث الزمنية، وقيام وسقوط المدن، سوف يجد فى دراسة تاريخ الأمة المحمدية الكفاية والغناء الذى يملأ وقته ويشبع رغبته.

وأى إنسان يستطيع أن يدرك قيمة التاريخ الأدبى سوف يتعجب حقا عندما يعرف كم من الرجال فى الشرق قد طافوا بكل دروب المعرفة وأحاطوا بها.

هذا فى الوقت الذي بدأ فيه عالمنا الأوروبى وكأنه قد لف بظلام ليل دامس من الجهل والبربرية. وسوف يدرك هذا الدارس أيضا مع شعور غامر بالسعادة قيمة ما قدمه كل واحد من هؤلاء الشرقيين لتطوير الثقافة الإنسانية والدفع بها. إن الذى يقف على مثل هذه الأشياء سوف يكون لديه معرفة شاملة وجديرة بالتقدير لأنشطة العقل الإنسانى وللعوامل الأكثر قبولا فى إذكاء الروح.

بهذه الكلمات وضع جيكوب ريك مبدأ دراسة الإسلام من مصادره الإسلامية وذلك فى عام ١٧٤٧م. وكما قرر جوهان فاك فإن الدراسات الإسلامية قد بلغت مرحلة النضج على يد ريك. حتى أنه يمكننا أن نقول إنه من هذا التاريخ يبدأ عصر التنوير فى أوروبا، وقد مهد عصر التنوير بصورة عامة الطريق لظهور دائرة أوسع للاهتمام غير المنحاز بدراسة تاريخ وثقافة الشعوب الإسلامية.

كان الإسلام بالنسبة للشعوب الأوروبية فى العصور الوسطى عبارة عن هرطقة أو بدعة، وأن محمدا، الذي جاء بدين وصفه بالحنيفية السمحة، وهو دين إبراهيم - عليه السلام - ، قد صور من قبل النصارى على أنه كذاب ومزيف، ومتأثر بآراء وأفكار هراطقة اليهود والنصارى.

وهذا رأى الأوروبيين بصفة عامة فى الإسلام وليس يخرج على هذا القول إلا قلة نادرة من العلماء الغربيين الذين حاولوا أن يكونوا أكثر معقولية فى تناول الإسلام فى كتاباتهم. وقد صور جيكوب ريك الأثر الذى أحدثته الفتوحات الإسلامية فى نفوس الأوروبيين وهو "الخوف والألم" إلى أن مثل هذا الشعور تجاه الإسلام لم يمنع مثل هذا الكاتب من أن يكون موضوعيا فى نظرته وتقويمه للإسلام ونبيه ﷺ .

غير أن الموقف الغربى من الإسلام ظل هو هو لم يتغير حتى هذه الأيام فقد عكف كتاب الغرب على تصوير الإسلام بأنه مستمد من اليهودية

والنصرانية وليس أصيلا، وأن محمدا كان شخصا ماكرا عمل من أجل أهداف سياسية.

كما صوروا القرآن على أنه شىء غريب خارج عن المألوف، وأنه خليط من أجزاء متفرقة مأخوذة من التراث اليهودى والنصرانى. وسوف يطالع القارئ أمثلة كثيرة من هذه المزاعم .

الدراسات المبكرة للإسلام
فى قرينة الحروب الدينية

أشرنا فيما سبق إلي القديس بطرس المحترم ومدرسة كلونى وقلنا إن روبرت كيتون قد قام بعمل أول ترجمة للقرآن من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية عام ١١٤٢م.

وقد أمر بطرس المحترم أيضا بترجمة بعض الكتب العربية فى الجدل الدينى والتى ألفها النصارى الأسبان فى الدفاع عن المسيحية والهجوم على الإسلام، والتى كانت فى تناول أيدى الراغبين بمدينة توليدو، وقد أرسل بطرس ترجمات هذه الكتب إلي برنارد كليرفوكس وذلك بغرض استخدامها فى مواجهة فرقة السرسن الشريرة، يعنى المسلمين. وذلك بقوة الكلمة أو النص ومنطلق العقل.

وقد اقتصت فرقة الدومينيكان والفرنسيسكان هذا الأثر منذ القرن الثالث عشر الميلادي ودعا ريموند من مدينة لول، إلي وجوب تعليم المنصرين قواعد اللغة العربية وتدريبهم عليها بصفة مستمرة وذلك حتى يتمكنوا منها. وقد كان ريموند متحمسا لتنصير المسلمين أيما حماس، حتى أنه قتل فى تونس ربما بسبب حماسته المتهورة ١٣١٦م.

لم تضع دعوة ريموند أدراج الرياح بل لقد طبقت وأثمرت بالفعل، إذ ألف فلورنتاين ريكولدو دا مونت كروس، الذي درس اللغة العربية والدين الإسلامى ببغداد عام ١٢٩٠ كتابه Propugnaculum، وقد صحح هذا الكتاب، والذي تميز بطابعه الجدلى أيضا، كثيرا من الأخطاء السابقة حول الإسلام والمسلمين، ومما يدل على أهمية هذا الكتاب الرائد فى مجاله بالنسبة للنصارى ما قام به مارتن لوثر بترجمته إلي اللغة اللاتينية سنة ١٥٤٢م.

إلا أن المصادر الغربية التى كانت تتحدث عن الإسلام كانت لا تزال حتى هذه الفترة ضئيلة كما لاحظ أندرسن، كذلك ظلت ترجمة كيتون للقرآن هى المصدر والأساس الذي بنيت عليه واستمدت منه جميع الترجمات الأوربية اللاحقة وحتى القرن السابع عشر واستمر ذلك حتى عدلت هذه الترجمة فى عام ١٦٩٨م على يد الايطالى لودوفيكو مراكش. فتح العثمانيون منطقة البلقان وآسيا الصغرى فى القرن الخامس عشر.

وفى عام ١٤٥٢ سقطت القسطنينية فى أيدى المسلمين الأتراك وكان لهذا أثره أيضا على العلاقات النصرانية الإسلامية، فلقد ظهر أدب معاد للإسلام وحتى هذا التاريخ كانت المعلومات التى قدمتها أعمال بطرس المحترم تمثل الشريان التاجى للمعرفة الغربية بالإسلام وقد مثلت هذه الكتابات فى نفس الوقت مصدرا للجدلية الغربية ضد هذا الدين.

واستمرت نظرة الغربيين العدائية للمسلمين الأتراك، الذين استولوا على القسطنطينية إلي آماد بعيدة مصورين إياهم أنهم لم يتركوا وراءهم شيئا مقدسا أو طاهرا، يعنى فى الأراضى التى استولوا عليها، هذا ما قاله إينيا سولفيو بيكولومينى والذي صار البابا بيوس الثانى فى خطابه إلى الكاردينال نيوكولاس تحت تأثير هذا الحدث التاريخى الكبير.

وقد نشر ولكان خطابا مهما دعا فيه سيلفيو إلي توحيد الجهود المسيحية لشن هجوم مضاد ضد المسلمين.

وجاء رد الكاردينال على هذا المطلب عقلانيا ومتسامحا، وهو رد فى الحقيقة يستوجب الاحترام، يقول متخليا – وربما لأول مرة – عن اللهجة الجدلية الهجومية السائدة فى الخطاب المسيحى آنذاك :"أما بالنسبة إلي كتاب محمد (يقصد القرآن) فإنه من وجهة نظر إنجيل المسيح، يضم بعض المعلومات التى

من خلالها يمكن أن تتأكد صحة الإنجيل، هذا إذا كان الإنجيل فى حاجة إلى شهادة أخرى من خارجه تعزز صحته". وذهب الكاردينال نيوكولس إلي أن كل الديانات لديها قسط من الحقيقة المطلقة للدين الواحد".

إن أوروبا قد ارتبطت تجاريا بالمنطقة العربية وذلك عن طريق تجارتها مع الهند إذ كانت تمر عبر المنطقة العربية فى طريقها إلي الهند والشرق الأقصى.

وبالرغم من أن هذه الطرق التى كانت تستخدمها الدول الأوروبية لأغراض تجارية كانت دائما محفوفة بالمخاطر والصعوبات، فإنها قد فقدت كثيرا من أهميتها ابتداء من القرن الثالث عشر، وذلك بعد اكتشاف طرق أخرى بديلة عنها وذلك عبر روسيا ووسط آسيا، وكذلك اكتشاف أمريكا والطريق البحرى المؤدى إلى الهند قد شكلا خطرا كليا تقريبا على الرحلات التجارية الأوروبية عبر الشرق الإسلامى.

بالرغم من هذا كله فإن الصلات الأوروبية العربية الإسلامية لم تتوقف إذ لم يمض وقت طويل حتى وجدت أوروبا نفسها مضطرة إلى إنشاء علاقات قوية مع العالم الإسلامى فى ظل حكم سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) وخليفته سليمان حيث برزت دولة الخلافة العثمانية كقوة جديدة في الشرق الأدنى.

فقد هددوا دول البلقان فى عام ١٥٢٩، كما وقف الأتراك المسلمون على أبواب فيينا. وفى نفس السنة أرسل تشارلز الخامس بعثة دبلوماسية لإيران يطلب مساعدتها على أمل أن يدخل مع الشاه الصفوى فى حلف ضد الدولة العثمانية. وفى نفس الوقت دخل منافسه فرايكوسن الأول حاكم فرنسا فى مفاوضات ناجحة مع الأتراك، وقد حملت هذه المفاوضات نتائج سياسية ونتائج أخرى ربما كانت أطول مدى وأشد أثرا من غيرها.

فى عام ١٥٤٣ أرسل الملك بعثة إلي الباب العالى بالأستانة على رأسها

العالم جيولوم بوستل. وقد اشترى هذا العالم الغربى بعض المخطوطات العربية وأحضرها معه بالإضافة إلي كتاب في قواعد اللغة العربية.

كما نشر كتابا فى وصف جمهورية الأتراك ثم جاء تلميذه يوسف إسكاليجر (١٥٤٩ - ١٦٠٩) فكتب جدولا زمنيا للأحداث التاريخية بحسب المصادر المتاحة فى هذا الوقت، بما فيها الأعمال الاستشراقية، وقد تضمن هذا الجدول أيضا التقويم الإسلامى. أورد إسكاليجز هذه المعلومات فى كتابة الضخم De emendatione temporum الذى نشره فى عام ١٥٨٣.

وفى هذه القرينة ينبغى ألا نغفل الإشارة إلى كتاب النحو العربى الذي أصدره بوستلوس. إما فى عام ١٥٣٨ أو ١٥٣٩، وإن كان هذا الكتاب يعد فقيرا فى قيمته من وجهة نظر بروخمان وشرودر بالاضافة إلي هذا العمل الرائد فإن المخطوطات التى حملها بوستال معه قد وصلت إلى مكتبة أمير البلاد الملكى إن هيد يلبرج وقد أثرت هذه المخطوطات بالفعل فى الدراسات الإسلامية بألمانيا وهولندا. وتلقفت هولندا هذه المخطوطات وسارعت فى المضى نحو تأسيس دراسات إسلامية وعربية أكثر عمقا، وأكثر تقدما من البلدان الأوربية الأخرى.

وقد ساهم علماء هولنديون أعلام فى هذه النهضة العلمية الجديدة فى هولندا مثل تومات إربينياس (١٥٨٤ -١٦٢٤)، الذي قام بترجمة ودراسة بعض أمهات الكتب العربية كتاريخ الطبرى وغيره. وأنشئ من ثَمَّ كرسى للدراسات العربية فى جامعة ليدن ليشغله إربنياس ثم تلميذه جاكوباس جولياس (١٥٩٦ - ١٦٦٧) فيما بعد.

ألف جولياس قاموسا عربيا لاتينيا سنة ١٦٥٣ استمر قرابة المائتى عام المرجع الوحيد المعتمد في دراسة اللغة العربية.

وفى حوالى عام ١٦٠٩ مثل تلامذة جولياس بلادهم لدى البلاط العثمانى. وقد أهدوا عند عودتهم حوالى الألف مخطوط لمكتبة جامعة ليدن. وبهذا برزت جامعة ليدن من بين الجامعات الأوروبية فى مجال الدراسات العربية وسبقت إلى حيازة أكبر عدد من المخطوطات العربية المهمة، وسبقت فى هذا المضمار بكثير مكتبتى الأسكوريال والفاتيكان، واللتين لم تظهرا فى هذا المجال إلا فى القرن الثامن عشر. وحتى المكتبة الوطنية فى باريس لم يكن لها شأن يذكر إلا فى حدود القرن التاسع عشر.

هذا ولم يصل مستوى هذه المكتبة إلي ما هى عليه اليوم إلا بعد أن توسعت فرنسا فى عدد أعضاء بعثاتها الدبلوماسية وكذلك فى عدد العاملين رسميا فى حكومة الاستعمار، وكذلك العلماء والباحثين والرحالة. وأما بالنسبة للندن وبرلين فقد بدأتا فى جمع المخطوطات العربية مؤخرا بالمقارنة إلي هولندا إذ أنهما بدأتا هذا العمل خلال القرن العشرين فقط.

ولأهمية هولندا فى العلاقات العلمية والتاريخية مع المسلمين والعرب نلقي هنا بعض الضوء على دور هذا البلد العريق فى الدراسات الإسلامية والعربية.

عرفت مطبعة ليدن الحروف العربية عام ١٥٩٥ تقريبا، وصنف رافلنخيوس معجما عربيا، نشر بعد وفاته. وسرعان ما ظهر معجم خوليوس بعده ليأخذ مكانه على خريطة الأعمال الأوروبية حول الإسلام.

وكان أول من عين بتدريس اللغة العربية فى هولندا هو اليهودى المتنصر فرديناندوس وهو ينحدر من أصل بولندى وكان تعيينه فى السادس من نوفمبر ١٥٩٩م ولمدة ثلاث سنوات فقط.

وكان أول أستاذ لكرسى الدراسات العربية بلندن هو سكاليخر سنة ١٥٩٣ علما بأن كرسى اللغة العربية لم ينشأ فى أكسفورد إلا فى عام ١٦٣٠ وفى كمبردج فى عام ١٦٣٢.

وقد أثبت سكاليخر جدارة فى مجال الدراسات العربية جعلته بحق جديرا بلقب "أمين المستعربين" وهذا اللقب أطلقه عليه المستعرب الهولندى الشاب توماس فان أربينوس وذلك فى المقدمة التى صدر بها طبعته لمجموعة مائتى مثل عربى تركها سكاليخر لمكتبة ليدن.

ولا يقل عن هذا أهمية أن نذكر أن الاستاذ جوبيلموس بوستلوس كان يلقب أيضا بـ "مفسر الرياضيات والآداب الأجنبية".

وقد ألف سكاليخر كتابيه "إصلاح التقويم، والنجوم الذي ذيله بملحق حول أسماء النجوم فى اللغة العربية.

وقد أتم أربنيوس دراساته بليدن فى شهر يولية ١٦٠٨ ثم رحل إلى بريطانيا والتقى بتوماس بدويل، وهو منشىء الدراسات العربية هناك، ويقال إن الأخير كان قد بعث إلي أربنيوس أثناء وجوده فى باريس بثلاث سور من القرآن مع تفسير لها بقلمه، ومعنى هذا أن أربنيوس كان يجيد العربية، وإن كان بعض الباحثين يرى أنه درس العربية بجدية فى فرنسا على يد مسيحى مصرى، أسماه هو نفسه، يوسف ابن أبى ذقن، الذى يقال إنه كتب فى التاريخ القبطى أثناء تجواله فى أوروبا، والواضح أن يوسف هذا قلم علم أربنيوس اللهجة العامية المصرية أكثر من اللغة العربية الفصحى.

وفى عام ١٦١٢ عين أربنيوس أستاذا لكرسى اللغة العربية بليدن. وعلى قائمة أساتذة اللغة العربية من الهولنديين يأتى بان تونس وكان يعمل مشرفا على خان الموسيقى بأمستردام، ويقال إنه قد تعلم فى هذا الخان اللغة العربية حيث كان يلتقطها من نزلائه المراكشيين إلا أنه من الثابت أنه قد سجل اسمه ضمن طلاب اللغة العربية المسلمين عام ١٥٩٣ وأنه تعلم بعض مبادئ العربية على فرانسيسكوس رافلنخيوس، كما تبين من طلبه المقدم إلى جامعة ليدن.

وقد رأى رافلنخيوس أن دراسة العربية تعد جوهرية بالنسبة لعلم الرياضيات، وذلك ليس لأن العرب كانوا قد احتفظوا بمتون يمكن أن تملأ الثغرات فى معرفتنا بكتب الإغريق فى الرياضيات فحسب، كما ساق أربنيوس فى حججه التى أدلى بها فى محاضرته الافتتاحية سنة ١٦١٣، بل لأن العرب قد أسهموا إسهاما أصيلا فى هذا العلم.

وقد أشرنا من قبل إلى المعجم العربى اللاتينى الذي نشره خوليوس عام ١٦٥٤ وظل العمدة فى بابه على مدى القرن الثامن عشر وشطرا من القرن التاسع عشر. وقد جمع خوليوس طائفة كبيرة من المخطوطات العربية كما قدم ترجمة لاتينية لمقالة لابن الهيثم فى استخراج ارتفاع القطب.

وبالإضافة إلي أن اللغة العربية كانت هى الأداة الموصلة إلي الحكمة والعلوم الإسلامية فإن الهولنديين قد أدركوا أنها ضرورية أيضا لتفهم اللغات الشرقية الأخرى، وفى ترجمة الأسفار المقدسة من العبرية إلى اللاتينية إذ لكى يفهم نص الكتاب المقدس فإنه لابد من التمكن من اللغة العربية، وذلك كما جاء في افتتاحية محاضرة أربنيوس.

وينبغى أن نؤكد على نقطة مهمة وهى أن القول بضرورة الاستعانة باللغة العربية على فهم اللغات الشرقية الأخرى وعلى الفهم الأعمق للكتاب المقدس قد سبق أربنيوس بوقت طويل إذ قد نادى به كلينتاردوس ١٥٤٢م وكان ده ديو مقتنعا تماما بأن الصلة بين هذه اللغات الشرقية قد بلغت من القوة ما يحملنا على القول بأنها تعتبر بنات لأم واحدة، وعضوات فى أسرة واحدة. وقد سبق علماء العرب فى تقرير هذه الحقيقة وتوصل إليها الغرب عن طريق الدراسات اللغوية المقارنة فيما بعد.

أما عن الصلة بين التبشير وبين اهتمام هولندا باللغة العربية، فإنها لم تكن واضحة حتى الآن بنفس الدرجة إذ أننا لا نجد ما يشجعنا على دعوى أن

هولندا قد اهتمت باللغة العربية لغرض تبشيرى فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخ اتصالها بالإسلام.

ومن الجدير بالذكر أن عالمى العربية الهولنديين أربنيوس وخوليوس لم يكونا مبالين إلي تفهم الإسلام كحقيقة دينية. أو كمنهج إلهى، وإن كان أربنيوس قد أظهر ميلا على نحو ما للإسلام إذ أنه لم يخف إعجابه وتأثره بجمال الأسلوب القرآنى، وقد أعجبه أيضا فى الإسلام كثرة علماء الكلام المسلمين إذ أن وجودهم هذا فيه دلالة على حرية التفكير فى الإسلام، هذا بالرغم من أن أغلبيتهم ينكرون ألوهية المسيح وصلبه. وفى الحقيقة أن كل علماء المسلمين ينكرون ألوهية المسيح وصلبه بلا استثناء لأن ذلك من صلب عقيدتهم الدينية.

ابتداء من هذا التاريخ سوف نلاحظ طرف الخيط التنصيرى يظهر ضمن نسيج الاهتمام الغربى بدراسة اللغة العربية وفى هولندا بالذات فقد أبرز أربنيوس فى ختام محاضرته المشار إليها آنفا، إلي الحافز التبشيرى لدراسة اللغة العربية يقول : "فلنعد الآن إلى هذه اللغة، لأن التمكن منها مفيد للمسيحيين، بل هو ضرورى ليرد إلي المسيحية جملة كبيرة من الشعوب العظيمة.."

ثم ينادى نفس الكاتب إلي قرار تعيين أساتذة لغة عربية فى الجامعات الغربية الكبرى. من هذه الفقرة تظهر إذًا الدعوة إلي ربط التنصير بتعلم اللغة العربية، والربط بين تعلم اللغة العربية والتنصير يظهر أكثر وأكثر وذلك كلما أسرعت عجلة التنصير فى الدوران فقد رأى أربنيوس أن تعلم العربية من أجل تنصير المسلمين هو الأهم فى تعليل الاهتمام الغربى، والهولندى بصفة خاصة بهذه اللغة.

تجلى ذلك فى طبعته للترجمات العربية للعهد الجديد عام ١٦١٦ والأسفار الخمسة المنسوبة لموسى - عليه السلام - فى عام ١٦٢٢. بل ربما طبعت هذه

الكتب أولا وقبل كل شيء بغرض نشر المسيحية بين سكان الهند الشرقية أو "القوم الذين عميت أبصارهم" كما ورد فى قرار مجلس الأمناء بمناسبة تعيين فرديناندوس.

والواضح كما يقول بروخمان وشرودر أن نسخا من هذه الترجمات قد أهديت إلي علماء مشارقة بارزين مما أقلق مكتب التنصير فى روما والذي خشى أن تؤدى هذه الطريقة غير المباشرة فى التنصير إلي بلوغ النسخة البروتستانتية من كلمة الله" (كما هو تعبيرهم) إلي الأراضي الإسلامية قبل النسخ الكاثوليكية.

وهذا يعكس الصراع بين الكاثوليكية والبروتستانتية. ومن مقتضيات الإنصاف أن نقرر أن هناك غموضا يحتوى نزعة أربنيوس التنصيرية فهو نفسه لم ينص على الغرض التنصيرى من وراء طبعاته للكتاب المقدس إلي اللغة العربية، ولم ينص على شيء في مقدمة هذه الأعمال بخصوص التنصير كذلك.

بل لقد قيل إنه ومن خلال افتتاحية محاضرته المشار إليها سابقا والتى ألقاها عام ١٦١٣م كان متسامحا جدا إلى درجة أن روما الكاثوليكية كانت تطمع فى اجتذابه جدا إلى المذهب الكاثوليكى وتحويله عن البروتستانتية وعن كرسى اللغة العربية بهولندا.

وفى ترجمته للسورة رقم ٢٢ من القرآن أعلن أربنيوس عزمه على ترجمة القرآن كله إلى اللغة اللاتينية.

وقد دارت برأس خليوس خليفة أربنيوس فكرة تشبه تلك الفكرة، إذ قد رأى أن يترجم القرآن مع تعليق له عليه يرد فيه على أخطاء القرآن كما توهمها. ومما يذكر أن هذا الرجل كان سئ الفهم للإسلام شديد الكراهية له والتعصب ضده. وكان خوليوس معنيا بكتابة رد آخر على الإسلام، وذلك بعد هذا الكلام

الذى نشره فى مقدمة طبعته ابن عرب شاه، ونادى فيه بضرورة تعريف العالم المسيحى بأخطاء وخرافات الإسلام والمسلمين والرد الذى كان يخطط خوليوس لترجمته إلي اللاتينية كتبه يوحنا أندرياس.

وكان القصد من ترجمة هذا الرد المسيحى على الإسلام هو معالجة "الجرح الذى أحدثه الإسلام" وتجنيب الطلبة الهولنديين الوقوع فى "فخاخ الزندقة الإسلامة" وكان المقصود بهذه الترجمات هم نصارى الشرق الأوسط المتحدثين بالعربية، والذين نجوا من الطوفان الإسلامى". وفى نفس الوقت فقد كانت هذه الترجمات موجهة ضد الكاثوليكية التى كانت تعمل فى أوساط مسيحيى الشرق، وكان من الطبيعى أن يحدث مثل هذا العمل قلقا شديدا بين الكاثوليك فى أوروبا .

وإذا كنا نلاحظ أن النزعة إلى التنصير لم تكن فى البداية مسيطرة على أنشطة المستشرقين الهولنديين فإن ذلك ليس معناه أن هولندا كانت بعيدة عن هذا المجال، كلا فإننا قد ذكرنا على سبيل المثال أن خطة خروتيوس كانت ترمى إلي "إقناع الكفار واليهود والمسلمين بالصدق المنجى ومد حدود المسيحية إلى بقاع أخرى . وفى " دليل الديانة الصحيحة" كتب خروبتوس رسالة شعرية يرد بها على الإسلام.

وقد نص فوتيوس من علماء الكلام واللغة العربية فى أوترخت على فائدة تعليم اللغة العربية للطلبة الذين قد يرحلون إلى جزر الهند الشرقية للعمل كمنصرين.

وقد ذكر رافيوس أن من المراحل التسع للدراسات الشرقية :"أننا نهيئ المسلمين، والصينيين جميعا للعقيدة المسيحية التى لا يكون الخلاص إلا فى نطاقها، وكان مما ذكر فيه رافيوس الألمانى أيضا إنشاء مركز للتنصير ليس فى هولندا بل فى كييل بألمانيا".

ومن فوائد تعلم اللغة العربية التى عدها أربنيوس في افتتاحية محاضرته المشار إليها سلفا، أن كل من يعرف هذه اللغة يستطيع أن يجوب كل أرجاء آسيا وأفريقيا تقريبا.

وعدد هذا العالم الهولندى البلدان الناطقة باللغة العربية فى هذه القارات ثم قال : "ومن العسير أن نجد أمة أو مدينة أو قرية، بل وبيتا دون أن نجد فيه أناسا يعرفون العربية، وذلك لأن كثيرا من القوم يحرصون على أن يتعلم أطفالهم – تعليما جيدا– الأدب العربى حتى لا يقتصر ما يفهمونه على القرآن، الذى يفترض فى كل شخص أن يقرأه بل يتعدى الفهم للقرآن إلى الكتابات الأخرى رسمية وخاصة. وقد روى على أن كتابة مواثيق الأمراء والعقود وأعمال الرجال البارزين وغيرهم من جمهور الشعب كانت بهذه اللغة.

وفى هذا الوقت كان النشاط العلمى واسعا فى مجال جمع المخطوطات العربية ودراستها أو ترجمتها، وأيضا كانت الوفود والبعثات مستمرة بين هولندا والبلاد العربية أو الإسلامية مما عزز الصلات الفكرية والدبلوماسية بينهما. ومهما كانت دوافع هذه الدراسة أو تلك البعثات فإنها قد ساعدت بلا شك على توثيق العلاقات وتقوية الصلات بين المسلمين والنصارى فى الغرب.

الدراسات الإسلامية الأقرب
إلي الموضوعية فى الغرب

بدأت الكتابات الغربية ومشاهدات الرحالة الغربيين فى بلدان العالم الإسلامى تظهر فى الغرب بطريقة ملحوظة، وقد اقتصرت اهتمامات الغربيين بالإسلام فى البداية على القرآن واللغة العربية وآدابها، وكان هذا الاهتمام مرتبطا بأقسام الدراسات اللاهوتية ودراسات اللغات السامية. واتجهت حركة الإصلاح فى أوروبا إلي دراسة الكتاب المقدس فى نسخته العربية، وقد توجهت أنظار بعض الباحثين فى مجال نصوص الكتاب المقدس صوب اللغة العربية وذلك للاستعانة بها على فهم بعض العبارات العربية فى هذا الكتاب.

وكان من أوائل هؤلاء توماس بدويل (١٥٦٣ - ١٦٣٢) في جامعة كمبردج وكان بدويل أول من قدم دراسة اللغة العربية للمجتمع الإنجليزى، ثم سارت خطى بعض العلماء فى هذا الاتجاه، ولم تتوقف وكان أن جلس العالم اللاهوتى إدوارد بوكوك (١٦٠٤ -١٦٩١) على أول كرسى للدراسات العربية بجامعة اكسفورد وإلي هذا الرجل يرجع تعريف الغربيين بالتاريخ الجاهلى للعرب وبعلم الكلام الإسلامى.

وذلك من خلال كتابه Specimen Historae Arabum والذي نشره فى عام ١٦٥٠م وغير ذلك من كتاباته الرائدة فى هذا المجال.

ومع نهاية القرن السابع عشر بدأت الدولة التركية تضعف بشكل ملحوظ جدا، فقد أجهضت محاولة دخول فيينا فى عام ١٦٨٣م وبدأت أوروبا على أثر ذلك تنتعش وتدخل فى تحد مباشر مع المسلمين، وفى هذه الأثناء أيضا كان ما يسمى عصر التنوير قد بدأ فى فرنسا مما فتح الطريق أمام دراسة أكثر جدية وعمقا لعالم الشرق.

وقد اهتم فريق من العلماء اهتماما كبيرا بقارة آسيا بالذات وشجع على الدراسة العلمية فى هذا الصدد، وعندما كتب برثلومى دى هيربلوت ١٦٢٥ - ١٦٩٩ موسوعته استقى من العربية والفارسية والتركية المادة العلمية لهذه الموسوعة والتى ظهرت بعد وفاته عام ١٦٩٧ .

وفى أول موسوعة في تاريخ وثقافة الشعوب الإسلامية وفى التاريخ للمؤلفين المسلمين والإشارة إلى الكتب العلمية فى هذه اللغات. ولقد مثلت هذه الموسوعة حجر الرحى فى الدراسات الاستشراقية وعلى مدى فترة زمنية طويلة، بعد عقدين من الزمان ظهرت ترجمة ألف ليلة وليلة لـ أنتوين جلاند والتى لم تلبث أن تُرجمت إلى اللغات الإنجليزية والألمانية والفرنسية، وقد استقبلت ألف ليلة وليلة فى هذه اللغات بحفاوة شديدة إلى درجة أنها وإلي حد كبير، شكلت صورة الرجل الشرقى أو المسلم العربى فى أذهان الغربيين.

وفى عصر التنوير، ظهرت الدعوة أيضا بين الغربيين إلى ضرورة النظر إلي محمد ﷺ والقرآن بنظرة أكثر موضوعية، وقد احترمت، بلا شك هذه الدعوة، وكاستجابة لها ظهر كتاب De Religion Mohammedica1705 لمؤلفه المستشرق Adrinus Rebndus الذى تخلص فيه من الأخطاء القديمة، كما يحكى جيرهارد إندرس، ثم جاءت ترجمة سيل لمعانى القرآن عام ١٧٣٤ أكثر موضوعية ووضوحا، وإن كانت لا تخلو من الأخطاء.

وإلي جيكوب ريسك (١٧١٦ -١٧٧٤م) يرجع الفضل فى جعل الدراسات العربية فى أوروبا مستقلة بنفسها عن العلوم الأخرى، ولأول مرة كما مر بنا فى قرينة الحديث عن الدراسات العربية فى هولندا، ولكننا ينبغى أن نتذكر أن ريسك قد ترجم تاريخ أبى الفداء بن كثير إلي اللغة اللاتينية، ولكنه لم يجد للأسف فى هذا الوقت من يشتريه عندما ظهر الجزء الأول منه، مما تسبب فى عدم نشر بقية الأجزاء الأخرى وقد استطاع هذا المستشرق الكبير أن يؤلف

كما كبيرا من الكتب فى الشعر والأمثال والطب العربى، ومن أهم ما قدمه ريسك للقارىء الغربى تفسيره للتاريخ الإسلامى على أنه أمثلة أو حلقة من التاريخ الكونى، والذى كان بحق سابقا لزمانه.

وكما يقول إندرس أن ذاكرة تاريخ البحث العلمى فى الغرب تحتفظ بريسك كشهيد للأدب العربى ومما يدل على سمو مكانة هذا الرجل فى مجال دراسة العلوم العربية والإسلامية، أن الدراسات العربية قد انحطت بعد وفاته، ولم تعد إلي مكانتها السابقة إلا مع مطلع الثورة الفرنسية التى غيرت وجه العالم كما يقال عنها، فجددت روح البحث العلمى وأقبلت أكثر على الدراسات الإسلاميةوالعربية.

وعلى قائمة الدراسات العربية والإسلامية فى الغرب يظهر بوضوح اسم كرستن نيوبهر (١٧٣٣ - ١٨١٥م)، فقد قام هذا الرجل برحلة غير موفقة للمنطقة العربية قام بتمويلها ملك الدنمارك.

وفرانكويس فولنى الذي أمضى السنوات من ١٧٨٣ إلى ١٧٨٦ فى مصر وسوريا ودون ملحوظاته بشأن المجتمع العربى، والنظام الاقتصادى الذى كان سائدا فيه تحت الحكم العثمانى، وكان تشخيص هذا الكاتب لأسباب سقوط الاقتصاد والثقافة العربيتين على أنها تكمن في أسلوب الاستبداد الشرقى فى الحكم Drienal Despotism والمدعم بالقدرية أو الاستسلامية الإسلامية. وهذا الحكم ظل يشكل رأى المؤرخين الغربيين فى الإسلام لوقت طويل.

ظهور الدراسات
اللغوية الشرقية فى الغرب

نحن الآن مقبلون على ملاحظة كلمة "استشراق" متى ظهرت وإلى أى شىء أشارت هذه الكلمة.

ظهرت كلمة المستشرق Orentalism موضوع مقال بقاموس

Dictionnaire de Jacademie Francaise

ومما ينبغى معرفته أن كلمة "الاستشراق" قد استعلمت في البداية فى الدلالة على دراسة الشرق من جميع أطرافه، الشرق الأدنى، والشرق الأقصى. وبالطبع تطورت الكلمة بحيث تتسع للتعبير عن دراسة ديانات وعلوم ومعارف وتراث الشرق كله، من أقصاه إلى أقصاه ولكن الكلمة ارتبطت عندنا بدراسة البلدان العربية والإسلامية بوجه خاص، وقد تستعمل كلمة Arabist فى الإشارة إلى دارس العلوم العربية بخاصة.

بعد ذلك ظهرت الأكاديميات والأقسام المتخصصة فى الاستشراق وظهرت كذلك الجمعيات العلمية لذات الغرض، وعلى سبيل المثال مدرسة اللغات الشرقية التى تأسست فى فرنسا فى عام ١٨٩٥م، كما ظهر جيل من الأوروبيين الذين تخصصوا فى العلوم العربية والإسلامية المختلفة وفى عام ١٧٨٤م تأسست فى كلكتا بالهند الجمعية الآسيوية للبنغال، والتى لم تقتصر على دراسة الحضارة الهندية فحسب بل شملت أيضا دراسة الثقافة الإسلامية بالهند. ونشر يوسف فون همر يورجتال (١٧٧٤ -١٨٥٦) فى فيينا جرنالا علميا متخصصا بعنوان : Fundgiuben des Orients وذلك في الفترة ما بين ١٨٠٩ - ١٨١٨م.

وفى عام ١٧٥٤ أسست أكاديمية فيينا، وتأسست الجمعية الآسيوية بباريس عام ١٨٢١، والجمعية الملكية الآسيوية بالمملكة المتحدة وأيرلندا بعد ذلك، فى عام ١٨٣٤. ثم تبعتها الجمعية الاستشراقية الأمريكية في عام ١٨٤٢ ومثيلتها فى هولندا فى عام ١٨٤٥.

وما أن نصل إلى منتصف القرن التاسع عشر حتى نجد أن الدراسات الاستشراقية قد بلغت الذروة فى شتى صنوف المعرفة الشرقية والإسلامية منها بخاصة، ومن هذا المنطلق ظهرت الأعمال الاستشراقية الكبيرة، كالموسوعات، والمعاجم والكتب المحققة، وأمهات كتب التراث، وسوف تظهر كذلك أسماء كبار المستشرقين المبدعين الذين أثروا الدراسات الاستشراقية، وأطلعوا شعوبهم على أسرار وإبداعات الشعوب الشرقية، ونقلوا فى نفس الوقت وجهات نظر شعوبهم إلي عوالم ما وراء البحار.

نذكر على سبيل المثال لا الحصر: حوستاف ويل، لويس اسبرنجر، وليام مور، نولدكه (١٨٦٠). فريدريك أسكواللى (١٩٠٩ - ١٩١٩). الفريد فون كريمر. فيرديناند وستينفيلد (١٨٠٨ -١٨٩٩م) وكارل جوهان تومبرج، مايكل أمارى (١٨٠٦ - ١٨٨٩) جولياس ويلهاوسن. ليون كاتنى. استانلى لين بول وكارل بروكلمان، وجولد زيمر (١٨٥٠ - ١٩٢١) وريتشارد هارتمان. وماكس ويبر.

وإلى مثل هؤلاء العمالقة من المستشرقين يرجع فضل إخراج الموسوعة الإسلامية، والتى بدئ فى تجميعها بالفعل بعد قرار مؤتمر المستشرقين المنعقد فى جنيف عام ١٨٩٤ وذلك بواسطة جولد زيمر ودى جوجى وكارباسيك.

وقد ظهرت هذه الموسوعة المهمة فى عام ١٩٠٨م ثم ظهرت فى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا تباعا، وقد تعاون على كتابتها حوالى مائة مستشرق واستغرقت كتابتها حوالى الثلاثين عاما، ثم صدر لها ملحق فى عام ١٩٣٨.

ومن الجدير بالذكر أن المنظمة الإسلامية للعلوم والثقافة والتربية إسسكو تقوم بإعداد مشروع للرد على الأخطاء الواردة، بدراسة آراء المستشرقين فى هذه الموسوعة والرد عليها بما يتصل بالمدخل الخاص بالقرآن الكريم.

استمر اهتمام الغرب بالدراسات الإسلامية والعربية، وظل هذا الاهتمام فى ازدياد مضطرد وتوسع دائم، وقد لفت اهتمام المستشرقين بالإسلام واللغة العربية أيضا المسلمين والعرب. فاعتنوا بإبراز أعمال المستشرقين وإعادة طباعتها والرد عليها أحيانا، وقد تفاعل بعض المثقفين المسلمين مع المنهج الغربى فى البحث العلمى بل وربما أيضا فى النتائج التى توصلوا إليها إلى درجة أن بعض مفكرى المسلمين المحدثين قد قبل بعضها، هذا بالرغم مما فيها من ضعف وتخلخل وعدم إنصاف كذلك فى كثير من الموضوعات.

وقد أطلق الباحثون على القرن السابع عشر العصر الذهبى لهولندا إذ بلغت فى الدراسات العربية والإسلامية شأوا بعيدا مع التميز الواضح بالتسامح الدينى ومنح الحرية الدينية، مما جعل هولندا بحق أشبه بالمستراح أو الملجأ الآمن للمضطهدين دينيا ومذهبيا، من البروتستانت ومن المفكرين الآخرين كذلك فقد أقام بايل وديكارت الفرنسيان وكذلك لوك الإنجليزى فى نيولاند، هولندا. وفى هذا القرن تغنى بايل بفضائل التسامح الإسلامى فى معجمه التاريخى النقدى المطبوع فى روتردام فى عام ١٦٩٧.

مما يدل على أن حصار الأتراك لفيينا لم يؤثر على هذا الكاتب الفرنسى. وقد صدرت أول ترجمة هولندية لمعانى القرآن سنة ١٦٤١، كما ظهرت ترجمة أخرى له فى عام ١٦٥٨.

وأعيد طبع هذه الترجمة الأخيرة سبع مرات فى السنوات الثمانين التالية وقد تميز هذا العصر بالتسامح والاستنارة والميل إلى الموضوعية فى الكتابة واختيار الأصلح علميا لذاته. وقد ألف أدريانريلاند (١٦٧٦ - ١٧١٨) كتابا فى

الديانة المحمدية عام ١٧٠٥ وفى هذا الكتاب عرض ريلاند مزايا الإسلام، مستنكرا الأحكام السابقة والمجحفة عليه، فهو ينكر على القائلين مثلا بأن ما جاء فى الإسلام عن صفات الله مما هو مطابق للحق يجب رده وعدم الأخذ به.

ويعتبر الكاتب أن هذا القول ينافى العقل، بل إن مترجم هذا الكتاب إلي اللغة الفرنسية يقول : فى صيغة تسائل "وماذا بعد؟ أينبئنا هؤلاء القوم (أى المسلمين) بأمور غاية فى الإبداع والجمال عن الكمال الإلهى، ثم يقتضينا الأمر أن ننكر ما يقولون، ونطمث الحقائق الكبرى لدين الفطرة ودين الوحى؟ أين المرء ذو الحجى الذي يسلم لهم بذلك". أى يسلم بهذه الحقائق الكبرى! إن الحجج التى ساقها بريدو لإنكار محمد والمعتقدين بالله وحده يبدو أنها قول معكوس.

ومن الواضح لنا أنه بهذه الكلمات قد فتح واضع الكتاب ومترجمه معا الباب أمام الأوروبيين لإزالة الخلافات والألغام بين المسلمين والنصارى من أجل إقامة حياة أكثر انسجاما واستنارة.

فى أوائل القرن الثامن عشر افتتحت أقسام أخرى للغة العربية فى هولندا، على الأقل فى خمس جامعات هولندية إيمانا من هولندا التجارية الكلفينية فى أن العلم يزيد فى تمجيد الله كما يقول بروخمان وشرودر.

وفى هذا العصر ترجم كتاب حى بن يقظان لابن طفيل الأندلسى (٤٩٦ هـ - ٥٨١ هـ، ١١٠٠م - ١١٨٥م) ونسبت الترجمة خطأ إلي الفيلسوف المعروف سبينوز . لقد هاجم ريلاند فى كتابه الديانة المحمدية بدعوى التعصب الدينى والتطرف فى المواقف ضد الآخرين وفى سبيل حديثه عن الإسلام كدين وعن الأديان المخالفة للنصرانية يقول : "إنهم كانوا يعدون قتلة للبشر، يضاجعون المحارم، ويدنسون المقدسات، كما كانوا أعداء للجنس البشرى: يقترفون جميع الجرائم.

ومن ثم فهم أعداء للآلهة والقياصرة كافة، أعداء للأخلاق وكل ما فطرنا عليه، ومن ثم فإن وصف المرء بالمسيحية كان كافيا لرميه بالإثم، وحسب المسيحى نعته بهذا النعت حتى يرمى بالتهم". ويستمر ريلاند قائلا :"إن البروتستانت لم يكونوا يعاملون معاملة أفضل من هذه على يد أتباع البابوات، وشاهد ذلك أن جينييرادوس لا يتردد فى التأكيد بأن مارتن لوثر سوف يجلب مملكة محمد إلي المنطقة، وأن قساوسته وشيعته قد تنافسوا بالفعل فيما بينهم على الارتداد إلى دين محمد".

وينقل إلينا ريلاند أيضا قول فيفالدو : "إن البروتستانت والمسلمين سواء" وهو يحتج بأن هذا الضرب من التدليل خليق بأن يجعل المسيحيين كافة مسلمين. ويقول لنا فى موضع آخر ولو أن دينا قد صوره أعداؤه تصويرا سيئا ونظروا إليه نظرة ازدراء، وعدوه غير جدير بالدحض والتفنيد – لكان هذا الدين حقا (هو الإسلام)، وكل امرئ يود أن ينعت عقيدة كريهة ممجوجة بنعت مناسب يسميها المحمدية، كأنما لا يوجد شيء سليم خالص فى عقيدة محمد". وقد مرت بنا مثل هذه الأقوال الشريرة تجاه الإسلام .

على أنه لابد أن يكون واضحا فى أذهاننا أن ريلاند لا يصدر فيما قاله عن حب للإسلام بل فقط للرغبة فى أن يكون أمينا فى عرضه وتصويره لهذا الدين، لأنه كما يقول يجب على المرء أن يلتمس الحق أينما وجده، ويبدو لى أنه مطمح ممدوح أن يسدل الستار على الزيف وأن يقدم هذا الدين المنتشر لمن يرغب فى وضعه موضع الاعتبار بريئا من التحريف لا تغشاه سحب الحقد والخطأ، أجل : يقدمه كما يدرس فى مساجد المسلمين ومدارسهم".

برغم وجاهة هذا الكلام فإننا لا يمكن أن نقول بأن نظرة الغرب إلى الإسلام قد وصلت إلى هذا المستوى النظرى الذي حاول ريلاند تأسيسه فى ذهن القارئ فإن الموقف الغربى لم يصل بعد إلى هذا الحد من الموضوعية. فقد

نوه نفس الكاتب أيضا بفائدة الدراسات الشرقية وبالذات اللغة العربية والإسلام فى الأغراض التجارية ونشاط بعثات التبشير المسيحية، وفى التفاسير اللغوية للكتاب المقدس.

لكن هذا لا يمنع قط من القول بتعاطف ريلاند مع الكتابات الإسلامية فإن العلوم الإسلامية قد ازدهرت وتقدمت بحلول القرن العاشر الذي كانت فيه الفنون والعلوم بين المسيحيين تكاد تكون ثاوية فى قبرها، وقد جاء كتابه فى الحقيقة كدائرة معارف تحتوى على كثير من العلوم الإسلامية، والدفاع عن الإسلام ضد أباطيل كثيرة لفقها الكتّاب البيزنطيون والمسيحيون بصورة عامة كما ذكرنا.

وقد ترجم كتاب ريلاند المشار إليه سابقا إلي الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية بل إلى الأسبانية، وأدخل فى الوقت نفسه فى قائمة الكتب المحرمة كنسيا من وجهة النظر الكاثوليكية وكما يقول نورمان دانيال فى كتابه الإسلام والغرب الذي صدرت أول طبعة له عام ١٩٦٠ إن هذا الكتاب هو حقا أهم كتاب بين عدة كتب ساعدت على استبعاد الأساطير، وإحلال الحقائق والحقائق فقط مكانها، بل إنه يمكن أن يدرس اليوم، لما فيه من فوائد عظيمة.

وفى أواخر القرن الثامن عشر شهدت هولندا اهتماما متزايدا وفاعلا بالعناصر الجمالية فى الأدب العربى تجاوز حدود الجامعة، فقد كان الأثرياء الهولنديون، وهم كثرة يهتمون بالأدب العربى وبالعلوم العربية كثيرا إلى درجة أطلق معها على هذا العصر عصر الشعور المستعارة فقد كان هؤلاء العلماء والأثرياء الهولنديون يقبلون بشغف على أخبار الرحالة الذين كتبوا عن الشرق، كما ترجمت أعمال عربية عظيمة مثل ألف ليلة وليلة وغيرها.

كما عكست مسرحية أونو زوير فان هرين "أجون سلطان بانتام" (١٧٦٩) كثيرا من مشاهد الحياة الشرقية فى إندونيسيا والهند وغيرها. وظهرت بعد ذلك

كتابات عن الحياة العربية والشعب العربى والخيال العربى بصفة عامة بل وعن العقلية العربية والبيئة العربية حيث وصف العرب بأنهم أحد ذكاء وأكثر رشاقة وأشد غيرة من غيرهم. جاء هذا فى محاضرة عن صفات العرب ألقيت فى جامعة ليدن عام ١٧٨٨.

وطبعت بعض كتب الأمثال العربية وكتب التفاسير وكتب التراث محققة وقد ترجم بيلد رديك مقصورة ابن دريد التى ظلت درة فى جبين الأدب الهولندى، وقد قام هذا الرجل بالترجمة وهو فى المنفى وذلك لأنه نفى بسبب رفضه المساهمة فى إعلان حقوق الإنسان الذي أعلنته الحكومة الثورية للجمهورية الباتافية التابعة لفرنسا عام ١٧٩٥ وقد مجد هذا الأديب الهولندى الشعر العربى تمجيدا عاليا فى مقابل الأشعار والآداب الغربية.

إنه يقرر أن شعراءهم إنما كانوا مقلدين لغيرهم، وأنهم عندما كانوا يستغرقون فى الخيال، لا يأتون إلا بشعر ركيك، بل كان الأدباء الهولنديون فى بعض الأحيان يقلدون النماذج الأدبية الشرقية حتى يظهروا بمظهر الضفادع المنتفخة.

إن الاهتمام بطبع الكتب العربية ونشرها فى هولندا لم يتوقف قط كما حدث فى فرنسا مثلا فى الشطر الأكبر من هذا القرن ويعلل بروخمان وشرودر على ذلك بقولهما "ذلك أن اللغة العربية خدمت اللاهوت فى هولندا، ولكنها خدمت الدبلوماسية فى البلاد الأخرى، وكانت نتائج ذلك أسوأ بالنسبة للعلم".

أما فى القرن التاسع عشر والذي ظهرت فيه كثير من الحركات والمذاهب الفكرية والسياسية وظهرت فيه القومية أيضا فإن اهتمام هولندا بالدراسات العربية لم يتوقف، ومما يميز هذه الفترة ما كتبه دوزى عن الإسلام والمسلمين يقول : إن الكتب العربية قد زادت من تبصير أوروبا بالإسلام ويشير دوزى إلي

أنه فى فرنسا قد أنشئت مدرسة اللغات الشرقية الحية ويتكلم كذلك عن اهتمام فرنسا بالشرق أيام نابليون وإبان غزو فرنسا للجزائر ومصر وغيرهما من البلدان العربية .

ويذكر أنه فى هذا القرن قد نشرت كتب عربية كثيرة بلغات أوروبية ونشر فهرس المخطوطات الشرقية فى مكتبة جامعة ليدن (١٨٥١ - ١٨٧٧) بعناية دوزى وده يونج وده خويه وهاو تسمان وغير ذلك وحقق خويه كتاب ابن حوقل ونشر كرامرس كتاب صورة الأرض للإدريسي وحقق مورسينجه كتاب طبقات المفسرين للسيوطى كما حقق يونيل (١٨٠٢ - ١٨٦١) ديوان المتنبى وفى نفس الوقت بدأ نشر مختصر معجم ياقوت وهو مراصد الإطلاع وكتاب ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) (١٨٥٢ - ١٨٦١) وذلك بالتعاون مع آخرين.

رسالة الإسلام ودورها الحضارى

وجاءت رسالة الإسلام فى القرن السابع الميلادى فقدمت للبشرية حضارة جديدة هى الحضارة الإسلامية الأصيلة التى سنتحدث عنها فيما بعد، وكان للإسلام دور كبير فى إحياء النشاط الذى أعاد الحياة للحضارة التجريبية التى كانت قد غمرها الذبول.

العصر العباسى وإحياء الحضارات

اتسعت الدولة الإسلامية اتساعا كبيرا وجاء العصر العباسى واكتمل استقرار الدولة الإسلامية، فعمدت هذه الدولة إلي إحياء الحضارات الدفينة فافتتحت لذلك أول جامعة إسلامية (بيت الحكمة) وأخرجت الكتب من الدهاليز بالبلدان التى استولوا عليها كمصر والشام والعراق وفارس، وأحيانا حصلوا على الكتب من دهاليز البلدان التى لم يستول عليها المسلمون ولكن حصل صلح بينها وبين المسلمين وكان المسلمون يضعون فى شروط الصلح أن يتسلموا هذه الكتب المخزونة، ولما كانت السلطات الغربية ترى أن ما بهذه الكتب يتنافى مع المسيحية، فقد سلموها للمسلمين.

وتسلم المسلمون هذه الكتب ووضعوها فى "بيت الحكمة؟ الذى أنشأه الرشيد ورعاه المأمون رعاية خاصة كما حصلوا على بعض الكتب من الهند واتجهت الجهود لخدمة هذه الكتب على النحو التالى:

١- إزالة ما كان بها من خرافات وأساطير وشعوذة وسحر وطلاسم وتعدد آلهة، وهو شيء كثير.

٢- استكمال ما كان بها من نقص بسبب ضياع أوراق أو زوال حبر، وكان ذلك يتم بإسناد كل كتاب إلي عالم متخصص فى مادة الكتاب وموضوعه.

٣- تعريب هذه الكتب والتعليق عليها ونقلها من النظريات للتجربة والعمل.

٤- التدريس وأهميته : فقد قام العلماء بتدريس مادة هذه الكتب للطلاب فى بيت الحكمة، والتدريس "يضفى كثيرا من الأفكار على موضوع الدراسة وقد يجىء الفكر الجديد من خواطر المدرس أو من أسئلة الطلاب التى كثيرا ما توحى بإضافة جيدة، ومن هنا نما الفكر الإسلامى، أما القسس فقد كان كلامهم مقدسا لا يحتمل سؤالا أو اعتراضا، ومن هنا تجمدت أفكارهم.

وكان الخلفاء العباسيون يهتمون بالترجمة ويكافئون عليها ببذخ، وقد روى أن الخليفة المأمون كان يعطى للمترجمين زنة ما يترجمونه من الذهب الخالص، وعندما اعترض خازن بيت المال على ذلك مرة قال له المأمون : أعطهم دون بخل فإنهم يعطوننا الباقى ويأخذون الفانى.

ومن أشهر مترجمى ذلك العصر الفضل بن نوبخت ويوحنا بن ماسوية، وهذا يدل على أن الخلفاء المسلمين استعانوا بغير المسلمين فى ترقية الحضارة التجريبية.

٥- الإبداع : ووصل المسلمون بذلك إلى مرحلة الإبداع وإضافة الكثير على ما كتبه السابقون.

ويلاحظ مما سبق أن ذكرناه من أن أفكار هذه الكتب المترجمة كانت من الشرق، فهى بضاعتنا. ردت إلينا كما يقول فيليب متى فيما ذكرناه آنفا وكان الغرب قد أضاف لها الأساطير والخرافات والشعوذة فحذف المسلمون هذه الأساطير وأضافوا فكرا جديدا لما ترجموه وظهرت بذلك إبداعات المسلمين، وفيما يلى نماذج منها :

فى الجغرافيا : أجادوا رسم الخرائط وتلوينها وتجسيمها على يد البلخى وابن خرداذبه والاصطخرى والبيرونى والإدريسى.

فى البصريات : ظهر ابن الهيثم الذى قرر أن الرؤية تحدث من شعاع يخرج من الشىء المرئى فيقع فى العين فتحدث الرؤية وليس من شعاع ينبعث من العين كما كان السابقون يعتقدون، ولابن الهيثم جهود كبيرة فى مجال البصريات ذكرها Toby Huff فى كتابه.

فى مجال الطب : فى هذا المجال حقق المسلمون إنجازات عظيمة جدا، فظهرت المستشفيات الإسلامية، وكان العلاج بالمجان، وظهر الأطباء الفلاسفة والفلاسفة الأطباء، وعرف المسلمون أمراض الجدرى، والسكر، والحصبة، وطرق الحماية منها، وعرفوا التطعيم كما عرفوا التشريح، وعرفوا الطب النفسى وعلاجه، وعرفوا طب الأعشاب، وتخصصوا فى علم جبر العظام والكى، واكتشفوا دودة الإنكلستوما، وعرفوا جراحة التجميل، وعرفوا طب المسنين، وخصصوا له مستشفيات خاصة ووضع ابن سينا بابا خاصا به فى كتابه "القانون" كما ابتكروا "طب المساجين".

فى الصيدلة : ظهر ابن البيطار الذي اكتشف أنواعا من الأدوية من الأعشاب لعدد من الأمراض.

وكان أبقراط يرفض علاج الأمراض المستعصية وهى سياسة سادت لدى الغرب، ولكن المسلمين تعهدوا هذه الحالات بالرعاية الكاملة تبعا لقول الرسول ﷺ إن الله لم ينزل داء إلا وأنزل له الدواء.

وعرف المسلمون التدليك والسونا، وكان الرازى أول من استعمل الفتيلة في الجراح. ومن أبرز الأطباء المسلمين الرازى وابن سينا وابن رشد والزهراوى وعلى البغدادي وعمار الموصلى وابن زهر.

وفى هذا الإنتاج والإبداع حرص المسلمون على التدبر والتفكير تبعا لقوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون﴾ [النساء: ٨١] وقوله: ﴿أفلم يدبروا القول﴾ [المؤمنون : ٦٨].

ومع العناية بالتدبر "عنى المسلمون بإجراء التجارب فى العلوم التى تحتاج لتجارب، ويتجه ول ديورانت إلي التأكيد على أن المسلمين هم الذين استحدثوا علم الكيمياء بوصفها علما من العلوم، وهم الذين أضفوا عليها الملاحظة الدقيقة ومنهج البحث العلمى القائم على التجربة والعناية برصد نتائجها، وابتكروا لها الآلات فتمكنوا بذلك من الكشف عن هذا الحشد الكبير من المنجزات التى كانت من المغيبات فى هذا الميدان، ومن أجل ذلك يقول جابر بن حيان:

– ما افتخر الحكماء بكثرة العقاقير وإنما افتخروا بجودة التدبير.

– والله لقد عملته بيدى وبعقلى قبل اليد، وبحثت عنه حتى صح، وامتحنته فما كذب.

– من بنى نتائجه على الدربة كان عالما حقا ومن لم يعمل ولم يجرب له يظفر بشىء أبدا.

واستكمالا لإنجازات المسلمين فى مجال الطب نرصد نقاطا مهمة هى :

١- الطب النفسى وطرق علاجه عند المسلمين :

الصورة التى تنقلها لنا المصادر التاريخية توضح أن الغرب لم يعرف علاج الأمراض النفسية والعقلية، وكانوا يعدون ذلك مسا من الشيطان، ومن هنا كانوا يربطون المريض بالسلاسل ويلقونه فى قبو مظلم، ويأتى له الكاهن كل يوم ليضربه بالسياط ليطرد عنه الجن الذى لبس جسمه.

وسخر المسلمون من هذا الوضع وعرفوا الطب النفسى، وقرروا أن النفس تمرض كما يمرض الجسم وتعالج كما يعالج الجسم، ومن وسائل علاج النفس علاج الأمراض الجسمانية بالشخص أولا ثم إحاطته بمن يحب من الناس، ويبعد عنه من يكره، ويوضع المريض فى حجرة تزين بالزهور، وتفوح بها الروائح العطرية، وتعزف بها الموسيقى الخفيفة.

٢- المستشفيات مؤسسة إسلامية :

قبل الإسلام كان الاتجاه يرمى إلي عزل المرضى حتى لا ينقلوا العدوى للأصحاء، والمكان الذي يعزل فيه المرضى يسمى فى اللغة الإندونسية Roman Sakit أى بيت المرضى وفى اللغة اللاتينية يسمى حتى الآن Hospital وهى كلمة مأخوذة من Hospitality التى تفيد الضيافة والإحسان وليس العلاج وبيمارستان وهى مكونة من مقطعين : بيمار بمعنى مريض، وستان بمعنى منزل، فالكلمة معناها بيت المرضى.

أما فى الإسلام فقد كان الاسم الذي أطلق على مكان المرضى هو "المستشفى" أى المكان المخصص لعلاج المريض رجاء شفائه، وظهرت المستشفيات فى الإسلام فى عهد مبكر يرجع إلي عهد الرسول ﷺ، فهو الذى وضع الأساس لها، وكان ذلك فى غزوة الخندق، فقد جرح عدد من المسلمين فلم يدعهم الرسول يعودون لبيوتهم بل أقام لهم خيمة بالمسجد، ووكل بهم من يعنى بشئونهم ممن لهم دراية بالطب والعلاج، ووضعت هذه الحالة بذرة المستشفيات فى الإسلام.

ثم تطور هذا الوضع وظهرت أبنية المستشفيات فى عهد الوليد بن عبدالملك الخليفة الأموى سنة ٨٨ هـ (٧٠٨هـ) بدمشق ثم انتشرت فى البلاد الإسلامية، وبمناسبة ذكر الوليد نسجل أنه تعهد الأيتام وكفلهم، ورتب لهم المعلمين والمؤدبين، كما رتب للمرضى من يخدمهم، وللمكفوفين من يقودهم، ورتب لهؤلاء جميعا الأرزاق المنتظمة، كما وضع المجذومين فى بيت يرعاهم طبيا حتى لايخرجوا على الناس بعاهاتهم، ورتب لهم، الأرزاق الكافية، وأعطى كل مقعد خادما يهتم بأمره، وأعطى الأرزاق للمقعد وخادمه.

وعرف المسلمون الطب البيطرى، وفى مجال الحيوان عرفوا التهجين

وتحسين النسل، ويعتبر كتاب " الجاحظ" عن "الحيوان" من أروع ماكتب فى هذا المجال.

وكانت معارف المسلمين التى صنعت الإبداعات السابقة نتيجة لتعليمات القرآن الكريم الذى ألزم المسلمين بالتفكير "فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتصريف الرياح" فألزم القرآن الكريم المسلمين بالنظر والتفكير وكان من نتائج هذا التفكير ما اهتدوا له من معارف أبرزها الخالق العظيم فى هذا الكون.

وفى هذا المجال هاجم القرآن الكريم من لا يستعمل العقل ليستخرج الطاقة الكامنة التى أودعها الله تعالى فى السموات والأرض وفى هذا الكون، فجاء قوله تعالى : ﴿**أفلا تعقلون**﴾ [البقرة :٤٤] ، وآل عمران : ٦٥، والأعراف : ١٦٨] وجاء قوله أيضا ﴿**أفلا تتذكرون**﴾ [الأنعام : ٨٠]. وقد عنى ابن رشد بإثبات أن الشريعة الإسلامية تحث على النظر العقلى وتوجيهه وذلك بخلاف الكنيسة التى كانت تقف فى وجه العقل والمعرفة، وتعاقب بقسوة من حاد عن ذلك كما حدث ليجاليليو وسرفتوس.

وهكذا نقل المسلمون العلم التجريبى من الخرافة والشعوذة والجانب النظرى إلي الفكر والعقل والتجربة والمختبرات.

وأضاف الإسلام للحضارة التجريبية صنوف حضارة أخرى هى الحضارة الأصيلة وفيها أخلاق الإسلام وقيمه واتجاهاته فى العقيدة والسياسة والاقتصادوغيرها.

٢- المسلمون وآداب مهنة الطب :

وقد تدخل الفكر الإسلامى فى إشاعة الآداب التى ينبغى أن يتخلق بها الطبيب، وقد وضع الرازى فى ذلك كتابا عنوانه : "أخلاق الطبيب" ومما جاء فيه قوله :

أول مايلتزم به الطبيب مداومة القراءة والإطلاع فى المراجع الطبية مهما تقدم فى السن حتى لا يغيب عنه شىء مما جد من المعلومات.

ويتحتم على الطبيب حفظ أسرار مرضاه، فالمريض كثيرا ما يخفى أسراره عن أقرب الناس له، ولكنه يبوح بها إلى الطبيب.

وعندما يكشف على المرأة ينبغى على الطبيب ألا تتجاوز عينه موضع العلة، فهذا المكان وحده هو الذى ينظر إليه ولا يجوز له أن يجول بعينه فى أى جزء آخر بالبدن، وذلك هو السبيل للعفة والنجاح، ومن تجاوز ذلك تجنبه الناس وأغضب الله، وحرم الدخول فى منازل الأسر الكريمة.

٤- الطبيب المسلم مسئول عن المر ضى فى كل بلاد الإسلام:

والأطباء المسلمون كانوا يرون أنهم مسئولون عن الطب وبخاصة عن الأمراض المستعصية فى أى بلد إسلامى، ومن هنا نجد ابن النفيس الطبيب الشامى ينتقل لتدريس الطب فى القاهرة، وكان الرازى وابن سينا ينتقلان بين بخارى وسمرقند وإيران والعراق للتدريس والتطبيب، ومثل ذلك حدث للعلماء بوجه عام وليس للأطباء وحدهم، فابن الهيثم كان فى البصرة، ولكنه سرعان مالبى رغبة الحاكم بأمر الله عندما استدعاه للقاهرة فحضر وأسهم فى بعض الأعمال المرتبطة بمعارفه.

الحضارة الإسلامية تطوع المغول الجفاة:

هذه صورة سريعة للحضارة الإسلامية التجريبية، وقبل أن ننتقل إلي نقطة أخرى نسجل أن الحضارة الإسلامية طوعت الجبابرة، ونقلت بعض أعدائها إلى مدافعين عنها، ونعنى بذلك المغول القساة الطغاة، وعن هؤلاء يقول Sir Thomas Arnold : لا يعرف الإسلام من بين مانزل به من خطوب وويلات خطبا أعنف قسوة من غزوات المغول، فلقد انسابت جيوش المغول تدمر

عواصم المسلمين وتقضى على ما كان بها من مدنية وحضارة، وأسرفت فى القتل والتدمير والإحراق.

ولكن الإسلام سرعان ما طوى هؤلاء بعد جيل أو جيلين، فأصبحوا من أتباع الإسلام ومن رعاة الحضارة الإسلامية، وخلد المغول بالهند صورا من الحضارة الرائعة ومن هؤلاء شاه جيهان الذى - تأثرا بآداب الإسلام - قضى على عادة تقبيل الأرض بين يديه تحية له، وقرب إليه العلماء وشجع على التأليف، وإليه ينسب الأثر الرائع "تاج محل" الذي شيده لتدفن فيه زوجته الحبيبة.

ومن هؤلاء كذلك أورنكزيب الذى أصدر تنظيمات لحماية الشعب من الضرائب الظالمة، والذى كان يجلس للمظالم من حين إلى آخر، والذى أعلن خطأ النظرية القائلة بأنه فوق الطبيعة البشرية، وأعلن أنه إنسان عادى.

الروح الصليبية تمنع الغرب من الانتفاع بالأخلاق الإسلامية:

وكان من الممكن أن يؤثر الإسلام والحضارة الإسلامية فى الغرب مثلما أثر فى المغول هذا التأثير الدينى والخلقى، ولكن الروح الصليبية كانت مسيطرة على الغرب، فلم يقتبس الغرب من الإسلام إلا الحضارة التجريبية ولقطات يسيرة من الحضارة الإسلامية الأصيلة كتحرير الرقيق ومبدأ الشورى فى النظام السياسى، وكان ذلك تحت ضغط الجنود الذين طالبوا بالحرية والعدالة على نمط الجنود المسلمين.

الحضارة الإسلامية تغزو أوربا وتخرجها من الظلمات

وعندما التقى الأوربيون بالمسلمين فى الأندلس وصقلية ثم فى الشام ومصر أيام الحروب الصليبية تعلموا منهم الكثير، وكانت معلوماتهم أساس

نهضة أوربا، واكتسحت الحضارة الإسلامية الجلمود الصلب لدى الغربيين ولكن الأوربيين عجزوا عن اقتباس روح الإسلام وأخلاق الإسلام وقنعوا بالماديات.

اعترافات الغربيين

بأفضال الشرق الحضارية عليهم

نجد أمامنا اعترافات الغربيين من مختلف الأجناس وفى مختلف الأزمنة بفضل الشرق عليهم فى مجال الحضارة وفيما يلى نماذج من ذلك.

دكتور إيكهاردت روتر:

يشير الدكتور إيكهاردت روتر الأستاذ بجامعة جوته بفرانكفورت فى مقال له نشر فى مجلة هذه الجامعة يشيرإلي ماقدمته الحضارة العربية لأوربا اللاتينية فى مجالات شتى خاصة فى تلك الفترة من العصر الوسيط، ويلقى اللوم على الأوربيين لأنهم تناسوا هذا الفضل ولم ينسبوه لأصحابه فيقول : (لقد أخذت أوربا"الصفر" عن العرب فسهل ذلك عليها إجراء العمليات الحسابية المعقدة وتعرفت على أعمال كبار فلاسفة وأطباء اليونان بفضل الترجمات العربية بعد أن قام العلماء والمفكرون المسلمون بتطويرها وإدخال الإضافات عليها، ثم أخذت أوربا علم الفلك بأكمله عن العرب الذين برعوا فيه، وأصبحت حياة الأوربيين أكثر رفاهية بفضل الأقمشة والمخترعات وحتى البهارات العربية، ومازالت آثار العمارة الإسلامية باقية فى جنوب أوروبا، بل أن فردريك الأكبر ملك صقلية الشهير بقربه من الثقافات كان يتحدث العربية أفضل من الألمانية، وهناك آلاف الكلمات فى جميع اللغات الأوربية هى عربية الأصل، ولكن أوربا كانت ناكرة الجميل منذ البداية.

وظل رجال الدين فى المجتمعات الأوربية وإلى جانبهم النبلاء يغزون عقول

البسطاء فى الشعب بمفاهيم سلبية خاطئة عن الإسلام والمسلمين فى حين كانوا يستفيدون استفادة قصوى من علوم "الأعداء المسلمين" وتجاربهم وتفوقهم فى كل شىء.

أولريش الأستاذ بجامعة برلين:

ويستكمل أولريش ريبشنك أستاذ العلوم الإسلامية بجامعة برلين وكلولونيا محاولة روتر فى بيان فضل الحضارة العربية الإسلامية على أوربا فينقد موقف أوربا من الإسلام والعرب ويشير إلى قدرة القبائل العربية فى خلال أقل من قرنين على الخروج خارج شبه الجزيرة العربية ونشر الدين الجديد فى العالم القديم وإنشاء حضارة حقيقية، تعد إحدى أكبر الإنجازات فى التاريخ الإنسانى، ويؤكد أن أقوى أدوات الحضارة العربية وأسباب إزدهارها هى اللغة العربية التى استطاع بها علماء المسلمين ترجمة ماتركه القدماء وتطويره.

ترجمة المعارف العربية:

وقد بدأت أوربا المسيحية على استحياء فى مد خطوط الاتصال بالعرب المسلمين فى جنوب فرنسا حيث كانت تقع حدود العالم العربى الإسلامى الجديد، وقام القساوسة ورجال الدين بتكليف الأسبان الذين يعرفون اللغة العربية بترجمة الكتب العربية إلي اللاتينية ونقلوا كل شىء فى كل المجالات تحت رقابة الكنيستوالبابا.

والمثير للدهشة -كما يروى ريبشنوك- أن ذلك بدأ فى الوقت الذي وضعت أوربا لنفسها هدفا هو تدمير أصحاب هذه الحضارة وشن حرب دينية ضد المسلمين، ولم تؤثر هذه الحروب ولا العداء الكبير لكل ما هو مسلم، على سعى أوروبا للنهل من العلوم والمعارف العربية فى إطار حركة للترجمة استمرت خلال النصف الثانى من القرن العاشر وحتى طوال القرن الثانى عشر.

الأمير تشارلز :

ومن كبار الباحثين الغربيين المعاصرين اعترف الأمير تشارلز ولى عهد بريطانيا بفضل العرب والمسلمين فقال :

إن هناك قدرا من الجهل بالفضل الذى تدين به ثقافتنا وحضارتنا للعالم الإسلامى، فالعالم الإسلامى فى العصور الوسطى كان عالما إزدهر فيه الباحثون المختصون ورجال العلم، ولكننا جنحنا إلي تجاهل ذلك وقللنا من أهمية ٨٠٠ سنة كانت أوربا خلالها عالة على أسبانيا الإسلامية التى حافظت على العلوم والمعارف خلال عصور الظلام، فوضعت الثقافة الإسلامية بالأندلس أساس اللبنات الأولى للنهضة الأوروبية.

ويذكر الأمير تشارلز بعض التفاصيل فيقول عن إبداعات المسلمين : كانت أسبانيا فى عهد المسلمين أكثر من مجرد مخزن للاحتفاظ بالعلوم والمعارف الشرقية بل فسرت تلك الحضارة، وتوسعت بها، وقدمت مساهمة هامة من جانبها فى كثير من مجالات البحث الإنسانى فى العلوم والفلك والرياضيات والجبر (والكلمة نفسها عربية) والقانون والتاريخ والطب وعلم العقاقير والبصريات والزراعة والهندسة المعمارية وعلم الدين والموسيقى وقد ساهم ابن رشد وابن زهر - على غرار نظيريهما الرازى وابن سينا فى الشرق فى دراسة الطب وممارسته بطرق استفادت منها أوربا لقرون عديدة بعد ذلك.

وتلك إشارة عادلة لدور المسلمين فى خدمة الحضارة العالمية.

اعترافات ريتشارد نيكسون :

ويقول ريتشارد نيكسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية سابقا فى هذا الموضوع مايلى :

بينما ذبلت أوربا في العصور الوسطى تمتعت الحضارة الإسلامية

بعصرها الذهبى، وقد أسهم الإسلام بمجهودات هائلة فى مجال العلوم، فى الطب والفلسفة، وقد لاحظ " ول ديور انت" ذلك فذكر أن الإنجازات الهامة فى كل الميادين قد تحققت على يد مسلمى هذه الفترة.

وكان ابن سينا أعظم الكتاب فى الطب، والرازى أعظم طبيب، والبيرونى أعظم جغرافى، وابن الهيثم أعظم صانع للآلات البصرية، وجابر بن حيان أعظم كيميائى وأخيرا كان جابر من أعظم الفلاسفة، وكان العلماء العرب أصحاب فاعلية فى تطوير الفكرة العلمية، وذكر "ول ديورانت" أن الرجال العظام الذين حملوا عبء النهضة الأوربية استطاعوا ذلك لأنهم وقفوا على أكتاف العمالقة المسلمين.

ويعترف نيكسون بمثل ماذكره جورج سارتون عن إمكان أن يعود المسلمون لسابق عهدهم فى التفوق العلمى فيقول : إن تلك الإنجازات التى حققها المسلمون الأوائل تشير إلى ما يمكن أن يحققوه فى المستقبل إذا أمكن وقف الصراع بهذه المنطقة.

وقبل أن نترك ريتشارد نيكسون نعلق على كلامه بقولنا إنها شهادة من رجل لا يكن الحب والتقدير للمسلمين ويطعنهم كثيرا فى كتابه هذا، ولكنه لم يجد وسيلة لإخفاء حقائق الماضى وإمكان النجاح فى المستقبل، لمعرفته بالعقلية الإسلامية الخلاقة التى ورثها جيلنا عن جيل أجدادنا المبدعين.

باول شمتز :

ومثل ذلك مايقوله " باول شمتز" عن الإسلام وقوته الذاتية فيقول : وسيعيد التاريخ نفسه نحو الشرق عودا على بدء، من المنطقة التى قامت فيها القوة العالمية الإسلامية فى الصدر الأول للإسلام، وستظهر القوة التى تكمن فى تماسك الإسلام ووحدته العسكرية.

جونشالك الألمانى :

ويقول جونشالك الألمانى فى كتابه "الإسلام قوة عالمية متحركة" :

"أسم الشرق الإسلامى فى الحضارة العالمية بإنجازات ضخمة فى مجالات المعرفة، ولم يتوقف تأثيره على قرن معين، بل ظل يتقلب فى صور مختلفة عبر القرون حتى العهد الحاضر.

"وهناك دول عرفت الأمانة والنظافة والتجارة عن طريق الإسلام ولولا الإسلام لظلت متخلفة حتى الآن".

"وإن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها برباط متين، وتتماسك أطرافها تماسكا قويا وتحمل فى طياتها عقيدة مثل الإسلام لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب، بل ستكون خطرا على من يناصبها العداء".

ويقول Hearnshow : لقد خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين فإذا بهم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة، ولقد بُهت الأوروبيون أشباه الهمج عندما رأوا حضارة المسلمين التى رجحت حضارتهم رجحانا لا تصح معه المقارنة بينهما.

ويقول Gosiph Calmith : في اللقاءات بين المسلمين والأوربيين قدم المسلمون عنصر التأثير والإنتاج وتلقى العالم المسيحى الأثر والفكر.

ويقول غوستاف لوبون : أخذ الغرب عن المسلمين أخلاق الفروسية واحترام المرأة وتحرير العبيد، وقد كانت استفادة الصليبيين من علوم العرب أقل مما يجب لأن الجيوش الصليبية كانت جاهلة، ولم تكن تبالى بالمعارف، ومن أجل هذا كانت عنايتها أكثر فى ميدان العمران والصناعة أكثر منها ميدان الفكر والفن.

ويقول أناتولى فرانس : إن أشأم يوم فى التاريخ هو يوم معركة بواتيه فى فرنسا حيث تقهقرت العلوم والفنون والحضارة الإسلامية أمام بربرية الفرنجة.

ويقول Emerton : إن الثقافة التى حصل عليها الصليبيون من المسلمين انتزعت الصليبيين من الحياة البربرية ومن الجهل والوحشية، ودفعتهم قدما إلى عالم الحضارة، وكان الأوربيون يسمعون من القسس كلاما خاطئا عن المسلمين، ولكن المسلمين ظهروا أمام الصليبيين على حقيقتهم فوجد الصليبيون فى المسلمين إنسانية عالية وشرفا وشجاعة ووفاء بالعهد وغير ذلك من الصفات التى لم يكونوا يسمعون بها من قبل، وقد ساعد ذلك على تكوين الناحية الإنسانية فى الأوربيين، ولم تكن هذه الناحية من قبل ذات بال عندهم.

ويقول Richard Coke : إن أوربا لتدين بالشىء الكثير لأسبانيا العربية فلقد كانت قرطبة سراجا وهاجا للعلم والمدنية فى فترة كانت عواصم أوربا خلالها لاتزال ترزخ تحت وطأة القذارة والبدائية، وقد هيأ الحكم الإسلامى لأسبانيا مكانة جعلها الدولة الوحيدة فى أوربا التى أفلتت من عصور الظلام.

ويقول ليبرى : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا عدة قرون.

أما أرنولد توينبى : فيقول أن العالم العربى كان فى العصور الوسطى يمثل محطات إرسال أمكن عن طريقها انتقال بعض كنوز الفكر من عالم الشرق المتحضر إلي العالم المسيحى الغربى، وفى مقدمة ما اقتبسه الغرب التسامح الدينى والاتجاهات الإنسانية التى أسرت قلوب الغربيين.

وإذا كان المفكرون يتحدثون عن أثر الأندلس والحروب الصليبية فى خلق جو فكرى وخلقى لدى الغرب فينبغى ألا ننسى جزيرة صقلية التى مثلت معبرا مهما للحضارة الإسلامية إلى الغرب لارتباطها بتونس الإسلامية من جهة

وبايطاليا من جهة أخرى، ولأن النفوذ الإسلامى عن طريقها وصل إلى ايطاليا بعد أن عبر المسلمون بوغاز "مسينا" واستولوا على "قطانية" ومنها ساروا شرقا حتى "بارى" وشمالا حتى "نابولى" و"روما" مما دعا البابا يوحنا الثامن (تولى سنة ٨٧٢م) أن يضطر لتقديم جزية سنوية إلى السلطان الأغلبى لتأمين مقر البابا، وقد ازدهرت الحضارة الإسلامية فى صقلية مما جعلها معينا لأوربا للاستفادة بما بها من خبرات وعلوم فى مجالات متعددة.

طرق الاقتباس من علوم الشرق :

وكان اقتباس الغرب من علوم الشرق بعد الإسلام قد شمل العلوم التجريبية التى ازدهرت فى بلاد الشرق، كما شملت بعض الحضارة الإسلامية الأصيلة، التى جاء بها الإسلام ولم تكن معروفة قبل الإسلام كرأى الإسلام فى السياسة والمرأة والرق وغيرها وقد اختلفت طريقة الاقتباس كالآتى:

اقتباس الحضارة الإسلامية التجريبية:

عنيت أوربا باقتباس العلوم التجريبية لينعم الملوك بخدمات طبية لهم ولأسرهم وليرتفع العمران، وتعزف الموسيقى فتحقق المتع لديهم، ومن هنا، اقتبسوا العلوم التجريبية (الطب - المعمار - الموسيقى - الفنون ...) من الأندلس وصقلية وكان ذلك عن طريقين :

١- الترجمة من اللغة العربية للغة اللاتينية :

وقد وفد للأندلس عدد من هؤلاء المترجمين ليقوموا بترجمة الأعمال المهمة المتصلة بعلوم الطب والفلك والرياضة والموسيقى والكيمياء .. وقد حفظ التاريخ لنا أسماء بعض هؤلاء المترجمين الذين عكفوا على الكتب العربية لينقلوا خلاصتها إلى لغاتهم الأوربية وهم :

Adlard of Bath, John of Sevile, Plato of Trivoli, Silvest-

er the second, Alfonsox, Franco of Copogne, Gerald of Crmone

وقد ترجم هؤلاء مجموعة كبيرة من الكتب العربية أوردها Prof Sharif فى كتابه :

Muslim Thought: Its Origin and Achievments

٢- الطريق الثانى لانتقال الحضارة التجريبية لأوربا كان بواسطة البعثات التى أرسلها الملوك لجامعات المسلمين ومعاهدهم فى الأندلس وصقلية ليتعلموا بها، ومن أهم البعثات التى أوفدت تلك البعثة التى أرسلها ملك انجلترا جورج الخامس إلى أسبانيا وهى مكونة من فتيات من الأسرة المالكة وترأسها ابنة أخت الملك، ومع البعثة خطاب من الملك إلى الخليفة هشام الثالث يرجو أن توضع البعثة تحت رعاية الخليفة، وقد رد عليه الخليفة برسالة يطمئنه على أفراد البعثة، ويذكر له أن بيت مال المسلمين سيتولى الإنفاق على أعضائها .

اقتباس الحضارة الإسلامية الأصيلة:

أما الحضارة الإسلامية الأصيلة المرتبطة بالشورى وتحرير العبيد وحقوق المرأة والعلاقات الدولية وأمثالها فقد اقتبسها الأوربيون من المسلمين بمصر وفلسطين خلال الاحتكاك بهم فى الحروب الصليبية وبخاصة فى فترات الهدنة، فالجنود الأوربيون كانوا من الرقيق ولما وجدوا الجيش الإسلامى من الأحرار ثاروا على سادتهم وحصلوا على الحرية، ولاحظ الغربيون أن صلاح الدين الأيوبى له مجلس شورى فألزموا ملوكهم بتكوين مجلس مماثل، وحصلت المرأة الغربية على بعض حقوقها لتماثل المرأة المسلمة أو تقرب منها وهكذا .

الترجمة خلال الحروب الصليبية :

وبالإضافة إلى التأثير المباشر للحضارة الإسلامية على الصليبيين، فإن

بعض الترجمات حدثت كذلك من اللغة العربية للغة اللاتينية خلال الحروب الصليبية، وقام بذلك ادلارد أوف باث الذي انتقل إلي الشرق الإسلامى خلال الحروب الصليبية واشتغل بالترجمة لصالح قومه.

الغرب يرد الجميل !!

ذلك هو فضل الشرق الإسلامى على الغرب بأقلام مفكريه من مختلف الجنسيات الغربية وفى عصور مختلفة، فماذا فعل الغرب بالعالم الإسلامى عندما طور الغرب العلوم والمعارف ورجحت كفته على الكفة الإسلامية؟

هذا فى تقديرى سؤال مهم لنرى جذور الخير والشر بين الشرق والغرب، فقد اتصل الغرب بالشرق الإسلامى فقدم له المسلمون أسمى ماعندهم من إنجازات ومعارف، وعندما أصبح الزمام فى يد الغرب كان بعيدا عن الاعتراف بالجميل وبعيدا عن السلوك الإنسانى، وبكلمة موجزة أخذ الغرب من المسلمين الخير، وأعطاهم الشر والسموم فى مختلف المجالات.

الغرب يضرب المسلمين ويسلب ثرواتهم :

والغرب عندما جاء دوره فى العطاء كان قد اكتسى بثوب المسيحية، وكانت المسيحية عندما انتقلت من فلسطين إلى أوربا قد مسها العطب فى أوربا من جانبين هما :

١- كانت أوربا تدين بتعدد الألهة، أو - كما يقول كارليل - تدين بالتثليث أى عبادة الملك والملكة وولى العهد، فانتقل التثليث إلى المسيحية.

٢- كانت الحياة فى أوربا عندما انتقلت المسيحية إليها حياة صراع مستمرة، ناشىء عن نظام الإقطاع الذى كان سائدا، فانتقلت إلي المسيحية روح الصراع والحرب والعدوانية.

ومن هذا فالغرب اتجه لصنع السلاح ليلائم حال الحرب التى كانت مشتعلة فى أوربا فلما اتصل الغرب بالشرق بعد ذلك وجه الغرب سلاحه لضرب الشرقيين وتدميرهم فأخذ يضرب فى كل مجال ضربا بعيدا عن الخلق القويم، يضرب العاصى والمطيع، يضرب الشاب والشيخ، والرجل والمرأة، وإنه لشىء مخجل أن نروى ما فعله الغرب بسلاحه فى أحرار مصر وليبيا والجزائر وإندونيسيا: عشرات الآلاف ومئات الآلاف سقطوا دون ذنب بسلاح الغرب.

ولم يقنع الغرب بالقتل والدم فراح يسرق الطعام والمتاع، بل راح فى إفريقية يسرق الصبيان والشباب ويسير بهم إلى أرض أمريكا ليباعوا هناك فى أسواق النخاسة بعد رحلة تعذيب وفواجع.

واستعمل الغرب السلاح الذى ابتكره فى حصد السكان الأصليين فى أمريكا وكندا واستراليا وكان من الممكن تدريبهم ورفع شأنهم، ولكنه النهم الواسع الذي لا يعرف الحدود ولا القيم.

ولا يحسبن القارىء أن قسوة الغرب كانت ضد الشرق وحده، فمن الملاحظ أن هواية التدمير كانت طبيعة واسعة الانتشار بين الغربيين، فقد قاتل بعضهم بعضا بشراسة فى عدة حروب وبخاصة فى الحربين العالميتين الأولى والثانية، وسقط عشرات الآلاف أو مئات الآلاف منهم بحرابهم وأسلحتهم، وعندما ترى مقابر الغرب فى العلمين تقشعر النفوس الطاهرة لهذا الطغيان الذي فتك بالشباب لتغذية الأطماع الشريرة، وهناك مقابر كثيرة فى غير العلمين، وكلها تدل على قسوة الغرب ووحشيته.

وامتدت حروب الغرب وجناياته إلي الشرق الأقصى مستعملين أرقى ماوصل له العقل من العلم فألقيت القنابل الذرية على اليابان وسقط الآلاف من الأبرياء وبخاصة من الشيوخ والنساء والأطفال لأرضاء غرور الغرب بما وصل

له من علم واختراع، ويقال إن الذى ألقى القنبلة على هيروشيما أحس بجرمه فانتحر، ولكن الذين كلفوه بهذا العمل الغادر لم يحسوا بجريمتهم ونعموا بما سموه انتصارا.

استعمار الدول الإسلامية كلها:

وأصبح للغرب السلطان على العالم الإسلامى كله من المغرب إلي إندونيسيا، وكان ذلك أبرز مظهر للعصبية الدينية وأضخم صورة للإرهاب الدينى الذى لن ينساه المسلمون.

وكان إسقاط القسطنينية سنة ١٩٢٢ هو قمة الهزيمة للمسلمين، ومن الواضح أن الغرب لم يتمكن من تحقيق هذه الغاية إلا بعد وعود لشريف مكة مما دفع هذا الشريف إلي التعاون مع الغرب ضد الامبراطورية العثمانية، ولما تحقق هدف الغرب لم يوفوا بما وعدوا به، وأعرضوا عن هذا الشريف المخدوع.

ومع أن سقوط القسطنطينية مركز الخلافة كان قاسيا على المسلمين فإن المسلمين يتذكرون دائما انتصاراتهم ضد الغرب فى دمشق وفلسطين ومصر والقيروان والأندلس فلا يعيشون أسرى الهزيمة.

وقد أفاق المسلمون مما نزل بهم من كوارث وعادوا لتكوين أنفسهم من جديد، ولكن تركيا للأسف لاتزال حتى كتابة هذه السطور تعيش موالية للغرب تأثرا بما قام به أتاتورك من بيع القضية الإسلامية للغرب والانضواء تحت لواء أوربا.

وعندما خضعت البلاد الإسلامية للغرب كان من أهم أهداف الغربيين أن ينشروا الجهالة فى الأرض التى تعلم فيها أجدادهم، فأفسدوا المناهج وحذفوا صورا من العلوم، وأغلقوا المدارس أو سمحوا بعلوم لا تنير الذهن ولا تطور الفكر، وحاربوا اللغات القومية والتاريخ الوطنى واهتموا بنشر لغاتهم وتاريخ

أبطالهم للقضاء على الروح المعنوية، ولإشاعة أن أبطالهم هم سادة الأبطال، وأن تاريخهم هو أنصع التواريخ، وشاع فى جو الاستعمار تعبير مثل : فرنسة الجزائر أو طلينة ليبيا أى جعل هذه وتلك ذيلا لدول الغرب، وقد لعب "دنلوب" أخطر دور فى إفساد التعليم بمصر تلك الدولة التى كانت رائدة فى المجال الثقافى بالمنطقة عبر عدة قرون.

وأكثر من هنا فقد غرس الغرب فى الشرق عيوبا قاتلة كانت سيئة التأثير فى حياة الشرق الإسلامى، ومن هذه العيوب : الديكتاتورية، وتفكيك أواصر البلدان، والعلمانية، والأمية ثم إسرائيل وأحفادها: الماسونية والروتارى والليونز.

الحضارة الإسلامية

الأصيلة أو الروحية

عناصر هذه الحضارة الإسلامية هى بكل الإيجاز :

١- الوحدانية المطلقة فى مجال العقيدة :

فأساس العقيدة الإسلامية هو الإيمان بالله الواحد الأحد والإيمان بملائكته وكتبه ورسله وآخرهم محمد ﷺ، ثم الإيمان بنقاء الأسر وحقوق كل فرد من أفرادها على الآخرين وعلى المجتمع.

٢- الأخلاق الإسلامية الرفيعة : تبعا للقاعدة العامة (لا أخلاق بدون دين) فقد حارب الإسلام أخلاق الجاهلية وغرس أخلاقا جديدة يتحتم على المسلم أن يتخلق بها.

٣- الشورى فى المجال السياسى : تبعا لقوله تعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾ [آل عمران].

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) ﴾ [الشورى].

والشورى فى الإسلام ملزمة لقوله ﷺ لأبى بكر وعمر: لو اجتمعما على أمر ما خالفتكما فيه.

٤- الاقتصاد والعدالة الاجتماعية : فالإسلام قرر حق العمل للقادر، وتتحمل الأمة مسئولية غير القادر، وقرر الإسلام حق الملكية الفردية، وحق

التفاوت فيها، فالناس متفاوتون فيما هو أهم من المال كالصحة والذكاء والجمال، ونجاح الزواج والأولاد، وحدد للفقراء قدرا من مال الأغنياء.

والاقتصاد الإسلامى مبنى على أسس ثلاثة :

(أ) مبادى إلهية توضح أن المال كله مال الله سبحانه وتعالى، قال تعالى:

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠) ﴾ [المائدة]. فيجب أن يتصرف فيهي الإنسان تبعا لهذا المبدأ فيتبع تعاليم المالك الأصلى وهو الله.

(ب) أسس طبيعية : فهو لا يسوى بين المجد والكسول.

(جـ) فضائل إنسانية : فهو يعطي للفقير حقا فى مال الغنى، ويحث على العمل ويحترم العامل.

٥- التربية والتعليم : فقد قرر التعليم حقا للجميع وواجبا على القادر، وكان التعليم من قبل وقفا على الكهنة.

٦- حقوق المرأة: مثل حقها فى اختيار زوجها وحقها فى الميراث والكسب وغيرها.

٧- تنظيم العلاقات الدولية : وان اختلف الدين، ومن هنا ظهرت المعاهدات والسفارات.

تأثير الإسلام فى المسيحية :

أثرت العقيدة الإسلامية على العقيدة المسيحية تأثيرا واضحا، وقد كان تأثير الإسلام على عقيدة المسيحيين واسعا : فمنذ عهد بولس اتجه المسيحيون إلي القول بالتثليث، فلما جاء الإسلام وقال بالوحدانية المطلقة ودلل على هذه الوحدانية بأدلة حاسمة عقلية ونقلية لجأ المسيحيون إلى تحوير عقيدتهم بما

يقرب من الإسلام، فقالوا بوحدة فى تثليث أو تثليث فى وحدة، أى أن الله واحد له ثلاثة جوانب أو أقانيم، وكان هذا تأثيرا كبيرا للإسلام فى العقيدة المسيحية بل ظهر مايكل سرفتوس الذى أعلن عقيدة التوحيد المناهضة لعقيدة التثليث، وقد اتجه للتوحيد لأنه أسبانى المولد والنشأة فتأثر بالمسلمين هناك.

ووجدت من بين النصارى طائفة أنكرت ألوهية المسيح -عليه السلام- وفى مصر طائفة كبيرة من المسيحية المثقفين تستنكر ألوهية المسيح وترفض القولبالتثليث.

وفى القرنين الثانى والثالث الهجريين ظهرت فى جنوب فرنسا حركة تدعو إلى إنكار الاعتراف أمام القسس، وأن يتجه المسيحى إلى الله وحده يرجو منه غفران ذنوبه.

ويرى الأستاذ أحمد أمين أن ذلك كان تأثرا بالإسلام، إذ ليس فى الإسلام قسيسون ورهبان، ثم إن جنوب فرنسا كان على صلة بالإسلام الذى امتد من أسبانيا إلى جنوب فرنسا فى فترة من الفترات.

وفى نفس الوقت تقريبا ظهر مذهب نصرانى يرفض تقديس الصور والتماثيل، فقد أصدر الامبراطور الرومانى " ليون الثالث" أمرا سنة ٧٢٦م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل وأمرا آخر سنة ٧٣٠م يعد ذلك وثنية، ووصل هذا الأمر غايته على يد كلوديوس أسقف تورين سنة ٢٨٢م، فقد أحرق الصور والصلبان ونهى عن عبادتها فى أسقفيته، ويربط بعض الباحثين ذلك بنشأة كلوديوس، إذ كان قد ولد وتربى فى الأندلس الإسلامية. وتأثر باتجاه بعض علماء المسلمين الذين لا يبيحون الرسم والتصوير والنحت.

وقد حملت البروتستانتية بعض آثار الإسلام، فالأفكار التحررية التى تبيح للمسيحى أن يفكر ويفهم الكتاب المقدس بنفسه، وتعده مسئولا أمام الله وليس أمام الكنيسة .. كل ذلك كان تأثرا بالإسلام من قريب أو من بعيد.

تأثير الإسلام فى الديانة الهندوكية :

في الهندوكية آلهة لا يحصى عددها، وعندما اختلط الهنود بالمسلمين، ظهر تأثير الإسلام فى الهندوكية، فبدأ الهنود يتكلمون عن رب الأرباب وإله الآلهة، وفى هذا التعبير إهمال للكثرة وارتباط بإله واحد أحد.

ويقول الباحث الهندى Panikkar: إن تأثير الإسلام فى الديانة الهندوكية كان عميقا، وإن قادة الفكر من الهنود الذين ظهروا فى العصر الإسلامى قد صرحوا بأن الإله واحد، ودعوا لعبادته دون سواه.

النكسة التى أصيب بها المسلمون :

بقى أن نسأل عن سبب التخلف الذي يعيش فيه المسلمون الآن :

والإجابة أن هذه النكسة وهذا التخلف نتيجة لسببين مهمين :

١- السبب الأول خارجى وهو الصراع الطويل الذي عاناه المسلمون من التتار والصليبيين والاستعمار وكانت الحرب تدور فى بلادنا فأثرت فيها تأثيرا صعبا، وبعد هؤلاء جاءت الإمبراطورية العثمانية بمفاسدها ثم الصهيونية بآثامها.

٢- السبب الثانى أن المسلمين أثاروا خلافات فيما بينهم لأسباب ليست رئيسية فى الدين فكثرت الطوائف والمذاهب، وظهر أولئك الذين يتقولون على الإسلام والذين يفتون بما لا يعلمون وترك المسلمون شئون الدنيا وانغمسوا فى مناقشات لا تجدى حول قضايا ثانوية كالمهدى المنتظر والفروع الفقهية، أما الأوربيون فالتقطوا ما أخذوه من العالم الإسلامى وطوروه، واتجهوا إلي تطوير شئون الدنيا، ولكنهم انحرفوا بالإنجازات - بعد أن استبعدوا الدين - إلى التدمير فأصبحت حضارتهم مدمرة وأصبح شرها أكثر من خيرها. فالأسرة قد انحلت، والأخلاق الفاضلة اختفت، والحروب قد كثرت وعنفت.

أمل فى المستقبل :

إن أمل البشرية يرتبط بنهضة إسلامية تطور العلوم والمعارف فى ظل الدين والأخلاق وذلك الأمل قرره : Gourge Sarton بقوله :

سبق للعرب أن قادوا العالم فى مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الإنسانى استمرت الأولى ألفى سنة على الأقل قبل اليونان، وعاشت الثانية طوال أربعة قرون تقريبا خلال العصور الوسطى، وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من أن تقود العالم مرة أخرى فى المستقبل القريب أو البعيد.

رأى الإسلام فى بعض القضايا الغربية

فكر المسلم المعاصر، ما الذى يشغله؟

ولما كان الموضوع وثيق الصلة بعلاقة الإسلام بالفكر الغربى وعلاقة الفكر الغربى بالإسلام، فقد رأيت أن من الضرورى أن أجعله ضمن هذا الكتاب ليعم به النفع .

لكل سؤال جواب :

س١ - العلمانية فى تعريف دعاتها هى الحيلولة دون ممارسة المؤسسة الدينية ورجالها - وليس الدين - لسلطات سياسية وإدارية، خاصة على التعليم العام، فهل هى بهذا المعنى متعارضة مع الإسلام؟ وهل البديل هو حكم رجال الدين؟ وما مكانة الأقليات الدينية فى هذا؟ وما مصير شعار : الدين لله والوطن للجميع؟

ج - إن الإجابة عن هذا السؤال تتضح من عرض الحقائق التالية :

أولا: إن العلمانية بهذا المفهوم هى أيسر أنواع العلمانية، وإن العلمانية فى أكثر الأحوال تخطت هذا المفهوم ووقفت موقفا عدائيا من الإسلام، فهى فى الغالب تهاجم الإسلام والمسلمين، وهذا الموقف يسىء للمسلمين ويثيرهم.

وقد بدأت العلمانية بمهاجمة الكنيسة لأنها حاربت العلم وقتلت بعض العلماء، ثم تطورت العلمانية فهاجمت المسيحية التى تستمد الكنيسة سلطاتها منها، ثم تطورت أكثر فهاجمت كل الأديان وأعلنت الإلحاد.

ثانيا: إن الذعر من المؤسسات الدينية الإسلامية تسبب عن اعتقاد خاطئ، هو الربط بين المؤسسات الدينية فى الإسلام والنظام الثيوقراطى الكاثوليكى الذى كان رجال الدين فيه يدعون الصلة بالله سبحانه وتعالى، وبالتالى يتلقون

الوحى منه، وأنهم يمثلون الله فى الأرض، وكان من حق البابا أن يشرع وليس لأحد أن يناقشه، وهذا الوضع بعيد كل البعد عن المؤسسات الدينية فى الإسلام، وقد تصدي مستشرق غربى شهير لإبراز الفروق بين الجماعتين هو Thomas Amold وهو فى ذلك يقول : إن البابا مميز بسلطاته الروحية، ووظائفه الدينية، وهو يقود أرواح الناس، وهو ليس شخصا مسيحيا عاديا بل إن له سلطة دينية خاصة ويدعى أنه يوحى إليه ولذلك فهو يستطيع أن يشرع، وأن يغفر السيئات، أما الخليفة المسلم فلا يوحى إليه، ولا يشرع، وليس إلا منفذا لأحكام الدين، وإن سلطة تفسير الآيات القرآنية والأحاديث متروكة للعلماء، وإن الإمامة فى الصلاة – التى تعود الخليفة أن يتولاها – كان من الممكن أن يقوم بها أقل فرد من المسلمين.

وتكلم الإمام محمد عبده عن هذا الوضع فقال :

والبابا عند المسيحيين له سلطان إلهى، فهو ينفرد يتلقي الشريعة عن الله، وله حق الأثرة بالتشريع، وله فى رقاب الناس حق الطاعة، لا بالبيعة وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة، بل بمقتضى الإيمان فليس للمسيحى مادام مسيحيا أن يخالفه.

أما تلقي الشريعة في الإسلام فعن القرآن والحديث بدون توسيط أحد من سلف أو خلف مادام المسلم قد حصل على الوسائل الثقافية التى تؤهله للفهم، فإن لم يكن قد حصل على هذه الوسائل، فما عليه إلا أن يسأل العارفين بها من المسلمين، وله أن يطالب المسئول بالدليل.

ونضيف إلى ذلك فروقا أخرى قررها العلماء بين البابا وبين خليفة المسلمين وهى أن لأهل الحل والعقد فى الإسلام الحق فى عزل الخليفة، ولا يملك أحد عزل البابا، والبابا بيده النقض والإبرام والغفران والحرمان، والخليفة ليس بيده شئ من ذلك، ولا يخصه الدين فى فهم القرآن والعلم بالأحكام بمزية،

بل هو وسائر طلاب الفهم سواء، إنما يتفاضلون بصفاء العقل وكثرة الإصابة فى الحكم.

والحكومة الإسلامية تستمد سلطانها من الشعب لا من الله، وتتولى الحكم بإرادة الشعب، ثم - وهذه نقطة هامة - إذا كانت الحكومة الإسلامية تتبع القوانين التى شرعها الله فليس ذلك لصلة الحكومة بالله، وليس ذلك نوعا من الكهانة، فالمكلف بقوانين الله هم المسلمون جميعا، والشرع الذي شرعه الله للمسلمين يجب على كل مسلم أن يطبقه من تلقاء نفسه، وأن يهتدى به، وقد اختارت جماعة المسلمين هذه الحكومة لتشرف على تعليم الناس هذا الشرع، ولتشرف كذلك على تطبيقه وتحاسب على إهماله.

ثم إن الشرع الإسلامى ليس قيودا للمسلمين وسلبا لحرياتهم، ولكنه تنظيم لحياتهم ودعم لحرياتهم، وسياسة التشريع الإسلامى ترمى إلي إسعاد المسلمين وإعطاء كل ذى حق حقه، وهى تضع الإطار العام، وتترك للمسلمين أن يجتهدوا وأن يفكروا ويدبروا أمورهم فى حدود ذلك الإطار العام، وتلك هى الروح الإسلامية السامية فقد كان العالم ولا يزال الكثيرون منه يشكون من نظام الميراث، وجاء الإسلام بنظام مثالى ضمن لكل حقه، وتقدمت الفلسفات، وتطورت النظم ولكن نظام الميراث الإسلامى ظل يجذب الناس إليه حتى من غير المسلمين .

وقد اقتبسه الأقباط بمصر بمحض رغبتهم، ومع أن هذا النظام دقيق مفصل فإنه لم يحرم العلماء قديما وحديثا أن يفكروا ويفسروا القرآن الكريم والأحاديث تفاسير تنقل نظام التقسيم فى الميراث من مفهوم إلى مفهوم، ومن الأمثلة القديمة لذلك أن زيد بن ثابت كان يعطي الأم ثلث الباقى بعد نصيب الزوج أو الزوجة إذا اجتمع الأب والأم وأحد الزوجين، مع أن الآية تقول :

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) ﴾ [النساء].

أى أن القرآن يعطى الأم الثلث فى هذه الحالة، ولكن زيد بن ثابت اجتهد فقرر لها ثلث الباقى.

لأنه رأى أن نصيب الأم -لو أخذت الثلث- سيكون ضعف نصيب الأب وذلك يخالف النظام الإسلامى العالم الذي يجعل للذكر مثل حظ الأنثيين إذا تساوى الرجل والمرأة فى درجة القرابة من الميت وفى جهتها، ولما سأل عبد الله بن عباس زيد ابن ثابت: هل فى القرآن ثلث الباقى؟ أجاب زيد: أنا أقول برأيى وأنت تقول برأيك، وأخذ أغلب الأئمة فيما بعد برأى زيد بن ثابت(١).

ومن الأمثلة الحديثة مسألة الأحفاد الذين مات أبوهم قبل جدهم ولهم أعمام يحجبونهم من الميراث، فقد كان هؤلاء محجوبين بناء على المذاهب الأربعة،

ثم كثرت الشكوى من حرمان هؤلاء الأحفاد مع تساويهم فى الدرجة مع أبناء أعمامهم الذين سيئول لهم الميراث، وبذلك تكونت لجنة من العلماء فى مصر، ودرست الموضوع، واطلعت على مذاهب إسلامية كثيرة، واجتهدت للتوفيق بين النصوص وبين الصالح العام، وانتهت إلي إعطاء هؤلاء الأحفاد

(١) زيد بن ثابت كان أستاذاً لعبد الله بن عباس.

نصيب أبيهم أو أمهم أو ثلث التركة (الأقل فى الحالتين) متبعة فى ذلك نظام الوصية الواجبة.

وإذا حدث ذلك فى الميراث، فما أسهل أن يحدث مثله فى صور التشريع الأخرى، لأن الميراث أكثر ألوان التشريع الإسلامى تحديدا وتفصيلا.

وهناك مثل آخر يدل على مدى سلطة الحكومة الإسلامية في الأحكام والاجتهاد، فقد روى أن رجلا فى عهد عمر كانت له قضية فجاء يعرضها على الخليفة فأرسله الخليفة إلى "علي" الذي كان يتولى شئون القضاء، فذهب الرجل إلى علي وعنده زيد بن ثابت وعرض قضيته، فتشاور علي وزيد وأصدرا فى القضية حكما، ورأى عمر الرجل بعد ذلك وسأله : ماذا صنعت؟ قال : قضى علي وزيد بكذا، فقال عمر: لو كنت أنا لقضيت بكذا. فقال : الرجل – وقد وافقه رأى عمر – : فما يمنعك والأمر لك؟ فأجاب عمر : إنى أردك إلي رأيى وكيف لى أعرف أن رأيى أحسن من رأيهما؟

ثالثا: ليس فى الإسلام رجال دين يستقبلون الوليد ويعمدونه أو يربطون عقدة الزواج، أو يحضرون الوفاة ليضمنوا النجاة للإنسان بأدعية معينة أو بصكوك غفران كما كانت الحال فى العصور الوسطى لدى الكاثوليك. ولغير المسلم أن يدخل الإسلام، وليس عليه إلا أن ينطق بالشهادتين، وإذا تزوج المسلم فإن ذلك يكون بإيجاب وقبول مع شاهدين حتى يوجد نوع من الإعلان وإشهار هذه العلاقة الجديدة.

أما ما يسمى "المأذون" وهو موظف مدنى فليس إلا للرسميات فى حالة الخلاف أو عدم تنفيذ الالتزامات، وقد عاش أجدادنا مئات السنين بدون هذا "المأذون" ويموت المسلم فيرتبط مستقبله بما قدم من أعمال، ولا يبقى له إلا ما حدده الحديث الشريف الذى يقول: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» (البخارى باب الجنائز).

وفى الإسلام علماء فى شئون الشريعة تخصصوا فى ذلك كما يتخصص إنسان فى الطب أو الهندسة، ولا يمنحه تخصصه فى الشريعة أن يصبح من رجال الكهنوت إذ من الثابت ألا كهانة فى الإسلام.

رابعا: إذ كانت مصر من أكثر الدول الإسلامية ارتباطا بالإسلام وعناية بدراسته، وتصدر عنها أهم الكتب والبحوث الإسلامية فإننا نتساءل : أين المؤسسة الدينية التى تتطلع للحكم فيها؟

هل هى الأزهر الشريف؟ إن الأزهر لا يطمع فى ذلك ولا نطمع نحن فى أن يصبح رجال الأزهر حكاما، لشىء واضح هو أن الحكم والإدارة علم أو علمان مهمان، وللأسف خلت مناهج الأزهر من دراسة العلوم المختلفة التى تؤهل المتخرج من الأزهر لتولى السلطة والإدارة، وطبيعى أنه لا يتولى أمور الناس إلا من يعرف شئون السياسة والاقتصاد والزراعة والصناعة والحرب وغيرها، ولا يمكن أن يتولى أمور الدولة من يجهل هذه الأمور.

فإذا وجد من بين علماء الدين من درس شئون الحكم والتزامات الدولة فى المجالات المختلفة من سياسة واقتصاد ونظم إجتماعية وعسكرية وزراعية وصناعية. فليس هناك أبدا ما يمنع أن يتولى هؤلاء ما يجيدونه من سلطات سياسية وإدارية، ومن الظلم أن نحرمهم من ذلك، وقد وجد فى إندونيسيا حزب سياسي إسلامي هو حزب "ماشومى – مجلس شورى مسلمى إندونيسيا" وهو حزب يعنى عناية كبيرة بالفكر الإسلامى، وزعيمه اسمه "محمد ناصر" وهو رجل واسع الثقافة فى الفقه الإسلامى وفى أمور الدين بوجه عام، وبالإضافة لذلك يجيد الشئون المتنوعة للدولة.

وكان من أعضاء الحزب عدد كبير يجيد أمور السياسة والإدارة وحاجات الدولة المختلفة من زراعة وصناعة وعلاقات خارجية ولغات أجنبية، كما كان من أعضائه عدد من الجنرالات المشهود لهم بالكفاءة العسكرية العالية، وقد تولى

هذا الحزب الحكم فحقق للبلاد كل رفاهية وتقدم، وكان العائق الوحيد أمامه هو الرئيس سوكارنو الذي كانت له ميول يسارية، فحدث صدام بين القوتين قضى عليهما جميعا.

وكان فى أندونيسيا كذلك حزب آخر سياسيا إسلاميا هو حزب "نهضة العلماء" وقد اشترك بنجاح فى حمل أعباء السياسة والحكم عدة سنوات.

وقبل هؤلاء وأولئك حكم عمر بن الخطاب عالما فسيحا باسم الإسلام، وينبغى أن نتعرف على عهده وعهد نظرائه، وسنرى أنه نموذج يجب أن يقتدى به الحكام الآن وبعد الآن وإلى يوم الدين.

واستقلت الباكستان عند الهند باسم الإسلام وتولى شئونها ردحا من الزمن جماعات لها عمق فى الدراسات الإسلامية بالإضافة إلى القدرات السياسية والإدارية فخطوا بالبلاد خطوات طيبة إلي الأمام، واستطاعوا أن يصلوا بالبلاد إلي امتلاك القنبلة الذرية، وإلى أن يضعوا بلادهم فى صفوف البلاد المتطورة على الرغم مما تعانى من عداء الهند وتهديدها.

فإذا حالت العلمانية المذكورة دون ممارسة هيئة كهذه لشئون السياسة والإدارة، فإن ذلك مرفوض ويعتبر بعيدا عن العدل، وعن تكافؤ الفرص، لأنه إبعاد لشخص مؤهل، أو لجماعة مؤهلة ولها كفاءة واضحة : إبعادها عن حق متاح للآخرين، وهذا وضع ظالم نرفضه، كأن معرفة الإسلام والتعمق فيه يحرم صاحبه مما يتاح للآخرين الذين يجهلونه !!

خامسا: وعندما نعارض العلمانية فى موقفها الذي شرحناه فإننا لا نقدم رجال الدين لتولى الحكم بسبب أنهم رجال دين، فالحكم فى تقديرى يكون لمن درس أنظمته وأجاده مع باقى الشروط التى تلزم لمن يتحمل هذه المسئولية كما ذكرنا، فغاية ما نريده ألا نحرم شخصا من تولى السياسة والإدارة لمعرفته

بالفكر الإسلامى، ونحن لا نحب أن نستعمل اصطلاح "رجال الدين" فهذا الاصطلاح ليس موجودا فى الإسلام مناظرا لرجال الدين (الرهبان - أو الأحبار) فى المسيحية أو اليهودية.

سادسا: ونعود للسؤال الذي يخشى على التعليم العام من رجال الدين، فأقول إننى أعتقد أن التعليم العام سيلاقى قمة الازدهار إذا تولاه شخص يعرف - مع قدراته فى السياسة والإدارة - التزامات الإسلام وأخلاق الإسلام ونتساءل : ما النتيجة التى نراها الآن فى التعليم العام وقد تركت وزارة التعليم عشرات السنين بعيدة عن الكفاءات الإسلامية؟

إن المشاهد هو أن التعليم والثقافة قد تدهورتا تماما، ويفد بالجامعة طلاب حاصلون طبعا على الثانوية العامة وهم أشبه بالأميين، ولولا الدروس الخصوصية البعيدة عن جهد الوزارة لكان الطلاب أميين فعلا، وليس فقرهم فقط فى الثقافة بل فى الأخلاق والسلوك، فأين العلم والخبرة التى ظهرت نتائجها فى مجال التعليم العام بإبعاد الكفاءات الإسلامية؟

وقد وضع الإسلام قيما وأخلاقا رفيعة، ولو استطاع مسئول يعرف الإسلام وقيمه ومبادئه أن يغرس هذه الأخلاق فى نفوس النشء، فإن جيلا جديدا سينشأ بمصر يرتفع بالبلاد عما تعانيه الآن من تدهور بسبب ما يشاع وما لا يشاع من أنانية وإهمال وفساد يعوق دور التقدم الذى يمكن أن تحققه البلاد.

إن بعض الآباء الأقباط يحثون أبناءهم بالمدارس على حفظ آيات القرآن الكريم المقررة على المسلمين، ففيها جوانب خلقية تلزم لكل إنسان، وهى تعين على إجادة اللغة العربية، ويقال أن مكرم عبيد باشا كان يحفظ قدرا كبيرا من القرآن الكريم فلن تكون الدراسات الإسلامية عائقا دون تقدم التعليم العام، بل ستكون حافزا للرقى فى الأمور العلمية وفى السلوك والأخلاق.

سابعا: ونجيء الآن إلي نقطة أثارها السؤال وهى مكانة الأقليات غير المسلمة فى دولة يحكمها علماء الإسلام، وتلك فى تقديرى نقطة عجيبة كأن الأقليات غير المسلمة شىء حديث فى العالم الإسلامى، ونوضح حقيقة يجب أن نتذكرها وهى أن الإسلام طارىء على هذه المنطقة الفسيحة، وكان المسلمون خلال فترة ليست بالقصيرة أقلية بالنسبة للمصريين أو الفرس، وشملت العدالة الجميع وبمرور الزمن أصبح المسلمون أكثرية، ولكن ذلك لم يغير من ميزان العدالة السائد، وأرجو أن أوضح أن المصادر الإسلامية المقدسة تلزم المسلمين بحقوق واسعة لغير المسلمين، وفى قمة هذه المصادر القرآن الكريم الذى يقول :

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥) ﴾ [المائدة].

ويقول لمن يدخل الإسلام ويظل أبواه على غير الإسلام :

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) ﴾ [لقمان].

ويوضح القرآن الكريم للمسلمين أدب الجدال مع غير المسلمين فيقول :

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ [العنكبوت].

ويروى عن الرسول ﷺ قوله : «من آذى ذميا كنت خصيمه يوم القيامة» (أبو داود : الخراج) وتيسيرا على الجماعات من غير أهل الكتاب كالفرس عبدة النيران روى عن الرسول ﷺ قوله : «سنوا بهم سنة أهل الكتاب». (الموطأ : باب الزكاة).

وقد روى عن الإمام علي كرم الله وجهه : إن هؤلاء وأمثالهم كانوا أهل كتاب ثم أهملوا كتابهم، ولهذا يعاملون معاملة أهل الكتاب باعتبار الأصل.

وتلقى الرسول ﷺ نصارى نجران بالترحاب وفرش لهم عباءته، وأحسن إلى "سفانه بنت حاتم الطائى" وإلى أخيها "عدى" وكانا قد دخلا المسيحية.

وكان الرسول يحضر ولائم أهل الكتاب ويعود مرضاهم ويزورهم ويكرمهم ويشيعجنازاتهم.

وسار السلف الصالح على هذا النمط، وفى هذا النطاق نشير إلى "العهدة العمرية" التى كتبها عمر بن الخطاب للمسيحيين فى بيت المقدس وفيما يلي فقرات منها نريد التعليق على بعضها :

هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء، من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم، وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، سقيمها وبريئها، وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها، ولا من خيرها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود[1]

وتعليقنا على هذه الفقرة من العهدة العمرية ينصب على نقطتين مهمتين :

النقطة الأولى : ما ورد بها من قوله : "سقيمها وبريئها" فقد كان هناك رأى بأن من يقول بألوهية السيد المسيح يعتبر خارجا عن نطاق أهل الكتاب

(١) الطبرى ج٤ ص١٥٩-١٦٠.

ومشركا مع الله إلها غيره، ولكن العهدة العمرية اعترفت بحقوق أهل الكتاب من اتجه هذا الاتجاه أو ذاك.

النقطة الثانية : كان هناك صراع دام فى فترة طويلة من فترات التاريخ بين بعض الطوائف المسيحية والبعض الآخر، وجاءت العهدة العمرية تقرر الحقوق للجميع فى قوله : "وسائر ملتها".

وعندما دخل الإسلام مصر أعطى عمرو بن العاص البطريرك بنيامين كتاب أمان وأعاده إلي كرسيه بعد أن أقصاه عنه الرومان حوالى ١٣ سنة، وترك له شئون الكنيسة الدينية والإدارية كما يقول المؤرخ المسيحى حنا النقيوسى(١).

هذه هى حقوق الأقليات الدينية فى المجتمع الإسلامى وقد ورثناها جيلا عن جيل، ماذا نرى لو قارنا ذلك بحقوق المسلمين فى البلاد المسيحية، تلك البلاد التى افتتن بها بعض الناس ؟ لو قارنا حالة غير المسلمين بالبلاد الإسلامية بحالة الأقليات الإسلامية فى يوغوسلافيا السابقة وفى الفلبين وفى إسرائيل لعرفنا سماحة الإسلام، ولخجل العلمانيون من نتائج هذه المقارنة.

ومما ثبت جليا التزام المسلمين بحقوق غير المسلمين، واعتبار أن الوطن للجميع لهم فيه ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المواطنين من واجبات وإن اختلفت الديانات.

وما يمكن أن يحدث فى الصعيد من خلافات ليس إلا نتيجة لجذور قديمة من الثأر يحدث مثله بين المسلمين بعضهم والبعض وبين الأقباط بعضهم والبعض كذلك، وإذا رأيت عدوانا من مسلم على قبطى أو من قبطى على مسلم فتأكد أن ذلك راجع إلى ضعف الثقافة الدينية المستنيرة لهذا وذاك، ولو قُدمت هذه الثقافة لهما فإن شعور العداء والتعصب الدينى سيختفيان إلى الأبد.

---

(١) تاريخ النفيوسى ص ٦٠ وصبح الأعشى للقلقشندى جـ١٣ ص٣٢٤.

المؤسسات المختلفة والحكم:

وكما نمنع المؤسسة الدينية من الحكم لو جهلت شئون السياسة والإدارة، فإننا نمنع كذلك أية مؤسسة أخرى من الحكم لهذا السبب، وقد اغتصبت المؤسسة العسكرية الحكم فى بلادنا ردحا من الزمن، فأفسدت الاقتصاد والإسكان والتعليم والزراعة، ودمرت البلاد والعباد، ثم زجت بالجيش فى حروب خاسرة سنة ١٩٥٦ وفى اليمن (١٩٦٢-١٩٦٧) وفى سنة ١٩٦٧ فسقط الآلاف من الشهداء، وضاعت أسلحة بمئات الملايين من الدولارات، وكل ذلك لجهل هذه المؤسسة بالمسئولية العظمى التى يجب أن تتوافر فى الحكام.

س ٢ - الإسلام يدعو للفكر وإعمال العقل، ومع ذلك يرفض بعض ممن يرفعون راية الإسلام الفلسفة الغربية التى تقوم أساسا على العقل، فهل هم محقون فى ذلك ؟

ج - الإسلام يدعو للفكر وإعمال العقل، هذه حقيقة أثبتها القرآن الكريم فى عدة آيات، ولو أجرينا إحصائية عن الآيات القرآنية التى تحث على استعمال العقل وتهاجم من يهمل العقل والفكر لقدمت هذه الإحصائية عددا كبيرا من الآيات القرآنية فى هذا المجال، ومثل هذا مجموعة من الآيات القرآنية الكريمة التى تحث على إعمال الفكر والاستفادة من البحث والدرس فى هذا الكون، ونذكر فيما يلى بعضها :

- ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾ [البقرة]

- ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [الحج].

- ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) ﴾ [الإسراء].

- ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) ﴾ [آل عمران].

- ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) ﴾ [يونس].

- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) ﴾ [الروم].

- ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) ﴾ [الزخرف].

- وقد وردت آيات كثيرة تعرض نعم الله وتوجيهاته وتختم بقوله تعالى :

﴿ أفلا تعقلون ﴾ [البقرة ٤ وآل عمران ٦٥ والأعراف ١٦٨ وهود ٥١) أو تختم بقوله تعالى : ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ [الأنعام :٨٠] وآيات أخرى كثيرة مجملة ومفصلة تحث الإنسان علي استعمال الفكر وإعمال العقل، وقد عُنى ابن رشد

بإثبات أن الشريعة الإسلامية حثت على النظر العقلى وأوجبته، وقد أخذ ذلك من الآيات القرآنية التى أوردناها ومن غيرها من الآيات. وذلك بخلاف الكنيسة التى كانت تقف فى وجه العقل والمعرفة كما حدث لجاليليو وسرفتوس.

وإعمال العقل شىء اهتم به بعض الفلاسفة قبل الإسلام، وتروى دائرة معارف وجدى فى مادة (إله) حوارا دار بين سقراط وأريستوديم وهو حوار اعتمد على العقل وأدى أحسن النتائج وهاك نصه :

سقراط : أيوجد رجال تعجب بمهارتهم وجمال صنائعهم ؟

أريستوديم : نعم، أعجب فى الشعر القصصى بهومير، وفى التصوير بزوكسيس، وفى صناعة التماثيل بيوليكتيت.

سقراط : أى الصناع أولى بالإعجاب، الذي يخلق صورا بلا عقل ولا حراك، أو الذى يبدع كائنات ذات عقل وحياة ؟

أرستوديم : طبعا الذى يبدع الكائنات المتمتعة بالعقل والحياة إذا لم تكن تلك من نتائج الاتفاق (المصادفة).

سقراط : وهل يمكن أن يكون من الاتفاق أن تعطى الأعضاء لمقاصد وغايات خاصة؟ عين ترى، وأذن تسمع، وأنف يشم، ولسان يتذوق، والعين تحاط بحراسة لحساسيتها وضعفها، فتقفل عند النوم أو عند الحاجة، وتحرس بالعظام المحيطة بها وبالرموش والحواجب، ويجعل للأذن جهاز خارجى يجمع لها الصوت، هل يمكن أن يكون كل ذلك من نتائج الاتفاق والمصادفة؟

والميل المودع فى النفوس للتناسل، والحنان المخلوق فى قلوب الأمهات بالنسبة للأولاد، مع ندرة أن ينفع ولد أباه أو أمه، والطفل الذى يلهم الرضاعة بمجرد ولادته... هل يمكن أن يكون ذلك كله من نتائج الاتفاق ؟

أريستوديم : لا، إن ذلك يدل على الإبداع، وعلى أن الخالق عظيم يحب الكائن الحى، ولكن لماذا لا نرى الخالق ؟

سقراط : وأنت أيضا لا ترى روحك التى تتسلط على أعضائك فهل معنى هذا أن تقول إنه لا روح لك لأنك لا تراها ؟

وانتهت هذه المحادثة بإيمان أريستوديم.

ويقول الأستاذ مومنيه : إذا افترضنا بطريقة تعلو عن متناول العقل أن الكون خلق اتفاقا بلا فاعل مريد مختار، وأن الاتفاقات المتكررة توصلت إلى تكوين الرجل، فهل يعقل أن الاتفاقات أو المصادفات تكون كائنا آخر مماثلا له تماما فى الشكل الظاهرى، ومباينا له في التركيب الداخلى وهو المرأة بقصد عمارة الأرض بالناس وإدامة النسل فيها؟

ولكن الإنسان فى استعمال العقل شط فى كثير من الأحيان لأن هناك أمورا لم يستطيع العقل استيعابها، فهناك جماعة وصلوا بعقولهم إلي عبادة الأشخاص والأصنام والأوثان بحجة واهية هى " نتبع ما ألفينا عليه آباءنا" وقد سخر منهم القرآن الكريم فقال :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة].

وتزوج بعض الناس من أمه أو اخته فانقطعت بذلك صلة الأرحام لحدوث خلافات طبيعية بين الزوج والزوجة.

وحدث كثير من الجور فى نظام الميراث لأن عقولهم أوحت لهم بأن يكون الميراث للذكور فحرموا الإناث أو للكبار من الذكور الذين يستطيعون حمل السلاح والدفاع عن القبيلة فحرموا الذكور الصغار من الميراث[1]، كما أشاعوا

(١) بل ورثوا القطط والكلاب.

العَضْل (المنع من الزواج) وورثوا زوجة الأب فأصبحت زوجة الأب ملكا لابن المتوفى وشاع باسم العقل ما نراه الآن فى الغرب من الاتصال غير المشروع بين الشاب والشابة والحمل سفاحا حتى أثبتت الإحصائيات أن سدس المواليد سنة ١٩٦٧ فى نيويورك كانوا من علاقات غير شرعية وبهذا وجد ملايين المواليد الذين لا يعرفون آباءهم ولا يستمتعون بجو الأسرة.

وباسم العقل شاع الخمر والربا والميسر ولا يزال شائعا.

وقد تفضل الله سبحانه وتعالى فأنقذ البشرية بأن شرع لهم مالم يستطع العقل الوصول إليه من تلقاء نفسه.

فجاءت النصوص القرآنية ونصوص الحديث الشريف توضح للمسلمين المعالم التى يسيرون على ضوئها فيما تضاربت فيه العقول وشطت عن الصواب، فكثرت الآيات القرآنية التى تثبت وجود الله سبحانه وتعالى وتثبت وحدانيته.

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

وقال : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) ﴾ [الأنبياء].

وجاءت النصوص تحدد الميراث وتقرر لكل ذى حق حقه، وختمت آيات المواريث بقوله تعالى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤)﴾ [النساء].

وجاءت نصوص تنظم الزواج والطلاق والمحرمات من النساء وهى نصوص معروفة لا داعى لإيرادها هنا.

وجاءت نصوص تحرم الخمر والميسر والربا وهى نصوص معروفة كذلك.

وجاءت أحاديث الرسول ﷺ تشرح وتفصل وتضيف أحيانا.

ومن الواضح فى الفكر الإسلامى أنه لا اجتهاد ولا إعمال للعقل فيما فيه نص، فقد أورد الله هذه النصوص عندما ضعف العقل وانحرف فى بعض القضايا، فجاءت كلمة الله غلابة، لا يجوز معها استعمال فكر ولا إعمال عقل.

ومن هنا يرفض المسلمون الفلسفة الغربية التى تتنافى مع النصوص الإسلامية، تلك الفلسفة التى تبحث فى الميتافيزيقا وما وراء الطبيعة، وتعرض العقل الذى يعجز عن معرفة الأمور العادية فى كثير من الأحوال ليتكلم عن الله سبحانه وتعالى فى كثير من الحدس الذى يضر ولا ينفع، وليست الفلسفة الغربية فى هذا المجال إلا شطحات لا تصل إلى نتيجة، ومن الواضح أن العقل العادى يعجز عن معرفة كيف يفكر الإنسان، أو كيف يبصر أو يسمع مع أن طبيب العيون يعرف كيف يبصر الإنسان، وطبيب الأذن يعرف كيف يسمع الإنسان، فهذه الأشياء من شأنها أن يدركها العقل، ولكنها خفيت إلا على المتخصصين، فما بالك بالأشياء التى سمت عن مدارك العقول والأفهام جميعا.؟

والمسلمون عندما يرفضون السير خلف العقول الغربية التى تشطح فيما يضعف العقل عن الوصول له، هؤلاء المسلمون يؤيدون ويشجعون أن نتابع الإنجازات الغربية المفيدة فى مجال الاختراع والإبداع فى عالم التكنولوجيا الذي حقق فيه الفكر الغربى كثيرا من التقدم، فالباب مفتوح للتعرف على الإبداع

فى مجال صناعة السيارات والطائرات والذرة والإلكترونيات والطب وأنواع العلاج، ففى ذلك فائدة لبنى الإنسان، وقد حقق المسلمون الأوائل كثيرا من التقدم فى مجال الطب والرياضة والفلك، وكانوا أساتذة الغرب عدة قرون كما يقول Gourge Satton فليس مرفوضا أن نأخذ من الغرب كما أخذ منا الغرب، فالعلم لا حدود له، وهو كالهواء لا يعترف بحدود ولا بفواصل أقليمية.

وإذا لم يفكر عقل المسلم فى هذا المجال فإنه يوصم بالكسل ويحاسب على هذا الإهمال.

س ٣ - استطاعت المجتمعات الغربية عن طريق الضمير الأخلاقى أن ترسخ الكثير من القيم الحميدة مثل : الكد والاجتهاد، والأمانة، وحسن المعاملة والنظافة ومراعاة الصالح العام، وذلك رغما من ابتعادها عن الدين، ولم نستطع نحن أن نفعل ذلك رغم أننا ندين بالإسلام الذى يحض على هذه القيم، فلماذا ؟

ج - لا يستطع منصف أن يقبل الزعم أن الجماعات الغربية رسخت عن طريق الضمير الأخلاقى الكثير من القيم الحميدة.

فأين الأمانة فيما سلبوه وما يسلبونه من الثروات الخام بالعالم الثالث ؟

وأين الأمانة وحسن المعاملة عندما سلموا فلسطين لليهود بعد أن عينوا هربرت صموئيل الصهيونى مندوبا ساميا لانجلترا بفلسطين فخان بإيعاز من الغرب أمانة الانتداب وانحاز لليهود فى كل الشئون فكون منهم جيشا، وعمل على أن يمتلك اليهود الأرض، واتخذ الوسائل الظالمة ليبيع الكثيرون من الفلسطينين أرضهم لليهود.

وأين مراعاة الصالح العام فى تدمير العراق بعد أن أخرجت من الكويت؟

وأين الأمانة فى ترك المسلمين للمذابح فى البوسنة والهرسك، وكوسوفا والفلبين بينما يثورون وترتفع أصواتهم لو قتل يهودى واحد أو قبطى واحد بمصر.

وأين الضمير الأخلاقى وهم يحصدون السكان الأصليين حصدا فى الولايات المتحدة وكندا واستراليا ؟ وأين كان الضمير الأخلاقى وهم يصطادون السكان من أفريقية لرحلة عبودية قاسية فى البحار حتى أمريكا حيث يبيعون الأحرار فى سوق النخاسة[١].

قد تبرز بعض الصفات الطيبة فى بلادهم، وفى معاملاتهم مع بعضهم البعض، ولكن عندما يتعاملون مع الشرق أو مع غير بنى جلدتهم فإن التمييز العنصرى والظلم وسوء المعاملة تكون أبرز صفاتهم.

بل أن دراسة نظام الإقطاع فى أوربا قبل الحروب الصليبية تبرز الوجه المعتم للمجتمعات الغربية، وتثبت غيبة الأخلاق الحميدة فى كل ربوع أوربا تقريبا.

على أننا نلفت النظر إلي نقطة مهمة فلم يكن الضمير الأخلاقى الغربى هو الذي ابتدع القيم الحميدة عند الجماعات الغربية، والباحثون الغربيون أنفسهم يقررون أن هذه القيم اقتباس من الإسلام والمسلمين عندما اتصل الغرب بالساحة الإسلامية فى الأندلس وفي فترات الهدنة خلال الحروب الصليبية بمصر والشام، وكان الغرب قبل ذلك يوصف كما يقول غوستاف لوبون، وإمرتون، وأناتول فرانس بالجهل والبربرية والوحشية ويقرر هؤلاء أن الغربيين عن طريق صلاتهم بالمسلمين اقتبسوا مع العلوم والمعارف مجموعة من الأخلاق الإسلامية، وعن هذه الاقتباسات من العالم الإسلامى ننقل سطورا من أقوال الباحثين الغربيين المنصفين ومنها يتضح أن الأخلاق التى يظن بعض الناس أنها هبة الضمير الأخلاقى هى فى الحق هبة الإسلام للمجتمع البشرى.

---

(١) ولننظر الآن إلى ما تفعله إسرائيل بتشجيع من الولايات المتحدة حتى يشنون حرب إبادة وتدمير للبنية التحتية فى غزة بذريعة خطف جندى إسرائيلى وكذلك يشنون حرب إبادة فى لبنان بذريعة خطف جنديين إسرائيليين على يد حزب الله ، ويتعمدون قتل المدنيين بلا رحمة .

يقول غوستاف لوبون : أخذ الغرب عن المسلمين أخلاق الفروسية واحترام المرأة، وإذن فليست المسيحية كما يظن بعض الناس فى الغرب هى التى أنصفت المرأة بل الإسلام.

ويذكر أرنولد توينبى أن العالم العربى كان فى العصور الوسطى يمثل محطات إرسال أمكن عن طريقها للغرب أن يقتبس - مع كنوز الفكر والمعرفة - صفات خُلقية مثل التسامح الدينى والاتجاهات الإنسانية التى أسرت قلوب الغربيين.

وهناك باحث حديث هو المؤرخ الأمريكى بول كولز، وقد ألف كتابا عنوانه "العثمانيون أنعشوا أوربا وخربوا المشرق العربى" وعنوان الكتاب صورة لمحتوياته، فقد خرب العثمانيون العالم العربى، ولكنهم أدخلوا إلى أوربا كثيرا من تعاليم الإسلام وسماحته مما جذب له عدة ملايين فى بلغاريا ورومانيا ويوغوسلافيا واليونان والمجر وألبانيا وهؤلاء الذين دخلوا الإسلام كانوا من أهل البلاد الأصليين، وليس هناك من يدعى أن العثمانيين أجبروا أحدا على التحول إلي الإسلام وعن طريق هؤلاء تسربت صور من أخلاق الإسلام إلى أوربا كلها.

أما عن النظافة التى وردت فى هذا السؤال فإننا نلجأ

إلى Stanley Lane - Poole الذى يقول :

وللحمامات شأن كبير فى المدن الإسلامية، لأن النظافة عند المسلمين ليست من الإيمان فحسب، بل هى شرط لازم لأداء الصلوات والعبادات بشكل عام، ذلك فى حين كان مسيحيو العصور الوسطى ينهون عن النظافة ويعدونها من عمل الوثنيين، وكان الرهبان والراهبات يفخرون بقذارتهم حتى أن راهبة دونت ببعض مذكراتها في صلف وعجب أنها إلي سن الستين لم يمس الماء منها إلا أناملها عندما كانت تغمسها فى ماء الكنيسة المقدس، وحينما عادت أسبانيا

إلي الحكم المسيحى أمر فيليب الثانى زوج مارى ملكة إنجلترا بهدم كل الحمامات العامة فى أسبانيا.

وعلى هذا يمكن القول إن نظافة المدن الغربية تراث إسلامى أدركه الغرب من صلته بالعالم الإسلامى وغضب الغرب عليه حينا ثم تبناه عندما عرف فائدته.

أما لماذا لم تتضح هذه القيم لدى المسلمين فتلك نقطة نعترف بها للأسف الشديد ولكنا نوضح أن السبب يأتى من جانب المسلمين وليس من جانب الإسلام.

فالذى يدرس الإسلام يدرك من مصادره الرئيسية أن الإسلام اهتم بهذه القيم الخلقية أعظم اهتمام ويتضح ذلك لمن يقرأ القرآن الكريم والآيات التى تتحدث عن حرية التدين، والإخلاص فى العمل، وإتقانه، وبر الوالدين، وحق الجار، وحق اليتيم، وتتحدث عن الكرم، والبخل، والإسراف، والتقتير، والاعتدال، وعن الصبر، والعفو، والعدل، والمساواة، ومحاربة الإسلام للطبقية، والرشوة، والغيبة والنميمة، والكذب والحسد، وإشاعة الفرقة، والخلافات، ومحاولة التعرف على عورات الناس، والكبر، والغرور، ولا تكاد توجد مخزاة خلقية إلا حاربها الإسلام وحذر منها ولا توجد مفخرة خلقية إلا حث عليها الإسلام وأمرنا باتباعها.

وقد كتب الإمام الغزالى فى إحياء علوم الدين القسم الرابع وسماه المنجيات وفيه شرح واف لما أسماه " رياضة النفس، وآفات اللسان، وذم الغضب، والحقد والحسد، وذم البخل"، كما شمل أحاديث طويلة عن فضيلة الرفق، والعفو، والإحسان، وكتب فضيلة الشيخ محمد الغزالى كتابا مهما عن "أخلاق المسلم".

وإذا تدارسنا عصر الرسالة نجد الرسول ﷺ نموذجا فى بيته مع زوجاته وأولاده وأحفاده وخدمه، ونجد له علاقة بأصحابه تعتبر مثالا رائعا لمعاملة الأصدقاء، ونجد له عظات وأوامر واضحة عن تربية الفرد المسلم وعن الأخلاق الإسلامية التى كان يغرسها بين المسلمين فى علاقاتهم بعضهم والبعض وكيف ربى المجتمع الإسلامى وربى الولاة والحكام ووجه الشباب (اقرأ هذه الدراسة فى الجزء الأول من موسوعة التاريخ الإسلامى للدكتور أحمد شلبى ص ٢٨٩ - ٤٢٣).

هذه هى أخلاق الإسلام كما جاءت فى القرآن والحديث، ولكنا نعترف للأسف أن المسلمين بعدوا عن هذه الأخلاق لأسباب كثيرة هى ما عانوه من حرب مع الصليبيين والتتار والاستعمار والصهيونية فقد اتضح للمسلمين أن هؤلاء لا يعترفون بالعدل والمساواة والصدق والأمانة، فتخلق المسلمون بأخلاقهم وهم يواجهونهم.

وليس للمسلمين عذر الآن فى ذلك فيما اعتقد فقد كان عليهم أن يثوبوا للرشد بعد أن خفت أو توقفت هذه المعارك، ولكنا للأسف الشديد نرى الهيئات الإسلامية التى تسيطر على التعليم اتجهت فى دراستها للحواشى وتركت لب الموضوعات، وحسبك أن تنظر فى مناهج المعاهد الإسلامية فستجد اهتماما كبيرا بموضوعات فقهية تتحدث عن الوضوء والاستنجاء والتيمم والجبيرة بالكثير من التفصيل.

ولكن ليست هناك أية دراسة ذات بال عن الأخلاق والقيم الإسلامية كما لا توجد ملاحظات لتؤكد السلوك الإسلامى عند طلاب هذه المعاهد، وتوجد فى المعاهد الإسلامية أحاديث عن خرافات كثيرة وكثير من الإسرائيليات وتنال هذه من بعض الباحثين والمؤلفين جهدا أكثر مما تنال الأخلاق والقيم الإسلامية. ولابد من تدارك هذا الأمر حتى يعود المسلم لأخلاق الإسلام وقيمه.

ويقال إن طالبين من الغرب عرفا الإسلام عن طريق اتصالهما ببعض الدعاة المسلمين المستنيرين فاعتنق الطالبان الإسلام، وخصصت إحدى الدول الإسلامية منحتين لهذين الطالبين ليكملا تعليمهما فى الجامعات الإسلامية العربية.

وفرح الطالبان بهذه المنحة، وسرعان ما شدا الرحال إلي الجامعة الإسلامية العربية، والتحقا بحلقات العلم، وظلا على ذلك بضعة شهور ثم أقبلا على ما أقبل عليه الأستاذ الإمام محمد عبده من قبل، عندما يئس من الدراسة بالجامع الأحمدى وعاد لقريته ليعمل فى الزراعة، فشد الطالبان الرحال مرة أخرى للعودة للوطن، ولما سئلا عن ذلك أجابا بأن ما يسمعانه في المحاضرات بعيد عن الإسلام ولا يجذبهما إليه، فخلال هذه الشهور كان الحديث عن أنواع المياه وعن الجبيرة وعن المنطق وعلم الكلام وشواذ القواعد، وما لهذا جاء هذان الطابان وتركا الوطن والأهلين، وصرخ الطالبان أين الفكر الإسلامى، وأين حضارة الإسلام ؟ وأين أخلاقه ؟ وأين اللغة العربية الفصحى وبلاغتها؟.

ما أجدر هذين الطالبين بالإشفاق، لم يجدا فى معاهد الإسلام إسلاما فقنعا بما عرفاه من مبادىء جذبتهما من قبل إلي الإسلام وعادا قبل أن تأخذهما دوامة المناهج الحالية.

ونشهد كذلك زحف الإسلام فى هذه الأيام لدى أرقى الأوساط وكبار المثقفين بأوربا والولايات المتحدة، وليس إقبالهم على الإسلام إلا نتيجة القراءة عن الفكر الإسلامى السليم، أو الالتقاء ببعض الموهوبين المخلصين من الدعاة وهم قليلون.

تلك هى المناهج التى تقدم الآن باسم الإسلام، وهى فى الحق لا تحمل الإسلام، ولا تغرس أخلاقه، وبسببها يعيش العالم الإسلامى فى اضطراب وقلق، وما أجدرنا أن نسرع باحثين عن الإصلاح والعودة للمناهج الإسلامية الحقيقية.

أصدر أخيراً مجموعة من الكتب بعنوان : "كتب التنوير الحقيقى" ومنها كتاب عنوانه "الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاق" وقد جاء فيه مما يتصل بموضوعنا ما يلى :

وقبل أن نعطى نماذج من الأخلاق الإسلامية ينبغى أن نعطى بعض الدراسات التى توضح مكانة الأخلاق الإسلامية بالنسبة للدين الإسلامى :

يقول تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) ﴾ [الماعون] فالذى يظلم اليتيم ويقهره مكذب بالدين وجاهل بالتزاماته ومقصر فيها.

ويقول تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) ﴾ [الحج] فجمع الله سبحانه وتعالى بين عبادة الأوثان وبين شهادة الزور فى القبح وضرورة الاجتناب.

ويقول تعالى : ﴿ ويل للمطففين... ﴾ [المطففين] والويل واد فى جهنم لأولئك الذين يبخسون الناس حقوقهم في كيل أو وزن أو ميراث أو قسمة أو ما يشابهها فهؤلاء إيمانهم رغير كامل ولذلك هددهم الله بالويل والهلاك.

وفى حديث للرسول ﷺ وهو يتحدث عن الأمانة يقول : «لا إيمان لمن لا أمانة له وإن صام وصلى». (مسند أحمد).

وعن الرسول ﷺ إنه قال :

– أثقل مايوضع فى الميزان يوم القيامة حسن الخلق. (مسند أحمد).

– وسأله مرة رجل : ما الدين يارسول الله ؟ فقال : حسن الخلق. (الموطأ ومسند أحمد).

– وقيل للرسول إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل ولكنها تؤذى جيرانها فقال : هى فى النار.

– وقال : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق. (الموطأ ومسند أحمد).

وهذا كله يوضح مكانة الأخلاق فى هيكل الإسلام.

هذه نماذج من الأخلاق الإسلامية التى تربى مجتمعنا إسلاميا سليما، وفى ختامها قلت :

" هذه نماذج من أخلاق الإسلام، فعلى كل مسلم أن يرعاها كما يرعى الصلاة والصوم فبها يكمل الإيمان وينال المسلم رضا ربه، وقد اقتبس كثيرون من غير المسلمين هذه الأخلاق، وغابت هذه الأخلاق أو كادت تغيب للأسف عند الكثيرين من المسلمين فلنتدارك الأمر بحزم وعناية والله ولى التوفيق".

" إننا نرى المساجد مزدحمة بالمصلين، ونرى المسلمين جميعا تقريبا يصومون شهر رمضان ونشاهد ملايين المسلمين يؤدون فريضة الحج، ولكنا للأسف نرى غيبة الأخلاق الإسلامية ولذلك أدعو كل مسلم أن يحزم أمره ويتخلق بإصرار بالأخلاق الإسلامية ليكتمل دينه، وإننا لو فعلنا ذلك فسنكسب الجولة أمام التحدى الذى نواجهه الآن من أعداء الإسلام، وقد بلغت ، فاللهم أشهد".

إننا نطالب بإعادة النظر فى المناهج الإسلامية، فندخل عليها مواد كانت أساسية فى صدر الإسلام كالحضارة الإسلامية ومقارنة الأديان والأخلاق الإسلامية ونقلل من العلوم التى شغلت المناهج دون أن تظهر لها أية فائدة كالمنطق والتعصب للمذهبية والتفاصيل في دراسة الفقه، ونحذف الغموض والإسرائيليات من تفسير القرآن الكريم، وفى تدريس اللغة العربية لا نقنع بالنحو والصرف، وإنما نهتم بالقراءة والكتابة والإلقاء حتى لا يوجد متخرج من كليات اللغة وهو عاجز عن التعبير عن نفسه بالكلمة المقولة أو الكلمة المكتوبة.

س ٤ - دخل استقبال القنوات التليفزيونية الغربية الكثير من البيوت عن طريق الأطباق، فهل يجوز استقبالها بكل ما تنقله من أشياء قد تتعارض مع قيمنا وديننا ؟

ج - ماذا يحدث لو اجتاح العالم إعصار من القيظ أو البرد أو الأوبئة المعدية كالكوليرا مثلا ؟

هل نستطيع قفل الأجواء بيننا وبين هذا الوافد الخطر؟

الإجابة بالنفي وكل ما تقدمه المدنية هو وسائل حماية، كوسائل التبريد والتكييف الخاصة أو المركزية كذلك وسائل التدفئة لمقاومة الصقيع، ثم التطعيم ضد الأمراض المعدية.

وما تنقله القنوات التليفزيونية الغربية هو مشابه للأمراض المعدية لا نستطيع منع استقبالها وبخاصة لأنها تجيء وسط موكب حافل من الفكر يحتاج المثقف لبعضه أو للكثير منه ولكن الذي نستطيعه ويلزم أن نعمله هو عملية التطعيم، وعملية التطعيم هنا هى تقديم ثقافة دينية ووطنية وخلقية للمشاهد حتى يستطيع أن يستقبل ما يفيد ويعرض عما يتنافى مع قيمنا وديننا.

فى أوربا كثير جدا من الأشياء التى تخالف قيمنا وديننا، ومن أيسرها العلاقات الصريحة غير الشرعية بين الفتى والفتاة وشرب الخمر الذي كان أحيانا هو الشراب الوحيد على المائدة، بل فيها ما هو أبشع من ذلك كان منها "منظمة شهود يهوه" التى تعمل لحساب الصهيونية، ويتجه أكثر نشاط هذه المنظمة إلي البلاد التى بها جامعات إقليمية يلتحق بها بعض الطلاب الغرباء، أو التى بها مصانع يتدرب بها بعض العمال وأمثال هؤلاء الشبان يحسون بوحشة، ويتمنون أن يوجد من يعنى بهم في غربتهم، وكثيرون منهم وافدون من الشرق أو بعض دول أوربا الذين ينزحون إلي إنجلترا لمحاولة إجادة اللغة الإنجليزية أو إلى

فرنسا لإجادة اللغة الفرنسية، وبعض هؤلاء الشبان سياح يمضون إجازة ترفيهية فى هذه البلاد.

إن هؤلاء الشباب فرصة سانحة لمنظمة شهود يهوه، فهى تتصيد هؤلاء وتعرض عليهم استعدادها لمساعدتهم وتقدم المساعدات البسيطة فعلا مما يجعل الشاب بعد حين يصبح أسيرا فى أيديهم.

وتكون فرصة منظمة شهود يهوه أعظم عندما يكون الشاب الغريب يعانى من بعض المشكلات فهذا شاب ضاع جواز سفره، أو سرقت نقوده، أو يبحث عن عمل يرتزق منه، فمثل هذا الشاب تلتقطه هذه المنظمة وتحاول فعلا أن تحل أزمته، ونظير ذلك يسلمها الشاب زمام نفسه.

وللتعرف على هؤلاء الشباب وسائل كثيرة تجيدها هذه المنظمة، فلدى مكاتب تأجير الحجرات والمساكن فرصة لتعرف المنظمة شابا يبحث عن مسكن، فتلتقطه المنظمة وتقدم له مسكنا ثم تستغله لأهدافها، أو يتعرض الواحد منهم لفتاة جميلة تدق بابه، وتقدم له بعض الأسئلة عن حالته وحاجاته ومشكلاته، وتعده الفتاة بالعون والمساعدة لحل هذه المشكلات وعن طريق هذا الشاب تتعرف الفتيات على شبان آخرين.

ومن وسائل التعرف على الشبان المغتربين قيام المنظمة بطبع نشرات دورية بلغات متعددة تدعو فيها الشبان إلي مراكز للتعرف والتسلية وقضاء المشكلات الاجتماعية، وفى النشرات عناوين هذه المراكز.

ماذا يحدث فى مواجهة هذه الآفات ؟

طبيعى لم يكون فى مقدورنا أن نوقف تيار ما يسمونه الحرية في مجال العلاقات بين الشاب والشابة، ولا أن نلزم القوم بتقديم الماء القراح على المائدة، ولا أن نطرد من البلاد منظمة شهود يهوه وأمثالها من المنظمات الصهيونية.

وهكذا وقف الشباب وجها لوجه أمام هذه المخاطر، وكان الدواء الوحيد الذى حسن هو شدة الانتماء للدين والوطن، وجاءت الحصانة للأكثرية الغالبة بسبب الثقافة الفكرية الدينية والوطنية التى كان يتمتع بها أولئك المبعوثون الذين كانوا يمثلون طبقة من أعلى الطبقات فى ميزان الوطن.

صحيح للأسف الشديد أن التيار جرف قلة من الشباب العرب والمصريين لقلة ما كانوا يستمتعون به مناعة فى مقاومة هذه الأمراض.

ولا نحب فى الإجابة عن هذا السؤال أن نتوقف عند ما تنقله لنا القنوات التليفزيونية الغربية مما يتعارض مع قيمنا وديننا بل نذكر أن القنوات التليفزيونية المصرية تقدم لنا أحيانا ما يتعارض مع هذه القيم، حيث تعرض القناة الثانية مسلسلا يجذب الكثير من الانتباه عنوان: "The Bold and the Beautiful"

واختير له وقت من السهرة لا يحظى به أى مسلسل دينى فى شهر رمضان المعظم، وهذا المسلسل ردىء الفكرة والأداء، فهو يلح على نقطة أو نقاط منحرفة، ففتاة جميلة تكره زوجها وتحب أخاه، وقد شاع ذلك حتى أطلق الزوج النار على أخيه، ومجموعة من الفتيات حملن سفاحا، وزوجة تخون زوجها وتعترف بذلك ... وهذه المواقف المشينة تكرر وتكرر حتى أن بعض النقاد الصحفيين كتب يقول إنه قاطع التليفزيون مدة أسبوعين للاصطياف، ولما عاد وجد المسلسل حيث تركه، نفس الفكرة ونفس المواقف، ويذكر الأستاذ محمود عبد المنعم مراد أنه سمع أن المسلسل موضوع بوجه خاص للمتخلفات عقليا.

وعلى هذا فالقنوات التليفزيونية الغربية والمصرية سواء فى نقل ما يتعارض مع قيمنا وديننا.

وفى مسلسل الجرىء والجميلات طالما تساءلت : ما الهدف من عرض هذا المسلسل ؟ هل الهدف أن ندفع شبابنا وشباتنا للقدوة التى قد يرى البعض

بأنها قدوة حسنة ؟ الإجابة أننى لا أعرف الهدف من عرض هذا المسلسل الردىء وقد كتب الكثيرون ضده ولكن لا أحد يسمع.

وإذا كنا لا نستطيع منع القنوات التليفزيونية الغربية أو المصرية من تقديم ما تريد، ولا نستطيع منع البيوت التى بها أطباق من استقبال ما تذيعه التليفزيونات الغربية فإن عندنا دواء لذلك هو كما قلنا التطعيم لمقاومة هذه الأوبئة، والتطعيم هنا هو تقديم جرعات متصلة من الدراسات الإسلامية المستنيرة للطلاب فى الجامعات والمعاهد العالية والمتوسطة والمدارس وتقديم جرعات من هذه الدراسات للجماهير عن طريق الدعاة المستنيرين وعن طريق التليفزيون إذا تفضل التليفزيون فأتاح الفرصة للباحثين أن ينتقدوا ما يقدمه هذا الجهاز الوطنى.

لقد رعى التليفزيون المصرى كرة القدم حتى جعل أنديتها تفوق الأحزاب السياسية، وجعل الناس يتابعون الأسواق التى يباع فيها اللاعبون الأكفاء.

ولكن التليفزيون والأندية الرياضية التى جذبت الجماهير لهذه اللعبة فى المدينة والقرية عجزت تماما عن تربية روح رياضية بين اللاعبين والجماهير، فأصبحت الملاعب ليست مكانا لمباريات رياضية بقدر ما هى ساحة لمعركة مدمرة يستغل فيها الطوب والزلط والكراسى وزجاج المياه الغازية.

س ٥ – يضطر بعض المسلمين الذين يعيشون فى البلدان الغربية لقبول أوضاع قد لا تتفق مع الإسلام مثل الطلبة الذين يضطرون لتناول وجباتهم فى مطاعم الجامعات وهو معد بمواد وطرق محرمة إسلاميا فما هو الحكم بالنسبة لهم ؟

ج – إن الأطعمة فى تقديرى أيسر ما يواجهه المسلمون وبخاصة الطلبة فى المجتمعات الغربية فالمسلون فى أوربا يواجهون أخلاقا غير الأخلاق وقيما

غير القيم، والفكر الإسلامى سمح جدا فيما يتعلق بأطعمة أهل الكتاب تبعا لقوله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥) ﴾ [المائدة]

وقد تعرض الفقهاء المسلمون لقضية ذبائح أهل الكتاب فى ضوء هذه الآية الكريمة.

فقد خطر سؤال بأن ذبائح أهل الكتاب لا يذكر عليها اسم الله، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) ﴾ [الأنعام].

وهذا فى غير ذبائح أهل الكتاب ويجب أن يذكر اسم الله عندما يأكل من هذه الذبائح بل التسمية واجبة عند كل طعام.

وفى البخارى أن قوما قالوا للرسول ﷺ : يارسول الله إن قوما يأتوننا باللحم لا ندرى أذكروا اسم الله عليه أم لا، فكانت إجابة الرسول ، فقال الرسول ﷺ : «سموا عليه أنتم وكلوا» (صحيح البخارى).

وخطر سؤال آخر هو أن أهل الكتاب قد يذبحون الذبائح باسم الصليب مثلا وهذا لا يبيح الأكل من هذا اللحم لقوله تعالى :

قال تعالى : ﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ

الـــــشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) ﴾ [الأنعام].

ذبائح أهل الكتاب هذا عام وآية المائدة فلا يجوز أن يأكل المسلم من ذبيحة المشركين .

وأجاب بعض الفقهاء ممن يؤخذ برأيهم بأن النص القرآنى الذي يبيح تناول طعام أهل الكتاب مطلق والله سبحانه وتعالى أباح هذا الطعام مع علمه بما يفعل أهل الكتاب بالنسبة لذبائحهم.

ولكن إذا سمع المسلم التسمية بغير اسم الله فلا يأكل لقوله تعالى :

﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ الـــلَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الـــشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) ﴾ [الأنعام].

وفى إنجلترا هناك أمور أكثر للتيسير يمكن أن يحصل عليها من حاول الوصول لها. ففى لندن هناك جزارون هنود وباكستانيون مسلمون يذبحون الذبح الإسلامى تماما .

من مفاخر القرآن الكريم

من مفاخر القرآن ذلك الإعجاز الذي ظهر فى كثير من آياته وأثبته العلم الحديث بعد أربعة عشر قرنا، ومن ذلك نذكر النماذج التالية :

١- أن رائحة كل إنسان مميزة تختلف عن رائحة غيره من البشر، تماما كبصمات الأصابع، ومن هنا تستخدم الكلاب البوليسية فى تعقب المجرمين، ويتبين ذلك مما جاء فى سورة يوسف من أن الله تعالى جعل يعقوب يدرك رائحة ابنه .

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) ﴾ [يوسف].

٢- كرر القرآن الكريم تقديم السمع على البصر فى آيات كثيرة، وذلك يتفق مع المغزى الطبى، ومع ترتيب اكتساب الحواس لدى الإنسان بعد ولادته كما يتفق مع استمرار حاسة السمع دون البصر ليلا وفى أثناء النوم ويتفق كذلك مع أهمية السمع بالنسبة للبصر فى التلقى والفهم والحفاظ والتفاعل الاجتماعى.

٣- جنس المولود يتحدد أساسا من الحيوان المنوى (للرجل) وليس من بويضة المرأة وهذا يتفق مع قوله تعالى :

قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) ﴾ [النجم] هذا عن جنس المولود، أما الصفات الوراثية الأخرى فتتحدد من ماء الرجل والأم جميعا،

قال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) ﴾ [الإنسان]

فجنس المولود خاص بالرجل، أما باقى الصفات فمن الاختلاط بين ماء الرجل والمرأة. وهكذا أصبحت هذه القضايا حقائق يمكن أن نربط بينها وبين آيات القرآن الكريم.

٤- وفى القرون الماضية وبعض عقود هذا القرن العشرين لم يكن الطب يستطيع معرفة نوع الجنين قبل الولادة، فكانت هذه هى النظرية الموجودة.

وذهب بعض المفسرين إلي تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)﴾ [لقمان]

تبعا لهذه النظرية التى كانت آخر ما وصل له العلم، واعتبروا ذلك سبقا للقرآن الكريم وأنه إثبات أن الله وحده هو الذى يعلم نوع الجنين. ثم ظهر "السونار" حيث أصبح من الممكن معرفة الجنين فى فترة معينة من فترات الحمل.

ولكن الآية الكريمة بقى لها حكمها ومعناها، فالمقصود أنه عندما يلتقى منى الرجل ببويضة المرأة ويبدأ تكوين جنين حينئذ لا يعرف إلا الله نوعه، أما قدرة السونار فتبدأ متأخرة ولا تستطيع معرفة شىء فى الفترة الأولى.

وباستعراض هذه الأسئلة من صحيفة الأهرام الغراء وإجاباتها يتضح للباحث أن ما يسمى "الحضارة الغربية" في جانبها النظرى الأخلاقى أو الفلسفى حضارة ضحلة لا غناء فيها ولم يتفق عليها الفلاسفة الغربيون أنفسهم، بل قامت خلافات بينهم حولها، وفى حالات كثيرة تمرد بعض هؤلاء الفلاسفة عليها، وربما اعتنقوا الإسلام إثر هذا التمرد وعندنا نماذج كثيرة لهؤلاء فى التاريخ الوسيط والحديث.

أما الحضارة الغربية فى المجال المادى التجريبى فهى عالية المستوى

للغاية وجديرة بكل تقدير، فقد استطاع العقل الغربى أن يبدع وأن يبتكر الكثير مما يسر حياة الإنسان، ولكن العقل الغربى كان يعمل بدون حدود وبدون قيم ومن هنا فإنه كما أبدع فى صنع أدوات التعمير، فحقق نجاحا عظيما فى مجال صنع السيارة والطائرة والدواء، نشط وأسرف فى صنع الأسلحة الحديثة لأنها كانت أكثر رواجا، وكان العقل الغربى شديد الحرص على الربح الاقتصادى وانتهى أو نقول قرب من النهاية عندما أنتج القنبلة الذرية والهيدروجينية والصواريخ بأنواعها وأنتج منها المئات والآلاف تلك التى فتكت بالملايين من الأبرياء الشيوخ والنساء والأطفال فى اليابان والعراق، وأثرها على كل إنتاج وترك الغرب الكثيرين جياعا وأنفق المليارات على أدوات التدمير، ومن هنا أصبحت هذه الحضارة مدمرة، تقتل وتبيد أو تترك العالم في خوف وذعر من الإبادة التى صنعت هذه الحضارة وسائلها.

والعلاج الذي نراه هو ضرورة أن تعيش الحضارة الإبداعية فى ظل القيم والأخلاق الدينية لتنتج ما يسعد الإنسان ويعلي قدره، ومن هنا كان الحل فى تقديرى فى واحد من اثنين.

١- أن تنتعش الأخلاق فى العالم الغربى ويزدخر التدين ليعيش التقدم المادى فى ظل الأخلاق والقيم والأديان وهو شيء صعب المنال.

٢- أن تعود اليقظة العلمية للشرق فيقتبس من الغرب ما حققه من تطور، ويزدهر التقدم المادى بذلك فى ظل الإسلام كما كان من قبل.

وليس ذلك صعبا فقد تنبأ به Gorge Sarton. حيث قال : سبق للعرب أن قادوا العالم فى مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الإنسانى، استمرت الأولى طوال ألفى سنة على الأقل قبل أيام اليونان، وعاشت الثانية طوال أربعة قرون تقريبا خلال العصور الوسطى، وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب أن تقود العالم مرة أخرى فى المستقبل القريب أو البعيد، وقد ذكرنا ذلك من قبل.

الحضارة الإسلامية والفنون

كان لزاما عليّ أن أجعل الحديث عن "الحضارة الإسلامية والفنون" ضمن هذا الكتاب، فقد ظهر بين المسلمين جماعات ثقافاتها ضحلة أو لا ثقافة لها على الإطلاق، وراح هؤلاء يحرمون ما أحل الله، فقالوا بضرورة تحطيم التليفزيون وتحريم الصور الفوتوغرافية، وحرم هؤلاء الموسيقى والغناء ... فكان لابد ونحن ندرس الحضارة الإسلامية أن نورد الرأى الصواب حول هذه الفنون حتى لا ندع هذه الجماعات تقول بغير علم، فتحريم ما أحل الله يماثل تحليل ما حرم الله سبحانه وتعالى . فالمشرع فى الإسلام هو الله جل جلاله، ولذلك فنحن ندعو كل المسلمين لمعرفة الرأى الصواب حول موقف الإسلام من الفنون.

ودراسة هذا الموضوع تحتاج إلى صبر وتؤدة، فالناس ينقسمون تجاهه قسمين قسم يميل للتشديد فيحرم كل نوع من أنواع الفنون تقريبا معتمدا على تدهور أخلاقى فى بعضها كالرقص الغربى، الذى يحتضن فيه فتى فتاة ويغيبان فى جو من الهيام والغرام، أو الرقص الشرقى المثير، وكالغناء الذى كثيرا ما تقوم به فتاة أقرب إلى المجون فى ملابسها وحركاتها، وكثيرا ما يصحب الغناء شراب محرم.

أما القسم الثانى فيدرس الأمور بتؤده، فيحرم ما حرمه الله وما يتنافى مع القيم والأخلاق، ويبيح الفنون التى لا تمس القيم والأخلاق، وهذا هو النسق الذي نسير عليه.

وكلمة الفن لها استعمال واسع، وذلك كالحديث عن فن التربية وفن الحرب، ولكنا نقصد هنا الفنون التى يقوم بها الإنسان ليستثير عاطفة الجمال، وهذه الفنون تشمل الشعر والغناء والموسيقى والتصوير والنحت والتجسيم والرقص والعمارة والخط والزخرفة والتمثيل.

القرآن الكريم والشعر :

وقد تكلم القرآن عن فن من هذه الفنون وهو الشعر، ونحن فى كلامنا عن الفنون نسير على النمط الذي شرحناه متخذين القرآن الكريم لنا قدوة فى هذا المنهج، فقد تحدث القرآن الكريم عن الشعر فهاجمه أشد هجوم قال تعالى :

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) ﴾ [الشعراء].

وهذا هجوم واضح وشديد على الشعراء الذين يتحقق فيهم هذا الوصف، وهو أنهم يتبعهم الغاوون الذين يرددون شعر هؤلاء الشعراء، والذين يخوضون فى المدح والهجاء طلبا للمال وعدوانا على الناس، وأنهم يقولون ما لا يفعلون.

ولا شك أن الشعراء من هذا النوع جديرون بالذم والهجوم من القرآن الكريم الذي يعلمنا مكارم الأخلاق. ثم جاء الاستثناء فى الآية التالية، وهو أن الحكم السابق لا ينطبق على الشعراء .

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾ [الشعراء]

أى ردوا الهجاء الباطل بهجاء حق.

وفى هذا المجال نذكر أن الرسول ﷺ شجع حسان بن ثابت على الدفاع عن المؤمنين بشعره كما يدافع الجندى بسلاحه، وسمع فى المسجد زهير بن أبى سلمى فى قصيدته "بانت سعاد" الذي ابتدأها بغزل وتشبيب.

والخلاصة أن الفن قد ينحرف فيذم، وقد يعتدل فيقبل، وعلى هذا يمكن أن ننظر لأى فن من هذه الفنون نظرتنا للشعر ولحكم الله جل وعلا فيه فنقبل ما لايضر الإنسان دينيا واجتماعيا ونرفض ما يكون فيه ضرر.

رأى الإسلام فى الموسيقى والغناء :

الموسيقى والغناء من أشهر أنواع الفنون، ويتضح من المطالعات التى سنعرض لها، أن الغناء والموسيقى فى ذاتهما شىء مباح بل يحسن فى بعض المواقف، فالموسيقى تندب لإثارة حماسة الجند فى الزحف للحرب والجهاد، ويحسن مع الموسيقى فى هذا المقام بعض الأناشيد الحماسية التى يتغنى بها لتدفع الجندى للذود عن الدين والوطن وتذكره بأمجاد أسلافه، وتحسن الموسيقى والغناء كذلك للحجيج على أن تكون بأشعار تثير الرغبة فى الحج، وتصف من الكعبة والمقام ما يجعل المسلم يستسهل الصعب.

ويعمل لينضم لموكب الحجاج، وتحسن الموسيقى والغناء كذلك فى أوقات السرور تأكيدا للسرور وتهييجا له، ما دام هذا السرور مباحا كأن يكون فى عيد أو فى عرس أو لدي قدوم غائب، وفى وقت الوليمة والعقيقة، وعند ولادة المولود وعند ختانه وعند حفظه القرآن الكريم، وسنرى أن الرسول ﷺ حث على استعمال الموسيقى والغناء أو أقر إستعمالهما فى هذه الحالات. فقد روى أن الأنصار قالوا: لقد رخص لنا الرسول باللهو عند العرس (النسائى باب النكاح).

بيد أنا نجد ألوانا من الانحرافات اتصلت بالموسيقي والغناء، فكثيرا ما اشتغل بها فتيات أو فتيان عرف عنهم البعد عن الاستقامة وعن الخلق الطيب، وفى التاريخ كثر المخنثون الذين كانوا يعملون فى الموسيقى والغناء، وفى مجالس الموسيقى والغناء كثر الخمر وبالتالى كثر الانحلال، وكثيرا ما كانت الأغنية تثير الغرائز وتنحط بالعواطف بدل أنر تسمو بها، وكثيرا ما كان الأداء نفسه يحرك الغرائز الدنيا، وطالما انشغل هواة الموسيقى والغناء بذلك وأهملوا واجباتهم الدينية والاجتماعية، وصبوا فى الموسيقى والغناء كل حياتهم.

وهكذا تأثر الباحثون فى الموسيقي وبالغناء بهذه المظاهر التى طرأت على

الموسيقي والغناء، فمال الكثيرون من الباحثين إلى تحريمها والحث على البعد عنهما، ولكنا نريد أن ندرس الموسيقى والغناء دراسة موضوعية، نحل منها ما أحله الله، ونحرم منها ما انحرف واستلزم التحريم، ومن الأبحاث المهمة فى ذلك الموضوع ما دونه الإمام الغزالى، ومنه نقتبس بعض فقرات :

الإمام الغزالى والسماع :

يقدم الإمام الغزالى حديثا علميا يثبت فيه أن السماع للغناء والموسيقى حلال، وهو فى ذلك يقول :

– والقول بأن السماع حرام معناه أن الله يعاقب عليه، وهذا أمر لا يعرف بمجرد العقل بل بالنص، فمعرفة الشرعيات محصورة فى النص أو القياس على النصوص، ولم يستقم فى هذا المجال نص ولا قياس، وبهذا يبطل القول بتحريمه، ويبقى فعلا لا حرج فيه كسائر المباحات، بل إن هناك نصوصا تدل على إباحته، فالغناء سماع صوت طيب مفهوم المعنى محرك للعقل، وسماع الصوت الطيب بالنسبة لحاسة السمع كرؤية الخضرة والماء الجارى بالنسبة للعين فلا يحرم، فإن أدي النظر إلى الإطلاع على شىء حرام، حرم النظر، كالنظر إلي العورة أو النظر بشهوة، وكذلك يحرم السماع إن كان سماعا لشىء غير حلال أو أدى بطريق انحرف به عن الحلال.

وعن أنس أن النبى ﷺ كان يُحْدَى له فى السفر، ولم يزل الحُداء وراء الجمال من عادة العرب فى زمان رسول الله ﷺ وزمان الصحابة، والحداء أشعار تؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة، ولم ينقل عن أحد من الصحابة إنكار ذلك.

– وتأثير الغناء فى القلب سر صنعه الله وأودعه الأصوات، فجعل منها ما يُرح ومنها ما يبكى ومنها ما ينوم ومنها ما يضحك، والصبي يسكته الصوت

الطيب عن البكاء والجمل يتأثر بالحداء فيستخف الأحمال الثقيلة ويستقصر المسافات الطويلة، ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية، وقد قيل : من لم يحركه الربيع وأزهاره، والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج، ليس له علاج.

– ومن النصوص التى تدل على إباحة الموسيقي والغناء إنشاد نساء المدينة بالدف والألحان عند قدوم الرسول ﷺ إلى المدينة :

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

فإظهار السرور لقدومه – عليه الصلاة والسلام – بالشعر والنغمات والرقص والحركات محمود، وقد نقل عن جماعة من الصحابة – رضى الله عنهم– أنهم حجلوا فى سرور أصابهم، وذلك نوع من الرقص جائز فى قدوم كل قادم يجوز الفرح به، وفى كل سبب مباح من أسباب السرور، ومن النصوص كذلك ما رواه البخارى ومسلم من أن أبا بكر دخل بيت الرسول ﷺ فوجد به جاريتين تغنيان، فقال : أمزامير الشيطان فى بيت الرسول؟ فقال الرسول لأبى بكر يا أبا بكر دعهما فإن لكل قوم عيدا وهذا عيدنا. (البخارى: باب "العيدان").

أبو بكر البغدادى والسماع :

ويقرر الحافظ أبو بكر البغدادى فى مؤلفه عن السماع أن من تمسك بتسمية أبى بكر للغناء بمزامير الشيطان قد أخطأ وأساء الفهم من عدة وجوه : منها تمسكه بقول أبى بكر مع أن النبى ﷺ رد هذا القول.

ومنها رجوع أبى بكر إلى إشارة المصطفى.

ومنها إعراض هذا القائل عن إقرار الرسول ﷺ واستماعه الذى لا احتمال فى أنه يقتضى الحل، ومحال أن يعتقد أبو بكر تحريم أمر حضره المصطفى وأقر عليه، مع علم الصديق أنه – عليه الصلاة والسلام – لا يقر على باطل، والصحيح أن يفهم من قول أبى بكر ما يليق به وهو أنه رأى ضرب الدف وإنشاد الشعر لعبا من جملة المباح الذى ليس فيه عبادة فخشى باطنه الكريم من تعظيم حضرة النبوة واحترام منصب الرسالة وشدة الاحتشام، ما حمله على تنزيه حضرته – عليه السلام – عن صورة اللعب، ورأى أن الاشتغال بالذكر والعبادة فى ذلك الموطن الكريم أولى، فزجر عنه احتراما لا تحريما، فرد عليه النبى ﷺ إنكاره لأمرين.

أحدهما أن لا يعتقد تحريم ما أبيح فى الشرع توسعه لأمته ورفقا بها وتفسحا فى بعض الأوقات.

والثانى إظهار الشارع مكارم الأخلاق وسعة الصدر لأهله وأمته فتستريح قلوبهم ببعض المباح فيكون أنشط لهم فى العودة إلى وظائف العبادة.

عودة إلى كلام الغزالى :

ولنعد إلى كلام الغزالى الذي يقرر أن من النصوص التى تبيح الموسيقى والغناء ما رواه بن العباس قال : زوجت عائشة ذات قرابة لها فى الأنصار، فجاء رسول الله ﷺ فقال : أأهديتم إلى الفتاة ؟ قالوا : نعم، قال : أرسلتم معها من يغنى ؟ قالت عائشة : لا، فقال الرسول : إن الأنصار قوم فيهم غزل فلو بعثتم معها من يقول :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم (رواه مسلم).

وعن أنس بن مالك أن النبى ﷺ مر ببعض نواحى المدينة فإذا هو ببعض الجوارى يضربن بدفهن ويتغنين :

نحن جوار من بنى النجار   يا حبـذا محمـد من جـار

فقال ﷺ : "الله يعلم أنى لأحبكن".   (النسائى)

وأخرج الترمذى قوله – عليه السلام – : أعلنوا هذا النكاح واجعلوه فى المساجد واضربوا عليه بالدفوف.

ويعلق الشوكانى على ذلك بقوله : وفى هذا دليل على أنه يجوز فى النكاح ضرب الأدفاف ورفع الصوت بشىء من الكلام على ألا تكون أغانى تهيج الشرور لاشتمالها على وصف الجمال والفجور ومعاقرة الخمور، فإن ذلك يحرم فى النكاح وفى غيره.

متى يحرم الغناء ؟

ويحدد الغزالى إلي الأسباب التى تحرم الموسيقى والغناء، فيجعلها أسبابا طارئة كأن يكون الغناء من امرأة تخشى الفتنة من سماعها، أو من صبى أمرد كذلك، أو أن تستعمل فى الموسيقى آلات من شعار أهل الشرب المخنثين، أو أن يكون الكلام الذي يغنى فيه فحش ولغو، أو أن السامع يثير الغناء شهوته، ويحرك ثائرته، أو أن يتخذ الموسيقى والغناء ديدنا فتسبب المواظبة عليهما التقصير فى أداء الواجب الدينى وأداء واجب الأسرة والمجتمع.

ذلك موجز البحث الطويل الذى أورده الإمام الغزالى، وندعه الآن لنقتبس اتجاهات غيره من الباحثين، وقد أبانت كتب الفقه أن التغنى من حيث كونه ترديد الصوت بالألحان مباح لا شىء فيه، ولكن قد يعرض له ما يجعله حراما أو مكروها ومثله الموسيقى، فيمتنع إذا ترتب عليه فتنة كما يمتنع إذا ترتب عليه حرام كشرب الخمر، أو تضييع الوقت، وانصراف عن أداء الواجبات، أما إذا لم يترتب عليه شىء من ذلك، فإنه يكون مباحا.

ويقرر أكثر الباحثين أن ما ورد من أحاديث منسوبة للرسول فى تحريم

الغناء أو الموسيقى كلها مثخنة بالجراح، لم يسلم منها حديث من طعن عند فقهاء الحديث وعلمائه، قال القاضى أبو بكر بن العربى : لم يصح فى تحريم الغناء شى، وقد تصدى ابن حزم للأحاديث التى رويت فى تحريم الغناء وبين أن رواتها بين مجهول ومدلس وضعيف وقرر أن بيع المزامير والعيدان والمعازف والطنابير حلال كله، ومن كسر شيئا منها ضمنه.

الإمام القشيرى والسماع :

وقد كتب الإمام القشيرى بابا عن السماع نقتبس منه بعض العبارات، يقول الإمام القشيرى : واعلم أن سماع الأشعار بالألحان الطيبة، والنغم المستلذة، إذا لم يعتقد المستمع محظورا، ولم يسمع على مذموم فى الشرع، ولم ينجر فى زمام هواه، ولم ينخرط فى سلك لهوه، مباح فى الجملة، وإن حسن الصوت مما أنعم الله تعالى به على بعض الناس.

قال عز وجل : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾ [فاطر].

وقيل فى التفسير إن من هذه الزيادات الصوت الحسن، وذم سبحانه وتعالى الصوت القبيح فقال :

﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾ [لقمان]

واستلذاذ القلوب واشتياقها إلى الأصوات الطيبة واستروحها إليها، مما لا يمكن جحوده فإن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب، والجمل يقاسى تعب ومشقة الحمولة فيهون عليه ذلك بالحداء.

وحكى عن الشافعى أنه مر مع أحد رفاقه بموضع فيه شخص يغنى فلما سمعه الشافعى قال لرفيقه : مل بنا إليه، وسأل الشافعى رفيقه : أيطربك هذا ؟ فقال : لا. فقال الشافعى : إذن ليس لك حس.

الإمام الشوكانى والسماع:

ونقل الشوكانى أراء كثيرة عن الصحابة والتابعين فى إباحة الأعواد والغناء ما لم ينحرف بها اتجاه من الاتجاهات الكريهة التى ذكرناها.

الإمام شلتوت شيخ الأزهر السابق والسماع :

وقد أورد الإمام شلتوت تلخيصا لرسالة كتبها الفقيه عبد الغنى النابلسي وهى تقرر أن السماع حلال ما لم يقترن بمحرم. وعقب الإمام شلتوت على ذلك بقوله : إن هذا يوافق تماما فى المغزى والنتيجة الأصل الذى قررناه فى موقف الشريعة بالنسبة للغناء والموسيقى، وعلى هذا فسماع الآلات أو الأصوات الجميلة لا يمكن أن يحرم باعتباره صوت آلة أو صوت إنسان وإنما يحرم إذا استعين به على محرم أو اتخذ وسيلة إلى محرم أو ألهى عن واجب.

وأرى أن الصوت الحسن منحة من الله، والله لا يمنح شيئا محرما، إنه كالذكاء والصحة تحرم لو استعمل الذكاء فيما يضر الناس أو استعملت الصحة فى العدوان على الأبرياء، وكذلك يحرم الصوت الحسن إذا ارتبط بشهوة أو شراب أو شغل عن أداء واجب وفيما عدا ذلك فهو حلال طيب.

الحافظ القيسرانى المحدث ورأيه فى السماع :

وبين يدي كتاب مهم عنوانه "السماع" وهو من تأليف الحافظ بن القيسرانى المتوفى سنة ٥٠٧هـ وقد حققه فضيلة الشيخ أبو الوفا المراغى ونشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ويقول المحقق فى تصدير الكتاب :

قد وضعت فى موضوع السماع بعض الكتب والرسائل، وأورد ابن عبد ربه عنه فصلا ضافيا فى "العقد الفريد"، وكذلك الغزالى فى "الإحياء" وابن خلدون فى "المقدمة" والنويرى فى "نهاية الأرب" كما جاء عنه شذرات متفرقة فى كتب الفقه والتفسير والتاريخ، وكل هذه الكتب تجيز السماع إلا إذا طرأ على الغناء والموسيقى محرم كما سبق القول.

ويستمر محقق كتاب السماع فيقول : ومن الكتب النادرة التى ألفت كلها فى هذا الموضوع كتاب "السماع" لابن القيسرانى أحد أئمة الحديث فى القرن الخامس، وقد قصره على مقدمة فى الغناء، ثم على فصل فى جواز الاستماع إليه، وفصل آخر للرد على القائلين بحظره، معتمدا فى ذلك على الأحاديث الصحيحة الواردة فى كتب الصحاح وعلى أقوال الأئمة والفقهاء، وناقش مخالفيه فى أسلوب علمى دقيق ونهج مستقيم ويذكر المؤلف أن حديثه عن (السماع) هو بيان حكم السماع بأنواعه سواء كان سماع الأغانى أو سماع الآلات الموسيقية، وسواء كانت أغانى الرجال أو النساء، ويقرر أن تحريم السماع يعتمد على رواية الكذبة والمجروحين الذين لا تقوم برواياتهم حجة أو ممن يعتمدون على أقاويل قال بها من فسر القرآن على حسب مراده وهواه، وحاشا وكلا أن يرجع إلى قول هؤلاء.

وقد نقل المؤلف ما ورد فى جواز الغناء من الأحاديث الواردة فى البخارى ومسلم وغيرهما كما نقل ما قاله الإمام مالك وما قاله الإمام الشافعى، ونقل أن طائفة من شيوخ المالكية والشافعية وأصحاب الحديث وشيوخ الوعظ والزهاد حضروا مجالس الغناء.

وتحدث عن المزامير والآلات الموسيقية، وأورد الأحاديث الصحيحة بجواز استماعها، كما أورد الأحاديث التى احتج بها من يرفض السماع، ثم تناول هذه الأحاديث واحدا واحدا وبين وجه بطلانها.

وذكر المؤلف أنه اعتمد كذلك على أقوال الأئمة ومشاهير المفكرين المسلمين، ووضح أن المتقدمين كانوا أكثر تسامحا وأبعد عن التزمت فى سماع الغناء، وكذلك كان الصوفية.

ومن الكلمات التى قالها المؤلف نقتبس بضعة سطور:

"وأما ضرب الدف والاستماع إليه فنقول إنه سنة، سمعه رسول الله ﷺ، ولا ينكره إلا جاهل مخالف للسنة، ويصدق عليه قول الرسول ﷺ من رغب عن سنتى فليس منى". (البخارى ومسلم)، وأما القول فى المزامير فقد وردت الأحاديث الصحيحة بجواز استماعها ويورد مجموعة من الأحاديث رواها البخارى فى هذا الشأن.

أما ما احتج به البعض من أن قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾ [لقمان].

وما ورد فى ذلك من أن عبدالله بن العباس وابن مسعود وابن عمر كانوا يرون أن ذلك اللهو هو المزامير والسماع، فيقول المؤلف : لقد نظرت فى جميع هذه الروايات فلم أر فيها طريقا ثابتا إلى واحد من هؤلاء الصحابة.

وفى رواة هذا القول ضعف يبطل روايتهم، وهناك تفاسير أخرى لهذه الآية الكريمة تجعل لهو الحديث هو المراء والجدال بالباطل بدليل أن الرسول سمع الغناء والعزف وأجازهما، وليس لأحد رأى بعد الرسول فى تصرفه وفهمه للذكر الحكيم.

القيسرانى وكشف وجه المرأة:

وبمناسبة غناء المرأة نقتبس من ابن القيسرانى كلمة عن كشف وجه المرأة، فقد ذكر أن وجه المرأة ليس من العورة مادام غير معرض للإثارة،

ومادامت صاحبة الوجه تعلو بكبريائها عن الشبهات، فيروى أن رجلا دخل على عثمان بن عفان وعنده امة كأنها شق قمر. فقال : من هذه ؟ فقالوا : امرأته، وجاءته امرأة ذات يوم فسألته فلما قامت قال : ما على رجل ما فاته من الدنيا إذا أغلق بابه على مثل هذه فمنا من حمل ذلك على رجاجه عقلها، ومنا .من حمله على جمالها وهذا يدل على جواز كشف الوجه الجميل إذا اختفت الفتنة.

الدف والأورج :

قال واحد من الذين يميلون للتضييق على المسلمين "إن الرسول ﷺ أباح الدف، ولم يبح الآلات الموسيقية الأخرى. والرد : إن الله سبحانه وتعالى أباح ركوب الخيل والبغال والحمير فى قوله تعالى :

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨) ﴾ [النحل] فهل نقف عند الخيل والبغال والحمير ولا نركب السيارة والطائرة ؟

إن الآلات الموسيقية الحديثة امتداد للآلات التى كانت موجودة فى العصور الأولى، فإذا أبيحت الموسيقى فهى مباحة أيا كانت الآلات المستعملة فيها.

الرقص :

- أما الرقص فإن الإمام الغزالى يبيح منه ما لا يثير شهوة فاسدة، كرقص الرجال وحدهم، أو رقص النساء دون أن يراهن من الرجال من لا يحل لهن، وقد استدل الغزالى على الحل برقص الحبشة والزنوج فى المسجد النبوى يوم عيد، حيث أقرهم الرسول على ذلك، وأباح لزوجته عائشة أن تتفرج عليهم وهى مستترة به.

والرقص ينتج عن إحساس داخلى والإحساس الداخلى يدفع الجسم

للحركة، فإن كان الإحساس ألما بكى الإنسان واهتز حزنا وإن كان الإحساس سرورا تمايل جسمه بالرقص فرحا، فالرقص على هذا شيء طبيعى ومما يدل على ذلك أن الطفل يتمايل راقصا لو سمع الموسيقى.

رأى الإسلام فى التصوير والنحت والتجسيم:

يقول الدكتور أحمد شلبى : وقد اتجه الفكر الإسلامى إلي الإجماع على جواز تصوير ما ليس فيه روح كالزخرفة من أوراق الشجر، والزخرفة بالكتابة وتصوير النبات والجماد، أما تصوير ما فيه روح أى الإنسان والحيوان فلم يرد عنه فى القرآن الكريم ما يجعله حراما، وقد ورد فى أحاديث الرسول ﷺ ما يشير إلى منعه، فقد أنذر الرسول المصورين بأنهم سوف يكلفون يوم القيامة أن ينفخوا فى صورهم الروح وليسوا بفاعلين.

ويتجه كثير من المفكرين منهم الإمام محمد عبده والشيخ عبد الله المشد رئيس لجنة الفتوى بالأزهر سابقا إلى أن النهى ليس للحرمة بل للكراهية بدليل أن المسلمين ترخصوا على مر الزمان فى تصوير ذوات الروح وتجسيدها.

ويحتاج التجسيم إلى مزيد من الدراسة، وفى تقديرى أن النهى عن تجسيد تمثال للإنسان أو الحيوان ارتبط بحالة العرب قبل الإسلام إذ كان النحت عندهم متجها لغرض صناعة الأصنام والأوثان، فأراد الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن يبعد المسلمين عن هذه الصناعة وما شابهها، وكان ذلك على نسق نهيه - عليه الصلام والسلام - عن زيارة القبور إذ كان بعض العرب يعبدون أرواح الأباء والأجداد ويحجون لقبورهم، ويقدسون ما وضعوا عليها من حجارة، فلما تمكن الإسلام من قلوبهم ولم يعد هناك خوف من عبادة الآباء والأجداد، سمح الرسول ﷺ بزيارة القبور، وقال «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فالآن فزوروها». (النسائى : باب الجنائز).

وربما يسأل سائل : لماذا لم يصرح الرسول بحل التصوير على نحو ما سمح بزيارة القبور ؟!

الإجابة أن زيارة القبور كانت فيها عظة، وكانت ضرورية لأن المسلمين يشيعون الموتى من حين إلى آخر فيجدون أنفسهم بين المقابر مما يجعل زيارة القبور قضية يشغلهم حلها، وذلك ما لم يوجد فى التصوير والنحت.

وأرى من دراسة القرآن الكريم ودراسة السنة الشريفة وإتجاهات السلف الصالح أن التصوير والرسم والنحت والتجسيم مباحة للأسباب التالية :

أولها: أن عبادة الأحجار والأصنام عمل جاهلى انتهى عهده تماما، وقد كانت عبادة الأصنام من أهم الأسباب التى استدعت تحريم التماثيل والتجسيم، فليس هناك الآن من يعيد التمثال أو يسجد له.

ثانيها: أن الله سبحانه وتعالى أذن للسيد المسيح - عليه السلام - أن يصنع من الطين كهيئة الطير : قال تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) ﴾ [المائدة] وهذا يدل على جواز أن نصنع من الطين أو من مادة مماثلة تجسيدا لحيوان أو طائر أو ما ماثلهما.

ثالثها: أن القرآن الكريم حافل بالصور الفكرية التى تمثل بالكلمة الدقيقة أحداثا يحس الإنسان أنها يمكن أن تصور أو تجسد للمزيد من العظة، والفهم

وقد أسماها الأستاذ سيد قطب فنونا فى كتابه "التصوير الفنى فى القرآن" وأورد منها نماذج كثيرة وعلق عليها بأنها تحوى مثلا من الجمال الفنى.

ومن هذه الصور قوله :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [العنكبوت].

ومن هذه الصور قوله :

﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ﴾ [الحج].

وقوله تعالى فى تصوير حال المسلمين فى غزوة الخندق :

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (١١) ﴾ [الأحزاب].

وعن مشاهد يوم القيامة يورد القرآن الكريم صورة معبرة خطيرة قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ [الحج]

وصور أخرى وردت فى القرآن الكريم لا تقوى ريشة على إبرازها، وقد صورتها الكلمة أروع تصوير، وخلقت فى الذهن صورة لها، وإذا كانت قد خلقت

فى الذهن صورة فليس هناك ما يمنع أن تصور هذه الصورة بريشة، شرحنا للفكرة وتمكينا لها.

رابعا: تذكر الرواية الموثقة أن الله سبحانه وتعالى هو الذي زوج الرسول ﷺ من عائشة، فقد رأى الرسول فى المنام شخصا يحمل إليه قطعة من الحرير الأخضر وقد نقشت فيها صورة، فلما كشف الشخص عن الصورة سأله الرسول: من هذه، فأجاب: هذه عائشة وهى زوجتك فى الدنيا والآخرة.

وتقرر المصادر الوثيقة أيضا أن الرسول ﷺ بعد أن عقد قرانه على السيدة عائشة وقبل الدخول بها، كان يتردد على بيت أبى بكر فيجد الراحة والأنس بعروسه الصغيرة، وكانت هى أيضا تتوقع حضور الرسول لها، وتأسى إن أخرته الشواغل عن الحضور، وكان الرسول ﷺ يداعبها ويعنى بعرائسها.

وبعد أن دخل الرسول بها كان ﷺ يسره أن يرى معها لدات لها يلعبن معها فى بيته، وكان يدعو الفتيات من جيلها ليحضرن لها، ويشتركن معها فى اللعب بهذه العرائس وهاتان الروايتان تؤكدان حل التصوير والتجسيد.

خامسا: دخل العرب مصر فى فترة من أهم فترات الحكم الإسلامى، وكان فى جيش عمرو بن العاص بعض الصحابة وقمم المفكرين المسلمين، ورأى العرب رسوما مختلفة بالمعابد المصرية لأشخاص وحيوانات، كما رأوا تماثيل كثيرة تزدان بها المعابد، ولابد أنه كان من بينها بعض التماثيل الشامخة التى لا تزال موجودة حتى الآن بالأقصر وغيرها من العواصم المصرية القديمة.

ولغة المصريين القدماء (الهيروغلوفية) لغة تتكون من رسوم وصور لطيور وحيوانات وغيرها، ولم ينكرها أحد.

والذى لا شك فيه أن المسلمين الأوائل لم يحطموا هذه التماثيل ولا طمسوا هذه الصور، ولم يمسوها بسوء بل أدركوا من أول لحظة أنها عمل فنى

بقصد تخليد ذكرى الأبطال والقادة وليس لها مكان فى مجال التقديس والعبادة[1]، بل إن المسلمين الأوائل بهروا بمدينة الأقصر، وبما بها من قصور تاريخية ومشاهد عمرانية ولذلك استبدلوا باسمها "طيبة" اسما يناسب ما رأوه فأسموها "الأقصر" وثبت هذا الاسم حتى الآن.

إن الدين الإسلامى دين سمح وندعو المسلمين إلى عدم تعقيده وعدم تضييق الحياة على جماعات المسلمين.

قصة تحريم التماثيل :

ويقول الدكتور أحمد شلبى أيضا : نشرت صحيفة الأخبار الصادرة يوم ١٩٩٤/٣/١٨ قصة الإدعاء بأن التماثيل حرام، والقصة لها جذور سياسية، فإن الزعيم أحمد عرابى كان على خلاف واسع مع الخديوى توفيق كما هو معروف ودفعه هذا الخلاف للنكاية بالخديوى فى محاولة لهدم تماثيل زعماء أسرة محمد على فكتب للمفتى سؤالا يوحى بإجابة معينة ومطالعة نص السؤال والإجابة تبرز ما يلى :

أولا: كتب وكيل الجهادية (وزارة الدفاع) خطابا إلى المفتى للنظر فى مسألة هدم وحرق الصنم الموضوع بالأزبكية (تمثال إبراهيم باشا).

ثانيا: كان هذا المطلب بعد أن نزل الإنجليز بالاسكندرية وقبل أسبوعين من وصولهم القاهرة.

ثالثا: أراد أحمد عرابى أن يشد لتأييده جحافل المسلمين الذين سيرون فى موقفه تمسكا بالإسلام وقيمه فى اعتقاده.

رابعا: ذكر هذا الخطاب وصفا للتمثال نصه "الصنم الموضوع بالأزبكية".

---

(١) وإن كانت تعبد أيام الفراعنة .

ومن الواضح أن وصفه للتمثال بأنه صنم وصف غير صحيح، فالأصنام كان يعبدها العرب قبل الإسلام وربما غير العرب ولم يحدث قط أن عبد المصريون تمثال إبراهيم باشا.

خامسا: لمزيد من الإغراء ضد التمثال ذكر الخطاب أن التمثال أخذ مكان مئذنة مسجد الأزبكية.

سادسا: يذكر الخطاب أن الصحابة كسروا الأصنام عند فتح مكة والمعروف أنهم حطموا معبودات الجاهلية، وليس تمثالا وضع لتخليد ذكرى بطل.

سابعا: يذكر الخطاب للإغراء بالموافقة على تدمير التمثال أن المصائب مانزلت على بلادنا إلا بسبب نصب صنمى القاهرة والاسكندرية والحق التاريخى يقرر أن محمد على كان باب النور الذي فتح لمصر بعد ظلام العثمانيين والمماليك.

ثامنا: كانت إجابة الشيخ المفتى مع كل ذلك أن إقامة التماثيل مكروهة تحريما فهى ليست حراما حرمة مطلقة، ولكنها تدخل فى نطاق الكراهية المشددة التى يعبر عنها الفقهاء بأنها كراهة تحريم، وقد أضاف المفتى إلي فتواه شروطا يندر توافرها فى التماثيل، فقال أن شروط كراهة التحريم أن يكون التمثال ظاهرا دون حاجة إلي تأمل وأن تكون كاملة الأعضاء التى لا يعيش الإنسان بدونها، وقرر المفتى أن حكام المسلمين عليهم إزالة كل منكر فى بلادهم كالتعامل بالربا والقضاء على دور البغاء والخمارات والمظالم والحكم بغير ما أنزل الله، وختم المفتى هذه الشروط بقوله إن إزالة هذه المنكرات أكد أى أشد ضرورة من إزالة الصور والتماثيل.

وبسبب الشروط والتردد الواضح فى الفتوى لم يدمر أحمدر عرابى التماثيل.

وللإمام محمد عبده فى إباحة التماثيل رأى، وللدكتور محمد عمارة رأى يرتبط بهذه الوثيقة السابقة، وفيه يقول :

وعن موقف الإسلام من التماثيل يقول الدكتور عمارة : إن هذه قضية اختلف العلماء فيها إلي فريقين :

الفريق الأول يتبنى تفسيرا بأن حرمة هذه التماثيل تأتى من كونها معبودة وهى بذلك تمثل شركا بالله، أما إذا لم تكن معبودة فإنها تكون مباحة، وينطبق هذا الشرط الأخير على العصور التى تلت زمن النبوة المحمدية، ومن أشهر العلماء المعاصرين الذين أباحوا التماثيل : الإمام محمد عبده وذلك عندما زار صقلية وشاهد متاحفها وتماثيلها وكتب عنها فى مجلة "المنار" مشيرا إلي أن تحريم التماثيل مرتبط بتعظيمها وعبادتها، أما إذا كانت لتخليد ذكر العظماء فإنها تصبح جزءا من ذاكرة الأمة، ولا حرمة فيها.

وإذا كانت التماثيل محرمة فى بداية العصر الإسلامى فإن ذلك كان خوفا من عبادتها، ولهذا السبب أيضا حطمها سيدنا إبراهيم عليه السلام، أما فى عهد "سليمان" فكانت من نعم الله عليه حسبما ورد فى قوله تعالى :

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾ [سبأ].

أما الفريق الثانى فقد انطلق فى تحريمه للتماثيل من مظاهر عدة أحاديث نبوية تهاجم الصور والتماثيل. ولكن تحليل مجمل هذه الأحاديث يؤكد أن مصطلح الصورة فى العهد النبوى كان المقصود به "الصنم المعبود".

وهكذا نجد السياسة هى التى دفعت هذا الموضوع لدائرة التشكيك وتغلب العقل على السياسة، فبقيت التماثيل رموزا لجهود بذلها أصحابها لخدمة عامة، ولتشجيع الجيل الحالى ليعمل بجد حتى يصل إلي ما وصل إليه السابقون من أمجاد، فهى تحيى ذكرى القادة والمشاهير ليكونوا نماذج طيبة وقدوة حسنة للأجيال التالية.

تجسيم مرفوض :

ويقول الدكتور أحمد شلبى مستطرداً : وإذا احتملنا التماثيل للعظماء للقدوة لافكر فى تقديرى لا يحتمل تجسيما لإنسان عادى، وقد كنت أدخل بيتا توفى صاحبه، وأقامت الزوجة تمثالا لهذا الراحل، وكنت أشمئز عند رؤيته وينتابنى شىء من الرهبة، ولهذا طلبت من الزوجة -إذا عز عليها أن تتخلص من هذا التمثال- أن تغطيه بغطاء يخفيه عن الأنظار، والحق أنها استجابت لذلك.

وهذا يذكرنى بجلال الدين منكبرتى ملك خوارزم حين مات مملوك له عزيز عليه، فلم يدفنه، وأجرى علاجا لجثته حتى لا تفسد، وكان يحمل الجثة معه فى رحلاته وحملاته، وقد نال هذا الملك سخط الباحثين والكتاب لهذا التصرف المشين.

الخلاصة :

إذا كان المقصود بالتحريم فى القرآن والسنة (تحريم التماثيل) هو الخوف من تقديسها أو عبادتها، فيكون كلام الدكتور أحمد شلبى مقبولا أما إذا كان التحريم غير معلق على شرط فتكون الصور لذوات الأورواح والتماثيل محرمة لأن أحكام التحريم فى هذا الخصوص سواء من القرآن أو السنة لم تنسخ فيظل حكم التحريم باقيا إلى يوم القيامة هذا إذا كان التحريم كما قلنا لا يرتبط بالخوف من عبادتها أو تقديسها لأن تحريمها ثابت بأدلة مستفيضة من القرآن وأدلة متواترة من السنة والأحاديث فى ذلك كثيرة.

قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) ﴾ [الحج]

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) ﴾ [نوح]

وقال ﷺ : «إن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب أو صورة»

وجاء فى السنة أن النبى ﷺ أمر السيدة عائشة أن تقطع السهوة (الستارة) التى كان فيها صورة طائر وتجعلها وسادتين وقال للسيدة عائشة إن هذه الصورة شغلتنى فى صلاتى.

وقال ﷺ : «يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول (وكلت بثلاثة بمن دعى مع الله إلها آخر وبالجبارين وبالمصورين)

وقال فى الحديث القدسى : «فمن أظلم ممن ذهب بخلق كخلقى فليخلقوا ذبابة فليخلقوا شعيرة فليخلقوا بُرة (حبة قمح)»

وقد رؤيت بعض النساء يخاطبن صور أزواجهن الراحلين ويشكون لهذه الصور ما يعانين من مشاكل وهذا أمر فى غاية الخطورة .

الفنون فى واقع الحياة الإسلامية :

إن هذه الاتجاهات التى ذكرناها عن إباحة الفنون انعكست على الحياة الواقعية فالتماثيل ترتفع فى عدة أقطار إسلامية دون اعتراض، نرى منها فى الباكستان تمثالا شاهقا للزعيم محمد على جناح، وفى مصر نرى تمثال إبراهيم باشا فى ميدان الأوبرا وتمثال سعد زغلول وتماثيل لطلعت حرب وعلى

مبارك، ونرى التصوير والزخرفة فى المساجد والقصور وعلى الخزف والزجاج، ومن أشهر الكتب التى برزت فيها الصور كتاب مقامات الحريرى. وعلى هذا فنحن لا نميل لتحريم الطيبات مادام لا يوجد نص لتحريمها، واعتقادى أن ذلك هو القول الفصل فى هذا الموضوع[1].

والحق أن الحضارة الإسلامية رعت الفنون وأولتها اهتماما كبيرا، فقد ورث المسلمون فى دمشق وبغداد والقاهرة والهند حضارة فنية رائعة عن الفرس والفراعنة والهنود، وكان الإحساس الفنى عاليا عند هذه العناصر، وكانت صور الفنون تغمر كثيرا من الأمكنة وبخاصة الأثرية، ومن هنا ظهرت الفنون الجميلة فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى امتدادا لما كان موجودا قبل الإسلام، وعندما شاع أن تصوير ما فيه روح مكروه أو حرام أسرع الفنان المسلم إلى الزهور والأشجار ثم إلى الآيات القرآنية والفسيفساء وغيرها ليأخذ منها بديلا فى رسومه وزخرفته، وقد اهتم الفنان المسلم بتصوير المخطوطات على الأشياء المختلفة كالخزف والزجاج والنسيج، كما شملت الفنون الحفر وصناعة الفخار.

الخط والعمارة والزخرفة :

ومن الفنون الجميلة التى ارتبطت بالعالم الإسلامى فن الخط الذي زينت به جدران المساجد والقصور، وهناك كذلك ما عرف بالتصوير الجدارى .. (نسبة للجدران) ومن أقدم أنواع التصوير الجدارى ماظهر فى "قصر عمرا" الذي كشفت بقاياه فى بادية الشام، ويُظن أن بانيه أحد أمراء الأمويين، وقد حفلت جدرانه بصور كثيرة حيوانية ونباتية. ويتجه البحث الجديد إلي أن هذا القصر كان استراحة بناها الوليد بن عبد الملك، وسقف هذا البناء وجدرانه مزينة بموضوعات مصورة وزخارف مختلفة.

---

(١) الدكتور أحمد شلبى – موسوعة الحضارة الإسلامية .

ومن أهم جوانب التصوير التى اهتم بها المسلمون تصوير المخطوطات وتزيين الكتب بالصور الصغيرة والمنمنمات، ومن أشهر الكتب التى ظهرت بها هذه الصور كتاب مقامات الحريرى، وتدل الصور الموجودة فيه على مهارة كبيرة فى تصوير للجموع وحركاتها المختلفة، ودقة عظيمة فى تصوير الحيوانات.

وتمتاز المنمنمات الإسلامية بالألوان الزاهية وبكثرة استعمال الذهب والفضة.

ومن أبرز اتجاهات الفنون الإسلامية الاهتمام بالتحف المعدنية والحلى، وقد خلف لنا العصر الفاطمى بعض المباخر والتماثيل التى هى على شكل حيوان أو طائر وخلف لنا العصر المملوكى كذلك نماذج من التحف المعدنية الدقيقة المطعمة بالذهب والفضة كالأوانى والشمعدانات وصناديق المصاحف والمحابر وغيرها.

وفى مجال الحفر توجد عند المسلمين أعمال رائعة من الحفر فى الحجر والرخام والعاج والعظام، واستعمل فى مصر كثيرا حشو الكراسى والأثاث بالعاج والعظم، كما كثر الحفر الرائع على الأخشاب.

وفى مجال النسيج عُرف العصر الفاطمى بوجه خاص بالاهتمام بالطراز وكانت هناك دار للطراز تنتج الملابس البهيجة المزركشة التى تختلف باختلاف مكانة الأشخاص، وكانت هذه الملابس تهدى لمستحقيها فى المناسبات المختلفة، كما كانت تمثل خلعا تدل على الرضا والتقدير.

وقد اهتم المسلمون بالعمارة اهتماما كبيرا، وبرز ذلك فى المساجد والقصور، وكان مسجد دمشق كما يحكى ابن الفقيه يعد واحدا من عجائب الدنيا الأربع فى ذلك العهد، وقالوا إنه لو بقى الرجل فيه مائة سنة لرأى به فى كل يوم أعجوبة جديدة لم يرها من قبل.

اعترفات الغرب بفضل الإسلام عليه

وبمناسبة ما ذكره السير روبين كوك عن فضل المسلمين على الفكر الغربى نعيد فيما يلي بعض الاقتباسات فى هذا المجال من كبار المفكرين والساسة الغربيين، وقد أوردناها كاملة من قبل.

الأمير تشارلز:

ومن كبار الباحثين الغربيين المعاصرين اعترف سمو الأمير تشارلز ولى عهد بريطانيا بفضل العرب والمسلمين فقال :

إن هناك قدرا من الجهل بالفضل الذي تدين به ثقافتنا وحضارتنا للعالم الإسلامى، فالعالم الإسلامى فى العصور الوسطى كان عالما ازدهر فيه الباحثون المتخصصون ورجال العلم، ولكننا جنحنا إلى تجاهل ذلك وقللنا من أهمية ٨٠٠ سنة كانت أوربا خلالها عالة على أسبانيا الإسلامية التى حافظت على العلوم والمعارف خلال عصور الظلام، فوضعت الثقافة الإسلامية بالأندلس أساس اللبنات الأولى للنهضة الأوربية.

ويذكر الأمير تشارلز بعض التفاصيل فيقول عن ابداعات المسلمين :

كانت أسبانيا فى عهد المسلمين أكثر من مجرد مخزن للاحتفاظ بالعلوم والمعارف الشرقية بل فسرت تلك الحضارة وتوسعت بها، وقدمت مساهمة هامة من جانبها فى كثير من مجالات البحث الإنسانى فى العلوم والفلك والرياضات والجبر (والكلمة نفسها عربية) والقانون والتاريخ والطب وعلم العقاقير والبصريات والزراعة والهندسة المعمارية وعلم الدين والموسيقى وقد ساهم ابن رشد وابن زهر – على غرار نظيريهما الرازى وابن سينا فى الشرق – فى دراسة الطب وممارسته بطرق استفادت منها أوربا لقرون عديدة بعد ذلك.

وتلك إشارة عادلة لدور المسلمين فى خدمة الحضارة العالمية.

اعترافات ريتشار نيكسون :

ويقول ريتشارد نيكسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية سابقا فى هذا الموضوع ما يلى :

بينما ذبلت أوربا فى العصور الوسطى تمتعت الحضارة الإسلامية بعصرها الذهبى، وقد أسهم الإسلام بمجهودات هائلة فى مجال العلوم، فى الطب والفلسفة، وقد لاحظ "ول ديور انت" ذلك فذكر أن الإنجازات الهامة في كل الميادين قد تحققت على يد مسلمى هذه الفترة، وكانر ابن سينا أعظم الكتاب فى الطب، والرازى أعظم طبيب، والبيرونى أعظم جغرافى، وابن الهيثم أعظم صانع للآلات البصرية، وجابر بن رحيان أعظم كيمائى وأخيرا كان جابر من أعظم الفلاسفة، وكان العلماء العرب أصحاب فاعلية فى تطوير الفكرة العلمية، وذكر "ول دور انت" أن الرجال العظام الذين حملوا عبء النهضة الأوربية استطاعواذلك لأنهم وقفوا على أكتاف العمالقة المسلمين.

ويعترف نيكسون بمثل ما ذكره جورج سارتون عن إمكان أن يعود المسلمون لسابق عهدهم في التفوق العلمى فيقول : إن تلك الإنجازات التى حققها المسلمون الأوائل تشير إلي ما يمكن أن يحققوته فى المستقبل إذا أمكن وقف الصراع بهذه المنطقة.

وقبل أن نترك ريتشارد نيكسون نعلق على كلامه بقولنا إنها شهادة من رجل لا يكن الحب والتقدير للمسلمين ويطعنهم كثيرا فى كتابه هذا، ولكنه لم يجد وسيلة لإخفاء حقائق الماضى وإمكان النجاح فى المستقبل، لمعرفته بالعقلية الإسلامية الخلاقة التى ورثها جيلنا عن جيل أجدادهم المبدعين.

وقفة تحذيـر :

ومع هذا الاتجاه السليم فيجب على المسلمين ألا يأمنوا خطر اليهود

وأخطار الوقيعة التى لا يكفون عن محاولة إشعالها ضد المسلمين، ولابد من الحذر فلن يسلم اليهود بما قاله هؤلاء الأعلام، وسيلتقون من جديد لإحداث نكسة فى هذا الاتجاه السليم.

وإذا كان هناك عشرة من الزعماء أور عشرون ممن دفعهم العدل ليهاجموا "صراع الحضارات" فإن لدي اليهود أعدادا هائلة من فلاسفة الباطل الذين سيحاولون بعث هذه النظرية من جديد. ولذلك فإن علينا أن نستمر فى المراقبة واليقظة حتى يفتح الله بيننا بالحق وهو خير الفاتحين.

اليهود يوجدون مشكلة جديدة

للإيقاع بين الغرب والمسلمين

تعتبر الدراسة التالية امتدادا أو بديلا عن " صراع الحضارات" الذى قضت عليه صيحة الحق، فلقد أشاع اليهود أن المسلمين بمصر يضطهدون الأقباط فلنسر قليلا مع هذا الاتهام :

اليهود والا ضطهاد الدينى :

الحق أنه من طبيعة اليهود أن يحيوا الثورات والأراجيف، وعنهم يقول الكاتب الفليسوف برنارد لازار : "اليهودى يضطرم بروح ثورى، وهو داعية للثورة سواء شعر بذلك أو لم يشعر" ومما يؤكد نسبة أكثر الحركات الهدامة السرية لليهود، أنه تظهر دائما في هذه الحركات آثار التعاليم اليهودية الفلسفية.

ويعترف اليهود بذلك، فقد ورد فى مجلة الجامعة الإسرائيلية نص خطير بهذا الشأن، اقتطفه لويس داست ووضعه على غلاف كتاب عن [اليهودية والجمعيات السرية) وفيما يلي هذا النص :

نصادف فى كل التغييرات الفكرية الكبرى تقريبا عملا يهوديا، سواء كان ظاهرا واضحا أو خفيا سريا، وعلى هذا فإن التاريخ اليهودى يمتد بامتداد التاريخ العالمى بجميع مجالاته، حيث تغلغل فيه بآلاف الدسائس.

ويقرر علماء الغرب أن حركات الهدم التى اجتاحت أوربا واشتعلت بها مدى قرون ثلاثة لم تكن سوى أثر للجهود السرية التى تأكد أن اليهود يبذلونها منذ ظهور النصرانية فى سبيل هدم المسيحية انتقاما لليهودية.

وعنهم يقول السيد المسيح فى انجيل متى :

أيها الحيات أولاد الأفاعى يا من تبحثون عن عذاب جهنم ؟ من أجل ذلك

يرسل الله لكم أنبياء وحكماء وكتبة، فبعضهم تقتلون وتصلبون وبعضهم فى مجامعكم تجلدون فمن مدينة إلى مدينة تطاردون حتى يقع عليكم كل دم زكى سفك فى الأرض من دم هابيل إلى دم زكريا الذى قتلتموه بين القدس والمذبح، الحق أقول لكم :"إن هذا كله سيقع على هذا الجيل (إنجيل متى الاصحاح ٢٣: ٣٢- ٣٦).

وحكموا على السيد المسيح بالإعدام ظلما كما تثبت الأناجيل (انظر انجيل متى الفصل ٢٧).

ولما جاء الإسلام عمد اليهود إلي التشكيك وإثارة الشبهات ليضعفوا الإيمان فى نفوس المسلمين وليزعزعوا ثقتهم فى الإسلام، وقد نزل فيهم قوله تعالى :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) ﴾ [البقرة].

وقوله تعالى : ﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) ﴾ [آل عمران].

ويسير اليهود اليوم على نهج أسلافهم فى التشكيك، ومن أبشع ما عمدوا إليه فى ذلك تحريف المصحف ومحاولة نشره محرفا، وكذلك تحريف السنة المحمدية، ولولا أن فطن المسلمون لذلك لأمكن أن يكون لهذا الفعل نتائج بالغة الغاية فى السوء.

ويربط بعض الباحثين معظم الثورات الكبرى فى العالم باليهود، فأنى عاش اليهود وجدت الإثارة فالثورة، حصل ذلك فى الشرق والغرب على السواء، ورأيناه أحيانا يتم باسم الرأسمالية لتضرب الحركات الشيوعية، وباسم الشيوعية لتضرب الاتجاهات الرأسمالية، فهدف اليهود الثورة والتدمير على كل حال، تدمير هذا الاتجاه وذاك الاتجاه.

تلك لمحة سريعة عن دور اليهود فى الإثارة وبث الفتن وتسميم الأفكار، ونضيف إلى ذلك أن اليهود لم يكتفوا بالأفكار يسممونها، بل عمدوا إلي تسميم الأجسام ما وسعتهم الحيلة، وقد عرف تاريخهم تسميم الآبار، ولا يستبعد المفكرون أن يضع اليهود مقادير ضئيلة من المواد التى تضر بالصحة فى الأدوية والمشروبات الروحية، بل فى الدقيق ومنتجاته وغيرها من المواد التى يصدرونها بطريق مباشر أو غير مباشر للشعوب غير الصديقة إن لم يكن للشعوب جميعا(١).

وقد حكى القرآن الكريم موقف اليهود من عداء المسلمين بقوله :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) ﴾ [المائدة].

وتنفيذا لهذه السياسة فجر مناحم بيجن فندق الملك داود، وظهر سفاح الحرم الإبراهيمى الذى قتل مئات من الركع السجود فى أبشع وقائع الاضطهاد الدينى.

---

(١) وهم أفسدوا الخضروات والفواكه المصرية بما يعرف بالهندسة الوراثية وتصدير المبيدات المسرطنة وتصدير المنشطات الجنسية التى لا يعلم كيف صنعت ومم صنعت ولبان يثير الغريزة الجنسية إلى درجة قد تدفع إلى الاغتصاب كما تعمل بنات إسرائيل على الإنجاب من عرب سيناء ونشر الإيدز بينهم.

وفى العصر الحديث أقاموا أكبر فتنة للإيقاع بين الغرب والمسلمين فأعلن زعماؤهم أن المسلمين هم العدو اللدود للغرب بعد سقوط الشيوعية وانتهاء الاتحاد السوفيتى، وظهرت بذلك خرافة "صراع الحضارات" حيث انطلق برنارد لويس وهانتجتون ومن سار على دربهما مثل ريتشارد نيكسون فألفوا الكتب وكتبوا المقالات وعقدوا المؤتمرات لتحريض الغرب على المسلمين، ولم ينسوا مبدأ مهما هو ضرورة تقوية أعداء المسلمين لينضموا للغرب فى صراعه ضد المسلمين، وكانوا يقصدون بذلك مزيدا من مساعدة إسرائيل التى أحدثت الفتنة وسارت في ركابها.

ولكن هذه المقولة المشبوهة "صراع الحضارات" كانت قصيرة العمر، فقد أدرك زعماء الغرب جذور هذه الوقيعة بينهم وبين المسلمين، وأظهرت الحقائق والاحصائيات أن المسلمين من أقل الناس إثارة للثورات وصنوف الإرهاب وقد جاء فى الإحصاءات الرسمية وتقارير الخارجية الأمريكية أن أخطر أحداث الإرهاب والتخريب هو ما وقع فى "أوكلاهوما" في ١٩ ابريل سنة ١٩٩٥ الذى قتل وأصيب فيه ٧٠٠ شخص ونسب هذا الفعل الإجرامى أولا إلي إرهابيين من الشرق الأوسط ثم ظهر أن الجناة اثنان من الأمريكيون البيض ونشرت أسماؤهما.

واتضح أن من بين ١٧١ شخصا اتهموا بالإرهاب فى الثمانينيات لا يوجد من بيهم إلا ١١ من العرب المسلمين بنسبة ٦٪ وفي التسعينيات كان ٩٦٪ ممن أدينوا بالإرهاب ليسوا عربا ولا مسلمين.

وهذه الحقائق دفعت الرئيس بيل كلينتون أن يعلن فى خطابه بالأمم المتحدة فساد نظرية "صراع الحضارات" وأن المسلمين ليسوا أعداء للغرب، وفى نفس الوقت صرح تونى بلير رئيس وزراء بريطانيا وروبين كوك وزير خارجية بريطانيا بأن من الظلم الاعتقاد بنظرية "صراع الحضارات" وذكر أن الغرب

محتاج للمسلمين كأصدقاء لا كأعداء، وكرر كما كرر كلينتون فضل الإسلام على الثقافة الغربية التى تعتبر مدينة للمسلمين.

وما كادت هذه النظرية تترنح حتى كان اليهود يدبرون مؤامرة جديدة ضد مصر التى تعد من أكبر دعائم الاستقرار فى العالم الإسلامى والتى هى مشغولة تماما بالتنمية وترقية اقتصادها بعد سنوات الحرب التى أضعفت هذا الاقتصاد.

اتهام مسلمى مصر با ضطهاد أقباطها

وكان الإدعاء الجديد يتجه إلى أن فى مصر اضطهادا دينيا ضد الأقباط وأنهم لذلك ينشدون العون ضد المسلمين.

ووجد اليهود ضالتهم فى بعض الأقباط المهاجرين الذين نسوا وطنهم الأول وأعماهم حب المال عن الوطن، والذين اكتسحهم الإغراء اليهودى، وإذا بهؤلاء يتكلمون بلسان اليهود عن هذا الاضطهاد المزعوم.

الولايات المتحدة تتزعم هذا الافتراء :

وهذا التضليل دفع الكونجرس إلى اعتماد قانون مكافحة الاضطهاد الدينى، وأدخل القانون مصر ضمن الدول التى يمكن أن ينطبق عليها هذا القانون رغم حذف الإشارة الصريحة لمصر فى الصياغة الأخيرة لهذا القانون، وبناء على هذا القانون يوقع رئيس الولايات المتحدة عقوبات ضد الدول التى ترى أمريكا أنها تمارس الاضطهاد الدينى ضد المسيحيين.

وقد غضب المصريون جميعا لا فرق بين مسلم ومسيحى لهذا القانون الجائر الذى يتدخل فى حياة مصر الداخلية ويزرع البغضاء بين المصريين ويوحى بأن بعضهم يحتمى بالخارج ضد أهله ومواطنيه.

ردود على هذا الافتراء :

ولا نجد فى الرد على هذا القانون الجائر أقوى من الحقائق التالية :

- هذا القانون كان استجابة لادعاء نشرته (مسز لامب) في صحيفة (صنداى تلجراف) يعلن عن اضطهاد المسلمين بمصر لأقباطها، وقد أخذت هذه السيدة مبلغ ٣٥٠٫٠٠٠ دولار أجرا لهذه الفرية، وهذه الصحيفة دونت هذه السطور من وحى نفسها الشريرة دون أن تزور مصر أو ترى قرية (الكشح) التى كتبت عنها وأفرغت سمومها مُدعية أن المسلمين صلبوا الأقباط فيها، وأوقعوا بهم الأذى.

فهذه الصورة هى نتاج فكرها المريض وربما نتاج بعض ضعاف النفوس من الخونة المهاجرين الذين استجابوا للمال اليهودى وللمصلحة الخاصة وتظهر الحقائق حول هذه الفرية عندما يتضح أن هذه القرية شهدت قتل شخصين من الأقباط وأسرع الطغاة ينسبون للمسلمين أنهم ارتكبوا هذا الحادث الأليم ولكن التحقيقات سرعان ما أبرزت أن الخلاف كان بين أقباط وأقباط وأن القاتل قبطى واعترف بجريمته وأحيل للقضاء ليحكم عليه بما يستحق.

- هذا القانون تفوح منه رائحة العصبية المقوتة، فهو يجيز للولايات المتحدة أن تعاقب الدولة المسلمة التى تتهم باضطهاد المسيحيين، أما الدولة التى تضطهد غير المسيحيين فلا ينطبق عليها هذا القانون فلا يعاقب الصرب لعمليات القتل والسطو والاغتصاب التى أحدثوها فى البوسنة والهرسك وكوسوفا، ولا تعاقب الفلبين على ما أحدثته من عدوان ضد المسلمين بها، ولا تعاقب إسرائيل على عدوانها المتكرر على المسلمين فيها وخارجها.

- الولايات المتحدة هى التى تُمد المعتدين بأدوات العدوان فى البلاد المختلفة فالقنابل المسيلة للدموع وغاز الأعصاب والعصى المكهربة وغيرها كلها صناعة أمريكية يستعملها الذين يناهضون حقوق الإنسان.

- زار وفد كنائيس نيويورك مصر والتقى بقداسة البابا شنودة وزار مناطق عديدة من مصر وعاد يقول إنه لم يجد اضطهادا دينيا بمصر ووجد المصريين شعبا واحدا متماسكا لا فرق بين مسلم وقبطى.

- قال اللورد كرومر وهو من أخطر أعداء مصر: إنه لا يجد فى مصر شيئا يميز بين المسلم والقبطى لا فى الشكل ولا في الزى ولا فى العادات الثقافية أو حتى أسلوب المعيشة، والشىء الوحيد الذى يميز بينهم أن المسلم يعبد الله فى المسجد، والمسيحى يعبد الله فى الكنيسة.

- إن أقباط المهجر الذين باعوا أنفسهم للشيطان الصهيونى هم نسيج الاتهام الأثيم، وهو اتهام ضد شعب يحكم بدستور واحد وبقواعد المحبة والود بين الجميع، وإن من بين الأقباط عددا من الوزراء والنواب ورجال السياسة البارزين والصحفيين ورجال الأعمال الذين انفتح أمامهم المجال لتكوين الثروات والشركات ولا نريد أن نذكر القائمة الطويلة التى نشرها الأستاذ عادل حمودة عن بعض ثروات الأقباط ومكانتهم المالية بمصر.

- وقد شن المستشار المسيحى الدكتور إدوارد غالى هجوما قويا ضد هذا القانون وعلى كل من ردد هذه الأكاذيب ضد مصر وقال إن ما رددته الصحافة فى شأن هذا الاضطهاد المزعوم ليس إلا صيحة من أعداء مصر الذين يسوؤهم دور الريادة الذى تقوم به مصر فى المنطقة سواء فيما يتعلق بتأثيرها السياسى والاجتماعى أو بمشروعاتها التنموية العملاقة، وإن هذه الكاتبة التى أثارت هذه الزوبعة لم تزر مصر إطلاقا وقد كتبت ما كتبته مدفوعة من أعداء مصر وبأجر مغر.

ونقول لمن يريد أن يعى الحق إننا نعيش فى حياتنا متمثلين بقوله تعالى :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) ﴾ [النحل]

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) ﴾ [الغاشية].

وقول رسول الله ﷺ: «إن الله سيفتح لكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا».

ومن هذا نجد الوئام والسلام يربط بين المسلمين والأقباط، فنحن جميعا ننحدر من أرومة واحدة، التحق بعضها بالإسلام وبقي آخرون على دين الأجداد، ونعيش معا فى عمارة سكنية واحدة وجمعتنا معا المدرسة والجامعة والمكاتب والسوق والمواصلات والحفلات، وفى مصر أسماء مشتركة يسمى بها المسلم والقبطى ومنها : سمير – طارق – حلمى – رأفت – خالد – سهير – عبير – سناء، وأسماء أنبياء بنى إسرائيل كثيرة الذيوع بين المسلمين مثل : موسى – هارون – زكريا – يحيي – عيسى.

فليخجل الذين يريدون أن يفرقوا بين شعب واحد تربطه أعز الروابط مدى ذلك التاريخ الطويل، وليست هذه المحاولة إلا البديل عن صراع الحضارات الذي ظهر بطلانه، وإذا ظهر بطلان إدعاء الاضطهاد للأقباط فإن اليهود سيبحثون عن مطعن جديد ضد مصر والمسلمين، فلنكن فى حذر من هذا الوباء المتجدد، والله معنا فى طريق الحق والعدل.

اليهود وجذور الاضطهاد الدينى

وبمناسبة تفنيد الكلام عن اضطهاد الأقباط فى مصر، نذكر فيما يلى لمحة عن مطلع الاضطهاد الدينى، ودور اليهود فيه :

الأديان السماوية جميعا من عند الله سبحانه وتعالى، فهى إذن من مصدر واحد، وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) ﴾ [آل عمران].

وكما وضحت هذه الآية للرسول محمد صلوات الله وسلامه عليه إنه مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل، فقد وضحت الآية التالية على لسان عيسى – عليه السلام – أنه مصدق لما بين يديه من التوراة، قال تعالى :

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) ﴾ [آل عمران].

ويقدم القرآن الكريم ربطا بين كل من يؤمنون بكتب الله سبحانه وتعالى، فيقول :

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ [البقرة].

ويدعو القرآن الكريم المسلمين أن يعلنوا دعوتهم بالمودة والألفة لأهل الكتاب يقول سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) ﴾ [آل عمران].

ويعلن المسلمون أن أهل الكتاب إذا لم يستجيبوا لهذه الدعوة فإن المسلمين سيظلون متمسكين بالاتجاه السليم:

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) ﴾ [آل عمران].

وكانت التوراة الصحيحة واضحة تمام الوضوح فى أنها تحدثت عن نبى آخر الزمان، ووصفته أدق الأوصاف قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف].

وكان اليهود يهددون سواهم بأن نبى آخر الزمان سيبعث وسينتصرون به على أعدائهم، قال تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة].

ويقرر التاريخ أن اليهود لم يتبعوا الرسول الذي كانوا ينتظرونه للأسباب التالية :

أولا : كانوا يطمعون أن يكون النبى من بنى إسرائيل، ولكن نبى الإسلام جاء من العرب.

ثانيا : كانوا يريدونه أن يعلن أنهم الشعب المختار من بين شعوب الأرض، ولكن الإسلام قال بالمساواة بين البشر، وأن التفاوت يكون بالتقوى والعمل الصالح.

اضطهاد اليهود للمسيحيين :

وهكذا فتح اليهود باب الصراع والاضطهاد بين الأديان وكان اضطهادهم للمسيحيين قاسيا وعنيدا، وقد بدأ اليهود اضطهادهم للمسيحيين منذ عهد مبكر، وكان المسيح – عليه السلام – قمة الضحايا فى هذا الاضطهاد، وقد نزل بأتباعه فى عهده ومن بعده مثل ما نزل به من العسف والظلم، وكان اليهود مصدر هذه القسوة، وقد ظل بنو إسرائيل مسئولين عن العدوان على المسيح حتى تدخلت السياسة فى القرن العشرين فأصدر البابا قرارا بتبرئة اليهود من دم المسيح، وهو كما قلنا قرار سياسى لا يعفي من الجريمة العظمى لليهود.

أصحاب الأخدود :

ومن تاريخ اضطهاد اليهود للمسيحيين ذلك الحدث القاسى الذى رواه القرآن الكريم فى سورة البروج قال تعالى :

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) ﴾ [البروج]

وقد دون التاريخ قصة هذه الاضطهادات، فقد كان ملك اليمن فى القرن

الخامس الميلادي لدولة حِمْيَر اسمه ذو نواس وقد اعتنق اليهودية بسبب الرحلات التى كانت بين اليمن وشمالى الجزيرة العربية حيث يوجد اليهود.

وفى الوقت نفسه كانت المسيحية قد انتشرت فى نجران شمال اليمن وتسربت إلى اليمن، وبسبب التعصب الدينى. خير ذو نواس المسيحيين بين اعتناق اليهودية أو الموت، فاختاروا الموت فحفر لهم أخدوداً وأشعل به نارا متأججة، وألقاهم به فأفناهم بين حرق وقتل.

ولا يستطيع البابا ولا غيره تبرئة اليهود من دم هؤلاء المسيحيين بعد أن رصد القرآن الكريم هذه الجريمة.

الوثنية الرومانية تضطهد المسيحيين :

لم يكن الاضطهاد الدينى الذى تعرض له المسيحيون الأوائل مصدره اليهود فقط، بل تعرض المسيحيون لاضطهاد عنيف من الوثنيين، فإن المسيحية بدأت تنتشر فى الامبراطورية الرومانية على الرغم من قسوة اليهود حتى غلبتهم على أمرهم، وحينئذ تقدم أباطرة الرومان لاضطهاد المسيحيين، وذلك لأن هؤلاء الأباطرة كانوا لا يعرفون من أمر الدين الجديد إلا أنه امتداد لليهودية وكانت اليهودية موضع كراهية من الوثنيين لأن اليهودية أثارت بتعصبها الحقد فى القلوب وكان الأباطرة قبل المسيح – عليه السلام – يقومون بحماية السكان من ضراوة هذا الحقد، حتى إذا أحسوا بأنها ستبدو فى ثوب جديد هو (المسيحية) وتجذب كثرة من الأنصار الجدد، يشيعون تعصبها، ويثيرون حقد الناس عليها، أخذوا فى مقاومة تعاليمها واضطهاد أتباعها.

من صور الاضطهادات التى عانتها المسيحية:

وأبشع حركات الاضطهاد التى عاناها المسيحيون في القرن الأول تلك التى أنزلها بهم نيرون الطاغية (سنة ٦٨م) فقد ألقى جثث بعضهم للوحوش

الضارية تنهش أجسادهم، وأمر فطليت أجسام بعضهم بالقار وأشعلت لتكون مصابيح بعض الاحتفالات التى يقيمها نيرون فى حدائق قصره.

وفى القرن الثانى كان المسيحيون يعتبرون أنجاسا لا يُسمح لهم بدخول الحمامات والمحال العامة، وكانوا - كما حصل فى عهد نيرون - يلقون للوحوش الضارية تفترسهم فى مدرج عام يضم خصومهم الذين يحضرون للتلهى بمشاهدة هذه المظاهر.

عصر الشهداء :

وسجل القرن الثالث صورا أخرى من أبشع ألوان التعذيب والاضطهاد للمسيحيين، وذلك فى عهد الامبراطور دقلديانوس فقد أمر بهدم الكنائس المسيحية وإعدام كتبها المقدسة وآثار آبائها، وقرر اعتبار المسيحيين مدنسين سقطت حقوقهم المدنية، وأمر بإلقاء القبض على الكهان وسائر رجال الدين، وتجريعهم العذاب ألوانا، ونفذت هذه التعليمات فى جميع المناطق، فامتلأت السجون بالمسيحيين، واستشهد الكثيرون بعد أن مزقت أجسادهم بالسياط، والمخالب الحديدية، أو أحرقت بالنار أو قطعت إربا، أو طرحت للوحوش الضارية، أو غير هذا من وجوه التعذيب، وقد سمى عصر دقلديانوس لذلك (٢٨٤ - ٣٠٥م) عصر الشهداء.

المسيحيون يضطهدون أعداءهم :

وفى مطلع القرن الرابع تغيرت الأحوال، فقد أصدر الإمبراطور قسطنطين مراسم التسامح سنة ٣١١ و٣١٣م ، ثم دخل المسيحية بعد ذلك بعشر سنوات، وسرعان ما قويت المسيحية ورجحت كفتها وشالت كفة أعدائها فانقضت المسيحية على أعدائها تفتك وتفنى، فتأسست الجمعيات الثورية باسم الدين، وكان أشهرها جمعية "الصليب المقدس" فى "تورينو" التى أخذت على عاتقها

استئصال شأفة الملحدين من بقايا الرومان الوثنيين، وحدث بعد ذلك ولا حرج عن الدماء التى سفكت والأرواح التى أزهقت، وقد وصف المؤرخون هذه الحركة بأنها أفظع المجازر البشرية التى سجلها التاريخ.

على أن اضطهاد المسيحيين لم يكن موجها ضد الوثنيين فحسب بل اتجه كذلك ضد المسيحيين أيضا، ففي القرن الرابع عارض أريوس (٣٣٦م) القول بألوهية المسيح، مما دعا إلي عقد مجمع نيقية، وقد قرر هذا المجمع إدانة أريوس وإحراق كتاباته، وتحريم اقتنائها، وخلع أنصاره من وظائفهم ونفيهم والحكم بإعدام كل من أخفى شيئا من كتابات أريوس وأتباعه.

وفى عهد تيودوسيوس (٣٩٥م) ظهرت لأول مرة "محكمة التفتيش" وتم تنظيمها فيما بعد فى القرن الثانى عشر، وكان أعضاؤها من الرهبان، وكانت وظيفتهم اكتشاف المخالفين فى العقيدة، ولهم سلطان كبير ولا يسألون عما يفعلون، وتاريخ محكمة التفتيش هو تاريخ الاضطهاد الدينى فى أقسى صوره، وقتل حرية الفكر بأبشع أداة، ومن أقذر سبلها أنها حتمت أن يُنهى كل إنسان فى غير تباطؤ ما يصل إلى سمعه بشأن الملحدين، وهددت من يتوانى فى ذلك بعقوبات صارمة فى الدنيا والآخرة، فانتشر بسببه نظام التجسس حتى بين أفراد الأسرة الواحدة.

وفى القرون التالية كثر صرعى هذا النظام، وتعرض للشنق والحرق والإعدام جماعات كثيرة لأنهم فى نظر الكنيسة هراطقة وكثيرا ما كانت الكنيسة تلجأ للإعدام البطىء مبالغة فى التنكيل فتسلط الشموع على جسم الضحية، وتخلع أسنانه كما فعل بنيامين كبير أساقفة مصر، لأنه رفض الخضوع لقرار مجمع خلقدونية الذى يرى أن للمسيح طبيعتين إلاهية وإنسانية.

وكان الإعدام يسبق بصور بشعة من التعذيب، كالكى بالنار والضرب، لعل المتهم يعترف بجرمه، فإن لم يعترف قتل لأنه لم يكن يُعتبر بريئا حتى تثبت

إدانته، بل مجرما حتى تثبت براءته، وهيهات أن تثبت، وإذا اعترف المتهم بجريمته استمر تعذيبه قبل القضاء عليه، لعله يكشف عن أنصاره وشركائه.

وكانت القوانين تقضى أن يحمل الأبناء والأحفاد تبعة الجرم الذى يتهم به الآباء، فيسلبون حقهم فى مباشرة الكثير من الوظائف ومزاولة الكثير من المهن.

وفى أسبانيا قدمت محكمة التفتيش للنار أكثر من واحد وثلاثين ألف نسمة، وحكمت على أكثر من مائتين وتسعين ألفا بعقوبات أخرى تلى الإعدام.

وفى سنة ١٥٦٨ أصدر الديوان حكمه بإدانة جميع سكان الأراضى الواطئة والحكم عليهم بالإعدام، واستثنى من الحكم بضعة أفراد نص القرار على أسمائهم، وبعد عشرة أيام من صدور الحكم دفع للمقصلة ملايين الرجال والنساءوالأطفال.

الكنيسة الكاثوليكية تضطهد البروتستانت :

ولما ظهر البروتستانت اتجهت الكنيسة لهم بالاضطهاد العنيف وإجراء المذابح، ومن أهمها مذبحة باريس فى ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢م التى سطا فيها الكاثوليك على ضيوفهم من البروتستانت، هؤلاء الذين دعوا لباريس لعمل تسوية تقرب بين وجهات النظر، ثم قتلوا خيانة وهم نيام، فلما أصبحت باريس كانت شوارعها تجرى بدماء هؤلاء الضحايا، وانهالت التهانى على تشارلس التاسع من البابا ومن ملوك الكاثوليك وعظمائهم على هذا العمل الدنىء.

البروتستانت ينتقمون :

والعجيب أن البروتستانت لما قويت شوكتهم مثلوا نفس دور القسوة مع الكاثوليك، ولم يكونوا أقل وحشية فى معاملة خصومهم من أعدائهم السابقين، ولولا أن عصر النور أطل لرأينا صورا أكثر وأكثر من اضطهاد البروتستانت للكاثوليك.

بابا الكاثوليك يدعو للحرب الصليبية:

ذلك هو تاريخ الاضطهاد الدينى كما دونته المصادر والكتب المقدسة، اضطهاد تبناه اليهود وبالغوا فيه وشاركهم فى ذلك الوثنيون، ثم أخذ عنهم الكاثوليك، ولابد فى هذا المجال أن نذكر صرخة البابا أوربان الثانى فى كلير مونت التى يحث فيها رجال الإقطاع أن يوقفوا الحرب الدائرة بينهم : وأن يتجهوا بسيوفهم وأسلحتهم لضرب الكفرة (يقصد المسلمين) وكلماته هى:

بأمر الله تتوقف العمليات الحربية بين المسيحيين فى أوربا ويتجه هؤلاء بأسلحتهم إلي هزيمة الكفرة (يقصد المسلمين).

وصاح البابا يخاطب الجماهير : لقد كنتم تحاولون فى غير جدوى إثارة نيران الحروب والفتن فيما بينكم، فالآن اذهبوا وأزعجوا البرابرة، وخلصوا البلاد المقدسة من أيدي الكفار وامتلكوها لأنفسكم فإنها كما تقول التوراة تفيض لبنا وعسلا.

وأعلن البابا -ليشجع على سفك الدماء- أن كل من يشترك فى هذه الحروب تغفر له ذنوبه ويدخل فى حماية الكنيسة.

ويقول الأستاذ نقولا زيادة :

إن الحملة الصليبية الأولى على فلسطين والفظائع التى ارتكبتها الحملة فى طريقها لاحتلال القدس ليست مما يشرف، وقد تظهر لنا اتجاهات الصليبيين من خلال تصرفهم السيء مع مسيحى فلسطين أنفسهم، فقد استولوا على أديرتهم وطردوهم من الكنائس والبيوت، فتبعثر المسيحيون الأورثوذكس فى جهات فلسطين وشرقى الأردن، وسار البطريرك إلي القاهرة ليعيش فى حماية الفاطميين.

سماحة الإسلام:

وجاء الإسلام بهديه وسماحته فعمل على إيقاف هذا الباطل ودعا لحرية الأديان: " لا إكراه فى الدين" لكم دينكم ولى دين" ولكن هذه الصيحة الكريمة لم تصل إلى قلوب اليهود، فلا يزالون كما كانوا سائرين على خط أصحاب الأخدود، يقتلون في الفلسطينيين ويستولون على دورهم حتى يأذن الله بعون من عنده ليعود العالم إلى الكلمة المثلى التى دعا لها الإسلام.

العولمة

العولمة هى تبعية العالم لأسلوب بشرى واحد في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة والإعلام.

وفى تقديرى أن العولمة طريق يهودى أو أمريكى جديد للمواجهة مع الإسلام ومحاربة مبادئه وأسسه بعد أن فشل "صراع الحضارات" في تحقيق هذه الغاية.

والدعامة التى تقوم عليها العولمة هى تفوق الغرب فى مجال الاتصالات والانجازات والمعلومات بسبب انتشار الكومبيوتر والفاكس والإنترنت وصور التكنولوجيا المختلفة مما جعل العالم كما يقولون كقرية صغيرة لا تحتمل خلافا ولا تعددا فى شئون السياسة والاقتصاد والثقافة وغيرها.

وتروج الدعاية للعولمة أنها تعمل للوحدة بين الشعوب ليتكون عالم واحد لا يقف فيه فريق ضد فريق.

وهذا الاتجاه يختلف مع طبيعة الحياة ومع النهج الذى خلق الله تعالى الناس عليه، قال تعالى:

- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات]. أى المقصود التعاون بين الجماعات وليس إدماجها فى فكر واحد.

- وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [هود].

- وقال تعالى: ﴿ ... لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون (٤٨) ﴾ [المائدة].

- وقال : ﴿ ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير (١٤٨) ﴾ [البقرة].

- وقال : ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين (٣٤) ﴾ [الحج].

وعلي هذا فالنهج الإسلامى هو التعاون بين الجماعات وليس إخضاعها لوجهةواحدة.

ووجود العولمة سيضع الزمام فى يد القوى الكبرى والولايات المتحدة بوجه خاص، فالعولمة ستمثل المثل العربى الذي يقول "كل الصيد في جوف الفرا" والفرا هنا هو الولايات المتحدة، فالعولمة شكل جديد من أشكال الاستعمار، وهى إحياء لتسلط القوى الغربية على الشرق وبخاصة الشرق الإسلامى، وهى فى هذا الطور تعتمد على الاختراعات الحديثة أكثر من اعتمادها على القوى والسلاح.

ونجيء بعد هذا التعميم لنقدم بعض التفاصيل عن أخطار العولمة.

فالعولمة في المجال السياسى ستضع مقدرات العالم فى يد القوى الكبرى التى أصبحت تتصرف بإرادتها المنفردة فى شئون العالم وتخطت الأمم المتحدة ومجلس الأمن، كما فعلت الولايات المتحدة وبريطانيا فى ضرب العراق دون إذن من مجلس الأمن مما جعل الأمين العام للأمم المتحدة يعلن أن ذلك اليوم من ديسمبر سنة ١٩٩٨ يوم حزين بالنسبة للأمم المتحدة إذ تجاهلتها الولايات المتحدة وجرت معها بريطانيا، فالعولمة بذلك تقضي على الحياة السياسية

والحكومات وتضع الولايات المتحدة مكانها، وقد تكررت غارات الولايات المتحدة على العراق دون أن تهتم باحتجاج مجلس الأمن.

والعولمة فى المجال الاقتصادى ستضع القوة الاقتصادية فى يد دول الشمال الغنية التى تعجز دول الجنوب على منافستها فى قوانين العرض والطلب والإنتاج، وبذلك يزيد ثراء الأغنياء على حساب الفقراء الذين يزدادون فقرا، ويقولون إن هناك شركات اقتصادية عملاقة لها فروع فى جميع الدول أو أكثرها، ولا جنسية لها، والحق أنها شركات استعمارية ترتبط جنسيتها بجنسية البلد الذى سيكون فيه مقرها وهى تعمل لخدمة هذا البلد دون سواه وتجعل العالم سوقا لأصحاب النفوذ دون حواجز أو جمارك.

وفى مجال الاقتصاد هذا نذكر أن مصر بذلت جهدا كبيرا في مجال إنتاج القمصان حتى نجح القميص المصرى وكسب مكانة طيبة فى السوق العالمية، ولكن أعداء نجاحنا خرجوا علينا بالاتهام بما يسمى "الإغراق" أى أننا نصدر فى هذا المجال أكثر من حقنا، مع أننا نستورد أشياء خداعة تضر أكثر مما تنفع مثل البطاطس (تشبسى) الحافلة بما يسمى (المكسبات) لتحقق اللذة فى الطعم مع ما فيها من الأضرار الصحية.

ونستورد كذلك صنوفا من مساحيق الصابون التى كسد بجوارها الصابون النابلسي ونستورد كنتاكى والهامبورجر وعمد الغرب إلي الإغراق بمعنى آخر هو دفع سلع رخيصة جدا لتنافس السلع المصرية حتى يقل الإقبال على السلع المصرية فتصاب بالكساد وتتراجع مصانعها، وبعد ذلك يرفعون أثمان سلعهم لتعوض الخسارة، وذلك اتجاه آخر لما يسمى الإغراق أى إغراق السوق بالسلع المنافسة بأسعار تقل مؤقتا عن التكلفة لقتل السلع الوافدة من الدول النامية.

ويعتبر الاقتصاد العولمى من أخطر أنواع العولمة لأنه يهدف إلي أن يسيطر اقتصاد الغرب على العالم(١).

والعولمة في مجال الإعلام ستطغى على حق الشعوب فهى تقدم المعلومات عن الولايات المتحدة والغرب، وإذا قدمت معلومات عن الشرق فستكون مزيفة لتتفق مع وجهات نظر الغرب كما فعلت فى اتهام مصر باضطهاد الأقباط، وأوشك صوتها الباطل أن يتغلب مع الحق الواضح فى هذه القضية.

ثم إن الإعلام الغربى يهتم بشئون الغرب ويهمل مشاكل الشرق حتى أصبحنا نعرف عن الغرب أضعاف ما نعرف عن اليمن أو عمان.

وأبسط مثال لخطر الإعلام أن مصر كانت معروفة بالجودة فى الصناعات الجلدية، وكان الحذاء المصرى له مكانة قوية فى السوق العالمية، ثم ظهر الحذاء الأبيض الذى به لمبة تضىء عندما يمشى الصبى وتوالت الإعلانات عن هذا الحذاء الذى لا نعرف أى جدوى من المصباح الذي به، وهزم الحذاء المصرى أمام الدعاية المكثفة للحذاء الأجنبى.

ومثل هذا يقال عن مشروب الكوكاكولا الذي هزم من كثرة الدعاية والجوائز الحقيقية أو الوهمية شراب الليمون الطازج المفيد، ومثل هذا يقال عن كثير من الأطعمة الأمريكية كالهامبورجر التى زحفت على طعامنا الشرقى الذي كانت له سمعة رائعة اعترف بها الغربيون.

بل إن الأفلام والمسلسلات الأمريكية كانت من أسباب الكساد الذى أصاب السينما العربية.

وفى مجال الاقتصاد أيضا يذكر بعض المفكرين أن العولمة تعمل ضد

(١) وفى هذه الأيام تضغط شركات الأدوية الأمريكية والغربية باسم قانون الملكية الفكرية لترفع أسعار الدواء المصرى رفعا فاحشاً بحيث لا تستطيع الغالبية العظمى من الشعب شراءه.

الصحة العامة لشعوب الشرق عندما تشترى اللحوم والأكباد السليمة من الشرق وتبيع للشرق لحوما موبؤة وأكبادا ملوثة تحمل الموت للشعوب(١).

اتساع مجالات العولمة :

ولم تقنع الولايات المتحدة بالعولمة في المجال السياسى والاقتصادى بل امتدت أطماعها فى ظل العولمة إلى الحياة الاجتماعية والثقافية والسلوك، فكما يلتزم الناس بالعولمة فى المجال السياسى والاقتصادى يلتزمون فى عرف أمريكا بالثقافة الأمريكية والسلوك الأمريكى، ولهذا نقلت العولمة إلى "الأمركة" وأصبح من العولمة أو الأمركة ما شاهدناه على شاشات التليفزيون فى مباريات المونديال من "قبلات طويلة بين فتيان وفتيات، ولكن ذلك مظهرا من مظاهر الأمركة وسلوكها، ومن مظاهر العولمة كذلك السعى للحرية المطلقة فى مجال الجنس والعلاقات الأسرية على نحو ما اقترحته أمريكا فى مؤتمر القاهرة وبكين.

والعولمة بهذا المعنى الأمريكى خطر على الأديان والقوميات والسلوك والثقافات، ويمكن القول إنها متجهه ضد الإسلام والدول الإسلامية التى ظهرت صخرة شامخة تحول دون الانطلاق الكامل للفكر الأمريكى، ويمكن كما ذكرنا من قبل أن نكون بديلا أو امتدادا لفكرة صراع الحضارات التى قال بها هانتنجتون.

وهكذا تكون هذه الأمركة خطرا على القيم والسلوك الشرقى والأخلاق والشرائع السماوية ولا شك أن دخول الشرق أو ما يسمى العالم الثالث فى صراع سياسى أو اقتصادى أو ثقافى مع دول الشمال ستكون الخسارة فيه

---

(١) وتضاف شحوم الخنزير إلى كثير من الأطعمة والمنظفات رغم علمهم أن الإسلام يحرم لحوم الخنزير وشحمه وهذا يعتبر منهم غشاً وتدليساً بل جريمة نكراء.

لدول الجنوب التى ليس عندها من أجهزة الاتصالات ووسائل الدعاية ما لدى دول الشمال، فلا تقوى دول الجنوب على المواجهة والصمود(١).

بقى أن نتحدث عن العولمة فى مجال العلم والتكنولوجيا، وفى هذا المجال نحن نصرخ فليتنافس المتنافسون، وبهذا يتحتم علينا أن نتعلم من تفوق الغرب فى هذا المجال، وأن نحاول تقليده واللحاق به، فكم أخذ الغرب منا، فلا مانع أن نحاول الاقتباس منه كما فعلت ماليزيا التى سيأتى الكلام عنها.

هذا ومن نتائج الأمركة أن أصبحت اللغة الأمريكية (الإنجليزية سابقا) هى اللغة الأولى فى مجالات المال والأعمال والعلم والطيران والسينما والإعلام وغيرها، ومن الأمركة انتشار زجاجات المشروبات الأمريكية، ونظام الوجبات السريعة، وفروع الشركات الأجنبية، وجعل الدولار هو العملة القياسية للدول وتداخل رؤوس الأموال الأمريكية فى الشركات غير الأمريكية خاصة فى الشركات متعددة الجنسية.

وهذا كله زحف أمريكى على شئون الحياة فى العالم وجانب الشر فيه أكثر من جانب الخير إن وجد خير.

القيم الإسلامية والتطور :

وولاؤنا للقيم الإسلامية وتمسكنا بها، ليس هذا موقفا يتنافى مع التطور، وإنما هو تذكير بالثوابت التى ندين بها وننطلق على أساسها، وهى لا تمنع الانطلاق والتطور ولكنها تحرس من الانفلات الذى يقضى على ماضينا وقيمنا ويفتح الباب للظلام والضياع، فتطورنا ينبغى أن يكون مع المحافظة على هذه الثوابت.

---

(١) وفرض الولايات المتحدة الأمريكية على العالم الإسلامى تغيير مناهج التعليم وعدم الإشادة بأبطال العرب والإسلام والإشادة بزعمائهم وأدبائهم وحذف الآيات القرآنية التي تتحدث عن الجهاد وتكشف مخازى اليهود عبر التاريخ .

وتفرض

بزعماء الغرب وأدبائه

والخطر الاجتماعى الأعظم يكون بالتضحية بثقافتنا، فتمسك كل شعب بثقافته ضرورة لأن ثقافة كل شعب هى خبراته التى استخلصها من تاريخه الطويل، وما ورثه عن آبائه وأجداده فنقلته من البدائية والهمجية إلى المدنية، فبعد شعب عن ثقافته عودة للحيوانية وتضحية بالتاريخ، وبما حصل عليه الإنسان من كسب عن طريقه، وبإيجاز : موت الثقافة موت للإنسان، وضياع ثقافة قوم على يد آخرين هو استسلام للآخرين وخضوع لهم، ويأتى هذا الانتقال أو تبنى ثقافة الآخرين عن طريق عوامل تندفع ضمن المسلسلات والمسرحيات والإعلانات التى تندفع مع الأخبار عن طريق وسائل الإعلام.

وعلى هذا يجب ألا نستسلم لهذا الزحف الذي يريد ابتلاع ثقافتنا القومية وإحلال ثقافة غربية غريبة محلها، ويجب أن نقاوم هذا الزحف المشئوم الذى يريد أن يطغى على تاريخنا وقيمنا فإما أن نهزمه وإما أن نجرى معه مصالحة لا تمس الثوابت التى نتمسك بها من العادات الصالحة والقيم والهويات[1].

ومن الأمور التى تجرى فيها المصالحة، التوافق فى مبدأ حق تقرير المصير ومحاربة العنصرية والإرهاب والاعتراف بحقوق الإنسان التى أقرتها الأمم المتحدة وحق التأليف والإنتاج الفكرى وأمثال ذلك كثيرة، فنحن بذلك لا ندعو للعزلة عن المجتمع البشرى، ولكنا لا نريد أن يدفعنا الاختلاط إلي التبعية فيما لا يناسب ثقافتنا وتقاليدنا الصالحة، فنحن نرحب بالتحديث والتنوير ونقاوم إلغاء شخصياتنا وأعرافنا الحصينة.

وموقفنا من الزحف الغربى يتلخص فى أننا نقتبس العلوم والتكنولوجيا فهى بطبيعتها تخضع لنمط واحد، ولكننا نحرص على التعددية فيما عدا ذلك تبعا لاختلاف الشعوب واتجاهاتهم ومعتقداتهم ونحن فى هذا نسير على نمط

(١) تريد الولايات المتحدة ودول أوربا أن تفرض علينا الكفر والدعارة وفساد الأخلاق وخراب الذمم كما ظهر ذلك جليا فى مؤتمر المرأة فى القاهرة وبكين .

ماليزيا، فهى بلاد إسلامية شرقية حافظت على ثقافتها وتقاليدها، وحققت مع ذلك تطورا علميا مذهلا، فقد أصبحت ضمن الدول العشر الأوائل فى الاليكترونيات فى العالم .

وتمكنت خلال خمسة عشر عاما من تحقيق قاعدة صناعية بلغت صادراتها فى العام خمسين مليارا من الدولارات الأمريكية، وتشمل صناعاتها السيارات وصنوفا من الأدوية لأمراض خطيرة، كما تشمل مواد جيدة للتشييد والبناء أخف من المواد المستعملة وأقوى من الحديد، وتضم كذلك أنواعا من المنسوجات، ولا شك أنه إذا تجمع التجمع الذى ندعو إليه من المسلمين والشرقيين وانتفع بتجربة ماليزيا، فإن جبهة جديدة ستظهر وتصد زحف العولمة.

تصحيحات داخلية :

ثم نقول بصراحة إننا لا يزال أمامنا شوط طويل مهم قبل العولمة أو الأمركة، وفى قمة هذا الشوط نظام الشورى الإسلامى، فالأحرار هم الذين يبدعون ويبتكرون، ثم العدالة الاجتماعية التى تحيى عقولا دمرها الفقر والحاجة والتى تقضى على الاستغلال وانتهاز الفرص.

ونريد أن نقضى على العفن فى المناصب، فبعض الأحزاب تبقى فى الحكم عشرات السنين ووزراء يبقون فى مناصبهم جيلا بعد جيل كأن البلاد أجدبت ولم تعد تنبت سواهم، وذلك بحجة الاستقرار ، ونحن بحاجة إلى اصلاح على كافة المستويات(١) .

ونحن محتاجون إلى سوق عربية، بل إسلامية مشتركة نحمى عن طريقها اقتصادنا ونطوره.

ونريد أن نقول للغرب بصراحة إن عندنا قيما، وتشريعات إسلامية لا

(١) اصلاح دينى وسياسى واقتصادى واجتماعى وإعلامى.

نستطيع أن نتخلى عنها، ونحن نحتقر كثيرا مما لدي الغرب وبخاصة فى مجال العلاقات بين الرجل والمرأة وأمور الجنس والعلاقات العائلية بوجه عام.

ونذكر الغرب الذى حقق كثيرا من التطور العلمى أن عندنا ثوابت نتمسك بها ونفتديها بكل غال وعزيز، ومن هذه الثوابت الإيمات باله واحد أحد والإيمان برسالة محمد ﷺ وأنها خاتم الرسالات وتقديس التشريعات الإسلامية فى مختلف الشئون، وهذه الثوابت تسبق عندنا التكنولوجيا ولا تتعارض معها.

ونحن محتاجون إلى إعادة سريعة للنظر فى النظم التعليمية، فالتعليم الحالى لا يخرج نوابغ ولا ببدع المواهب، فالمدارس الإبتدائية أقل جدا من المطلوب والجامعات أكثر جدا مما تحتاجه البلاد وكثرة الأعداد بها لا تتيح للأساتذة فرصة أداء واجبهم على نحو أفضل وتخرج آلاف العاطلين كل عام، ومحتاجون فى الإعلام إلى رفض الارتجال وإبدا ع إعلام مدروس.

ومحو الأمية يجب أن يتجه أساسا للمنبع، فعملية تفريخ الأمية أكثر نشاطا من وسائل القضاء عليها.

والأزهر الشريف يحتاج إلي نقلة كبيرة ودراسات تصحيحية واسعة، ليس الأزهر للأسف مستعدا لسماعها أو الاهتمام بها، فلا نشغل أنفسنا بها فلا يزال طلابه وشيوخه يبذلون الشهور فى دراسة أشياء صامدة وشروخ ومقوسة معقدة، ولا تزال اللغات الأجنبية غريبة أو شبه غريبة عن الأزهر مع أنها الوسيلة للحديث مع ملايين المسلمين من غير العرب وللحوار مع غير المسلمين فى العالم.

الخلا صة :

والخلاصة يجب أن نكون حريصين كل الحرص على أن ننال من التطور العلمى والتكنولوجى أكبر قدر ممكن، ولكننا فى نفس الوقت نحرص كل الحرص على الحفاظ على حريتنا السياسية والاقتصادية وعلى ثقافتنا وقيمنا وسلوكنا،

فذلك هو النبت الذي ورثناه وطورناه على مر التاريخ، وهو صورتنا أمام المجتمع الإنسانى.

وحتى نحافظ على هويتنا وتاريخنا وننال فى الوقت نفسه من العولمة قسطا، ينبغى أن نكون لنا ما يسمى "عولمة إسلامية" بأن تلتقى الدول الإسلامية فى وحدة سياسية واقتصادية وصناعية واجتماعية وبذلك يكون لنا صوت مسموع فى مختلف القضايا، ولا شك أن صوت خُمس العالم سيكون مدويا، وينال كل الاحترام بين الأصوات الأخرى لو تجمع فى محراب واحد وقد حبانا الله كثيرا من النعم بما نستطيع به أن نعيش فى رغد من العيش وينبغى أن يفتح المعسكر الإسلامى أبوابه لكثيرين من الذين تهاجمهم الرأسمالية ليتكون تجمع إسلامى أفريقى آسيوى يقف فى وجه العولمة.

ثقافة العالم تجد من يدافع عنها:

عقد فى أوتاوا عاصمة كندا مؤتمر فى أوائل يوليو سنة ١٩٩٨ ورفع صيحة تحذير من مخاطر الغزو الأمريكى لعقول شباب العالم ومحاولة "أمركة" الشعوب ووضح المؤتمر أن ثقافة الكاوبوى والجينز والهامبورجر هى الأساس لثقافات العنف والجنس والمخدرات والتحرر من جميع القيود بلا ضوابط، وهذه قد اقتحمت عقول الشباب فى دول كثيرة وهاجمت قيم هذه الدول ووضعت بدلها قيما أمريكية بديلة مع تناقض القيم الأمريكية مع تقاليد هذه المجتمعات وأخلاقها وسلوكها.

وقد حضر مؤتمر أوتاوا اثنان وعشرون وزير ثقافة من بلاد الشرق والغرب، والشمال والجنوب والأغنياء والفقراء، وكلهم يصرخون بضرورة إقامة تحالف يحمى الثقافات المحلية من الزحف الأمريكى وضرورة احترام السيادة الثقافية والتعددية الثقافية فى مواجهة الفكر الأمريكى فى هذا المجال وإن من

الخطر أن تتراجع الثقافات المحلية أمام أمريكا، فالثقافة المحلية جزء من سيادة الدول واستقلالها الوطنى.

وإذا كانت العولمة المحلية أمام أمريكا، فالثقافة المحلية جزء من سيادة الدول واستقلالها الوطنى، وإذا كانت العولمة تسعى لكسر الحواجز التجارية والسياسية وإلى التحرر الاقتصادى والسياسى، فإن مؤتمر أوتاوا يسعى إلي فرض الحماية وإلى بناء حائط جديد للحفاظ على ثقافة الشعوب وتراثها من الضياع والذوبان في متاهات الثقافة الأمريكية التى لا جذور لها والتى تسعى للهيمنة على ثقافة العالم.

وأوضح المؤتمر أن الدول يهمها أن تحقق النفع فى التطور التكنولوجى وتستفيد من وسائل الاتصالات الجديدة، ولكن مع الحفاظ على ثقافتها وتقاليدها، وأبرز المؤتمر أن الفيلم وبرامج التليفزيون والكتاب تحمل فى طياتها ثقافة مختلفة عن ثقافة العالم وتريد أن تسيطر عليها، وألزم المؤتمر بضرورة الحفاظ على الهوية المحلية والثقافة الوطنية.

وكان يمثل اليونسكو فى هذا المؤتمر مستر هيرتان تورال المدير التنفيذى لمنظمة اليونسكو، وكان مما قاله للصحفيين : تبين من الدراسات التى أجراها خبراء اليونسكو أن على الدول التى تخشى على ثقافتها من الضياع نتيجة لصناعة الترفيه والتسلية الأمريكية أن تعود إلي أصولها ومعتقداتها، فأول دراسة علمية قام بها اليونسكو حول الثقافات الوطنية كشفت عن أن دولا كثيرة قد تراجعت ثقافتها وتراثها نتيجة لحساب ثقافة دخيلة بسبب الخلط بين الثقافات واقتصاد السوق.

وهذه الدول تناست ثقافتها لأنها تتصور أن الاقتصاد وتحقيق الربح أهم شىء فى الوجود، لكن الثقافة تحقق التنمية الاقتصادية والرخاء، وأية دولة تملك

والأفراح والمهور والجهاز لابد أن تتناسب والعصر الذى نعيش فيه، ولعب الكرة فى الشوارع يجب أن يوضع له حل.

وفى الجملة لابد من مراجعة اتجاهاتنا الثقافية ومراجعة القيم والعادات لنسمو بها بما يناسب التطور العلمى، وبذلك تكون هذه الثقافة جديرة بالحفاظ عليها والدفاع عنها.

أما إذا بقيت ثقافتنا بدون تهذيب، أو إذا تناسينا ثقافتنا واندمجنا فى ثقافة الولايات المتحدة فإن عالمنا فى الحالتين سيعيش فى عالم غريب عن العالم الذى ينبغى أن ننتمى إليه(١).

النظام الرأسمالى ليس بعيدا عن النقد :

أن النظام الرأسمالى الذي تتبناه العولمة ليس نظاما بعيدا عن النقد، فالحياة فى الاتحاد السوفيتى أو الاتحاد الروسى توضح فشل هذا النظام الرأسمالى مما خلق صرخات عالية تدعو للعودة للشيوعية، وهذا النظام الرأسمالى فشل أيضا فى الصين حيث ظهرت معه الرشوة وأصبح كل شىء معروضا للبيع حتى الذمم والتاريخ والبطولات، ويواجه النظام الرأسمالى رفضا من أكثر جماهير الغرب فكثير من دول أوربا الغربية (فرنسا وألمانيا وبريطانيا) وأكثر الدول الشرقية تقودها أحزاب يسارية أو قريبة من ذلك.

والإسلام لا يتنافى مع العلم بل يدعمه ويتسع لكل جوانب التكنولوجيا، ولا

(١) واذكر أننا يجب أن نحقق اصلاحا قانونيا وتشريعيا لأننا للأسف نستمد القانون المصرى من القانون الفرنسي والايطالى الذي لا ينص على تطبيق حدود الله ولا شرعه ويبيح الزنا وشرب الخمر وغيرها من المفاسد لدرجة أن هذه القوانين تسمح بالعفو عن الزوجة الزانية إذا عفى عنها زوجها حتى بعد أن تحبس وتعاقب الزوج إذا قتل عشيق زوجته ولا تعاقب هذا العاشق إذا قتل الزوج بحجة أن دعوى الزنا سقطت بمقتل لأنه وحده الذي يملك رفع دعوي الزنا ولا يملك رفع دعوى الزنا إلا الزوج فالخالية من الزواج لا يطالها القانون..

ثقافة وطنية قوية تستطيع مقاومة جميع الجحافل الثقافية الواردة من الخارج، وضرب مدير اليونسكو المثل بما يحدث لدول الاتحاد الأوربى التى تتجه للوحدة وفى نفس الوقت تحافظ على ثقافتها بمختلف الوسائل، وتأكيد هذه الثقافة التى هى جزء مهم من مبادئها واستقلالها الوطنى.

الحفاظ على ثقافتنا يقتضي تخليصها من الشوائب:

وإذا كنا في العالم العربى والإسلامى نتمسك بثقافتنا وقيمنا فلابد من تطهير هذه الثقافة من ركام علق بها مع الزمن، فالتليفزيونات العربية لابد أن تراجع برامجها، وتختفى المذيعة التى تدور بميكروفونها وتسأل الناس فى الشارع أسئلة تافهة مثل مخرج فيلم كذا أو ملحن أغنية كذا، ولابد من إيقاف سيل الإعلانات المملة الهابطة ووسائل تقديمها المنحرفة، ولابد لهذه التليفزيونات أن تنظم الأحاديث التى تقدمها، وأن تعنى بالأحاديث التى تقدم لآلاف الطلاب والتلاميذ خلال العطلة الصيفية، فتقدم لهم القصة والرواية والأدب والتاريخ والحضارات المختلفة، فالدراسات التى عنينا بها خارج قاعة المحاضرات بقيت فى أذهاننا وازدهرت وإن تلاشت المحاضرات فى الموضوعات المقررة.

ولابد من شرح موقف الإسلام من الفنون حتى تكف الأصوات التى نادت بإعدام التليفزيون والفيديو.

وما يقال عن التليفزيون يقال مثله أو أكثر منه عن الإذاعة.

والميكرفونات التى تصرخ فى الأفراح لابد من إيقافها لأنها تمثل إزعاجا ونشراً للفساد بما تذيعه من أغان هابطة وكلام بذىء منحط يردده المخمورون ومتعاطى المخدرات والمنحرفون الذين يفخرون بماهم عليه من انحطاط وإجرام.

والمآتم يجب أن تعود لمظهرها الإسلامى، وأن نتخلص من التباهى بالنعى فى صفحة كاملة ومن سراداقات تسد الطرق.

يقف الإسلام ضد التطور الصناعى والتطور الاقتصادى ما دام ذلك لا يتعارض مع الفكر الإسلامى فى مبادئه الاقتصادية.

تلك هى العولمة بديل جديد لصراع الحضارات، وكما فشل صراع الحضارات فلابد من القضاء على هذا البديل المشبوه، ولحسن الحظ تشترك معنا دول كثيرة فى التصدى لهذا الباطل.

هذا وعجلة الصراع تدور ضد الإسلام، ولكن عجلة المقاومة حاسمة للرد على كل هذه المحاولات.

العالمية والعولمة :

من الناس من يظن أن العولمة هى إحياء لفكر العالمية فى الإسلام والحق أن هناك فرقا كبيرا بين العالمية والعولمة، فالعالمية دعوة خير من الله سبحانه وتعالى للمجتمع البشرى ليلتقى على أسس إلهية فى العقيدة والتشريعات والأخلاق، وهى أسس تضمن للإنسان خيرى الدنيا والآخرة، وفيها مساواة بين البشر دون اعتلاء أو تسلط من جماعة على جماعة، ودون فرض عادات قوم وآراءهم وتقاليدهم على آخرين.

ومع العالمية التى تجمع الناس على أسس قوية إلهية تسمح العالمية بوجود فوارق واختلافات فى العادات وتقاليد اللباس والطعام والشراب والمهور، تلك التى تتدخل فيها البيئة والعادات، وكذلك فى العلاقات العامة بين الأفراد والجماعات مادامت هذه لا تتنافى مع التشريع الإسلامى الذى فرضه الله تعالى وارتضاه الجميع، وهذه الاختلافات يراها الباحث بين أقطار العالم الإسلامى، فمع الاتفاق فى المبادئ الرئيسية من عقيدة وصلاة وصوم .... نجد لباس المسلمين مختلفا وأطعمتهم تتناسب مع البيئة فى نوعها وطريقة تناولها، فمثلا لقد غطت المرأة المسلمة جسمها حسب تعاليم الإسلام، ولكن بقيت الجلابية فى العالم

العربى والسارونج فى إندونيسيا والسارى فى الباكستان وكل منها تغطى الجسم مع الاحتفاظ بالتقاليد والعادات.

وقد شملت عالمية الإسلام عدة أقطار فى مختلف القارات فجمعت الناس على مبادىء الإسلام وتركت لهم الحرية فى شئون الحياة التى لا تتعارض مع هذه المبادىء.

والعالمية ليس فيها من يشرع من البشر ومن يتلقى هذا التشريع فالمشرع الأعظم هو الله سبحانه وتعالى، أما العولمة التى تسمى أحيانا كما قلنا من قبل (أمركة) فهى عادات وتقاليد نشأت فى الولايات المتحدة وعبرت عن هواها، وهى تفرضها على المجتمع البشرى فرضا.

فالعولمة نوع من تسلط الغرب على المجتمع ليندمج المجتمع فى سلوك وعادات ارتضاها الغرب لنفسه، وهو سلوك فيه كثير من الانحرافات التى يرفضها العقل السليم، كالفوضى الجنسية واضطراب نظام الأسرة وشرب الخمور والتدخين والاختلاط والتعصب والأنانية وغير ذلك، وقبل هذا كله فيه العلمانيةوالإلحاد.

وجهات نظر أخرى عن العولمة :

وقد ظهرت وجهات نظر أخرى لبعض المفكرين الذين لا يمكن تجاهل آرائهم، وبخاصة فى هذا الموضوع الذى هو فى الحقيقة حديث الظهور فى الحياة مما يوحى بوجهات نظر مختلفة.

وفيما يلى نورد أهم الآراء :

رأى الأستاذ محمد السماك :

نشر الأستاذ محمد السماك بالأهرام يوم ١٩٩٩/٦/٢٣ مقالا عن العولمة

خلاصته أن العولمة نظام قديم، ففي القرن العاشر الميلادى مارس الإسلام نوعا من العولمة إذ اتسع نطاقه من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهندى ونشر مبادئه (وقد سبق القول أن العالمية فى الإسلام تختلف عن العولمة وذكرنا الفروق بينهما).

وفى عام ١٩٠٠ كانت بريطانيا على رأس النظام العالمى، واليوم تتربع الولايات المتحدة على عرش العولمة، فالعولمة تتحقق بتوافر عوامل ثلاثة هى :

١- دولة كبرى.

٢- مجموعة من الدول الصغرى.

٣- قدرة الدولة الكبرى على استقطاب الدول الصغرى سواء بالإقناع أو الإلزام.

" أما اليوم فالعولمة تتحقق بوسيلة تمكن من الجمع بين الإقناع والإذعان معا وهى وسيلة الاعلام الحديث، فهذا الاعلام قادر على الوصول إلى كل الخفايا دون استئذان وقادر على التأثير على الفكر فى مجتمعات الدول الصغرى وبهذا تستطيع الدول التى تمتلك هذا الإعلام السيطرة مع المجتمعات وعلى زرع بذور ثقافة جديدة تحاول بها تغيير القيم والعادات بل والعقائد".

"وقد استطاع الإعلان القوى تسويق بعض المواد غير الضرورية كالعطور، أو المواد الضارة ، السجاير، أو المحرمة كالكحول".

وبهذا يتجه العالم إلى أن يصبح شعبا واحدا فى قيمه واتجاهاته.

وهكذا يتضح أن العولمة شر لابد منه، ولا يقف فى وجهها من الجانب الثقافى إلا الإسلام الذي ينبغى أن يعتمد على إعلام قوى يرسخ المبادىء الإسلامية فى نفوس المسلمين، بل يذيع هذه المبادىء على قاعدة واسعة.

رأى المستشار محمد سعيد العشماوى :

اختار الأستاذ المستشار محمد سعيد العشماوى لمقاله عنوانا مثيرا هو "عولمة مصر" كأنه يقصد أن يكون باحثا عن مكانة مصر وكيفية تعاملها مع العولمة نظرا لوضعها الجغرافى، وتراثها التاريخى، وواقعها المستقبلى، محذرا من محاولة اقتصار الحديث عن العولمة بأسلوب انشائى أو من وجهة نظرنا وسدها، بل المفيد أن نتحرى المعايير الدولية والقواعد العالمية والمواصفات العالمية للنجاح فى سباق العولمة دون أى إخفاق. ثم يحدد الكاتب نموذج الدولة المؤهلة للعولمة بقوله : إنها الدولة التى تقوم على مؤسسات صحيحة شكلا وموضوعا ثابتة راسخة، وبغير المؤسسات بمواصفاتها العالمية فإن التعامل الدولى يكون مشوبا بالحذر مختلطا بعدم الأمان لافتقاد ضمان الاستمرارية فى تنفيذ المعاهدات والتعاقدات.

رأى الأستاذ طارق حجى :

أما الأستاذ طارق يحيي فقد كتب مقالا قطع به الطريق على الباحثين، فقرر أن العولمة أمر واقع (وذلك عنوان مقاله) وذكر فى المقال إن أحدا لا يستطيع إيقاف زحف العولمة كما لا يستطيع مقاومة الزلازل والبراكين وفيما يلى بعض كلماته :

" العولمة – فى الحقيقة – تعنى أن الحضارة الغربية، والتى تجلس الآن على مقعد السائق بالنسبة للطور الحالى من أطوار المسيرة البشرية عازمة على أن تقنن العديد من القواعد التى تنظم مجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والقانونية والثقافية، فالحضارة الغربية المنتصرة، والجالسة على مقعد القيادة (حاليا) عازمة على أن تسير المعاملات الاقتصادية والتجارية والصناعية والعديد من المسائل والشئون السياسية والقانونية والثقافية (ومن بينها حقوق المؤلف

بالمعنى الواسع) وفق القواعد التى ترسخت فى ظل الحضارة الغربية التى تبوأت مقعد القيادة على مستوى العالم خلال القرون الأربعة الأخيرة، وإن كانت قيادة هذه الحضارة قد انتقلت من شرق المحيط الأطلسى إلى غربه خلال العقود الخمسة الأخيرة.

الوقت مقعد السائق -كما ذكرت- على مستوى المسيرة البشرية العالمية، أن تجعله أمرا واقعا تعمل هذه الجهات (وأولها الولايات المتحدة الأمريكية) على فرضه وتعميمه بجوانبه الاقتصادية وبجوانبه الأخرى والعديدة ومن أهمها الشق الثقافىوالفكرى.

"وهكذا، تكون العولمة أبعد ما تكون عن فكرة مطروحة للنقاش ، وإنما هى أشبه ما تكون بظاهرة طبيعية كالزلازل أو البراكين التى من العبث أن نناقش هل هى أشياء جيدة أو سيئة، والصواب أن نعمل على التعامل معها أفضل وانجح تعامل، لأن البشر يختلفون فى مواجهة وكيفية التعامل مع الواقع، ولكن المصيبة تكون كاملة وشاملة عندما يحاول البعض مناقشة : أيقبلون أم يرفضون الزلازل والأعاصير والبراكين، لأنهم من جهة لا يملكون معطيات تغيير الواقع كما أن تركيزهم على محاولة التغيير المستحيلة تجعلهم لا يعملون فى المجال الوحيد المتاح وهو التعامل الذكى والأمثل والأكثر مردودية وفائدة مع الواقع، والذي لم ولن يسألهم أحد (ممن يملكون المقادير) عن رأيهم فيه".

وإذا ابتعدنا قليلا عن المجال الاقتصادى والمجال الإدارى، فإن نفس المنطق سوف ينطبق على مجالات أخرى عديدة كالتعليم والثقافة والاعلام فقيادات هذه القطاعات أمامها طريقها : طريق يتبنى فلسفة "شجب العولمة" والوقوف أمامها وكأنها "فكرة رديئة مطروحة للجدل" وطريق آخر لا ينشغل باستحسان أو باستهجان "العولمة" لإيمان أصحاب هذا الطريق بأن العولمة (فى كل الأحوال) واقع حادث وما يهم أصحاب هذا الطريق هو أن يكون لهم منهجهم فى التعامل مع هذا الواقع وبأفضل السبل وأكثرها فائدة".

وهذا الطريق هو الذى أشرنا له عندما ذكرنا أن لنا ثوابت لا نتخطاها وهناك أشياء يمكن أن تتعاون فيها مع العولمة كحقوق الإنسان والمساواة والعدالة الاجتماعية وحقوق المؤلف على أوسع نطاق.

ومرة أخرى فالعولمة اتجاه جديد تختلف حوله الآراء، وقد حاولنا إبراز أهم الآراء لنختار منها ما يناسب أحوالنا.

* * *

المراجع

١- القرآن الكريم . ٢- مسند الإمام أحمد .

٣- البخارى . ٤- مسلم .

٥- مصر والإسلام د/ محمود زقزوق

٦- عالمية الإسلام د/ شوقى ضيف .

٧- عظمة الرسول - محمد محمد عامر .

٨- الأقليات الدينية والحل الإسلامى د/ يوسف القرضاوى .

٩- الجذور التاريخية - د/ محمد أبو ليلة .

١٠- موسوعة الحضارية الإسلامية د/ أحمد شلبى .

١١- مجموعة من الصحف العربية والأجنبية .

١٢- موسوعة الحضارة الإسلامية د/ أحمد شلبى.

١٣- مقارنة الأديان د/ أحمد شلبى .

١٤- شبهات المستشرقين ضد الإسلام د/ أحمد شلبى .

١٥- عالمية الإسلام د/ أحمد شلبى .

١٦- اليهود فى الظلام د/ أحمد شلبى.

١٧- مع القرآن الكريم د/ أحمد شلبى .

١٨- الكنز المرصود فى آيات التلمود .

١٩- العالم الإسلامى وزارة الثقافة .

٢٠- ول ديورانت . ٢١- السيرة لابن هشام.

٢٢- فهرست ابن النديم. ٢٣- ابن رشد المفترى عليه

٢٤- الإسلام والحضارة الإسلامية .

وغيرها،،،

الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس